محمد إبراهيم مبروك

علمانيون أم ملحدون

حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين



دار ثابت

علمـــانيـون ..
أم ملحـــدون ؟

محمد إبراهيم مبـــروك

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

إهـــــداء

إلى طلبة الجامعات ومن يماثلونهم .. أقدم هذا الكتاب راجياً من الله أن يكون سلاحاً ماضياً فى أيديهم فى مواجهة الأفكار العلمانية الغازية والفلسفات الغربية الملحدة .

محمد

بسـم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

يرتكز الغرب فى فرض هيمنته على عالمنا الإسلامى ليس فقط على تفوقه العسكرى والإقتصادى وإنما فى الأساس على قاعدة عريضة من الأكاذيب والأضاليل والأباطيل .

كيف نشأ العلم وكيف جاءت الحضارة ؟

تقول الأسطورة الغربية كما يدعى ألدو ميبلى[1] وأمثاله عن الحضارة الإغريقية « التى ينتمى إليها الغرب من الناحية الفكرية فقط كما سنوضح فيما بعد » أنها « معجزة ندين لها بعلمنا الحالى وليس بعلمنا فحسب بل يمكن أن يقال بجملة الحضارات فى جميع مظاهرها على وجه التقريب » .

وأقام الغرب على هذه الأكذوبة أكذوبة أكبر وهى أن الإسلام لم يكن دوره الحضارى سوى الحفاظ على التراث العلمى للإغريق إلى أن تتسلمه أوروبا مرة أخرى . ألم تقف الكنيسة الغربية حجر عثرة أمام تقدم العلم فكيف من الممكن أن يكون للإسلام أى إسهام علمى وحضارى ؟![2] .

إن مايصنعه هذا الغزو الفكرى من تحطيم للذات ليتضائل أمامه ماتطمح إليه عشرات الجيوش من فتك وإستعمار وإستعباد للنفوس . فليس علينا إذن لو صدقنا بهذا الكلام سوى التشبث المهين بذيل الحضارة الغربية لنلتقط مايمنوه علينا من فتات إن التخلى عن الإسلام هو تفريغ للنفس البشرية من الحقائق الإلهية التى تمنحها المعنى الحقيقى لوجودها . وهو أيضاً تخلى عن الحصن الوحيد الذى يعصمنا من إلتهام الغرب لنا .

(١) نقلا عن الدكتور ط . زغلول النجار ود. عبد الله الدفاع : إسهام المسلمين الأوائل فى تطور علوم الأرض .

(٢) راجع مايردده أمثال قاسم أمين فى كتابه (المرأة الجديدة) من تحقير لحضارتنا فى أوج إزدهارها وتقديس للحضارة الغربية .

وإذا كانت هذه هى أهداف الغرب فماذا من الممكن أن نصف الذين يعملون بكل مايملكون من ثقافة ومقدرة على التلفيق والدس والتضليل – لتحقيق تلك الأهداف إلا بالإنهزام والتواطؤ والعمالة .

والعلمانية دعوى عريضة كاذبة يقف ورائها عندنا الذين جعلوا من أنفسهم أوعية مفتوحة لتلقى نفايات الفكر الغربى أو مايمضى بهم إلى الإنهيار .

ماهو معنى العلمانية :

أعتقد أن أقرب تعريفات هذه الكلمة إلى الدقة هو ماأورده قاموس ويستر الشهير : « رؤية للحياة أو أى أمر محدود يعتمد أساساً على أنه يجب إستبعاد الدين وكل الإعتبارات الدينية وتجاهلها ومن ثم فهى نظام أخلاقى إجتماعى يعتمد على قانون يقول : بأن المستويات الأخلاقية ، والسلوكيات الإجتماعية يجب أن تحدد من خلال الرجوع إلى الحياة المعاشة والرفاهية الإجتماعية دون الرجوع إلى الدين »[٣] .

ومن خلال دراستى هذه (وهو ماسأبينه فى نهاية الباب الأول) فقد توصلت إلى التعريف التالى : العلمانية : هى الإقتصار على العقل[٤] البشرى فى إدراك الحقائق وتصريف شئون الحياة .

لكن الدعوى العلمانية عندنا لاتقف عند هذا الحد فكما سأبين فيما بعد فإن العلمانيين لدينا هم أتباع لمذاهب فلسفية إلحادية محددة أى أن المسألة فى الأساس ليست النزاع حول تدخل الإسلام فى شئون الحكم والمجتمع أو عدم تدخله (كما هو شائع) وإن يكن هذا وحده كافيا للخروج عن دائرة الدين ، وإنما المسألة هى إسلام أو لا إسلام فهؤلاء الذين هزمهم ضعفهم وشهواتهم وإنحلالهم أمام سطوة الحضارة الغربية ومغرياتها ينقمون علينا إحتفاظنا بالإسلام الذى هو عزتنا . مع أن المسألة ليست إلا مرحلة حضارية يتولى فيها الغرب

(٣) الجذور العلمانية :
(٤) من المفهوم أن العقل هنا لايعنى المنهج الفلسفى العقلى دون التجريبى وإنما يشمل المنهجين معاً .

دور الفتوة ويحاول بكل مايملك من قوة ومغريات أن يفرض منطقة على الجميع ، لكننا لن نقبل منطق الفتوة .

فبالرغم من هزيمة المسلمين العسكرية والسياسية والإقتصادية أمام الغرب فإن الإسلام ذاته مازال يواصل زحفه فى عقول الغربيين وفى عقول مفكريه على وجه أخص ولم يجد الغرب للدفاع عن نفسه إلا مايلتجأ إليه بعض المنهزمين من شتائم وإلقاء التهم والإفتراءات.وهكذا منح الجائزة العالمية (نوبل) لنجيب محفوظ وأطلق علينا ربيبه الذليل سلمان رشدى .

هؤلاء الغربيون الذين عجزوا عن إدراك حقائق الإنسان المصيرية فأرادوا أن يجعلوا من العالم مصنعا لإنتاج ملذاتهم وشهواتهم ووسائل لهو هم وأرادوا أن يجعلوا منا وقوداً لهذا المصنع هؤلاء الذين صاروا من غير الإيمان قوالب مادية مصمتة أرادوا إرغامنا على تقيىء الحقائق الوحيدة التى تمنحنا المعانى الحقيقية لوجودنا .

إسع وراء رغبات طموحة بلا حدود تجدد دائماً على الدوام ولاتهدأ أبداً عند أى تلبية . حقق أعلى الأرصدة تفوق على كل الأرقام حطم فى سبيل ذلك كل شيء حتى تصير أنت بذاتك رقما ولكن لاتقف أبداً لأنك إذا وقفت لتسأل نفسك : لماذا أفعل كل هذا : فلن تجد أى إجابة .. لن تجد أمامك سوى الإنتحار .. ذلك نموذج الإنسان الغربى الذى يريدون أن يجعلوا منا مسوخاً منهم .

ماالذى يتبقى للإنسان بعد الإيمان سوى أن تحاصره البشاعة من الداخل والخارج وهو يمضى دونما إرادة إلى الموت الذى ينتظره فاغراً فاه .

نجانا الله من المهلكات وعصمنا بالإسلام من شر الفتن والزلات .

والله ولى التوفيق

محمد إبراهيم مبروك

الجيزة يناير : ١٩٩٠

القســـم الأول

الباب الأول

أصل الحضارة الغربية

الحضارة الاغريقية وقيمتها الحقيقية بين الحضارات القديمة

الحالة السياسية لليونان

دولة المدينة

لم تكن للأمة اليونانية دولة موحدة إلا فى السنوات القليلة التى حكمها الإسكندر وكانت قبل ذلك التاريخ عبارة عن مجموعة من المدن المتنافسة التى كثيراً ما تشتعل . بينها الحروب والتى كان من أشهرها الحرب البولوينيزية بين أثينا وأسبرطة . ومن ثم شاع بين أهل هذه البلاد مفهوم المدينة الدولة مثلما كان فى مدينة أثينا .

وقد مرت مدينة أثينا بسلسلة من التغيرات كان أولها سيادة النظام الملكى . ثم انتقلت السلطة تدريجياً إلى أيد الأرستقراطية التى أعقبتها فترة من حكم الملوك غير الوارثين أو الطغاة وفى النهاية إنتقلت السلطة السياسية إلى المواطنين ، وهذا هو المعنى الحرفى للفظ «الديمقراطية» ومنذ ذلك الحين أخذ حكم الطغاة والديمقراطية يتناوبان .

وصف أثينا :

وصف أحد الزائرين مدينة أثينا فقال : «إن الطريق إلى أثينا يدخل السرور على القلب ، فهو يخترق حقولاً مزروعة من أولها إلى آخرها، أما المدينة فلا تسقط عليها الأمطار وتعانى من نقص المياه ، والشوارع ليست إلا أزقة عتيقة يائسة ، ومنازلها متواضعة قليلها حسن ، وحين يصل الغريب إليها لأول مرة لا يكاد يصدق أن هذه هي أثينا التى طالما سمع عنها».

الواقع أن أثينا كانت تجهل المرافق الصحية التى تمتعت بها مدينة أور السومرية أو مدينة هارابا الهندية قبلها بألفى عام وكانت بيوتها تشاد باللبن مع أسقف من القرميدأ وحتى من الطين والقش ولم تكن الشوارع مرصوفة فكان الضيق منها يتحول إلى طين فى الربيع وتراب فى الصيف . ولم تكن نيران الفحم النباتى بقادرة على محو لسعة الشتاء تماماً ، وكانت البيوت الصغيرة المشيدة من طابق واحد تصبح أشبه بالأفران فى الصيف .

كانت أثينا تنقصها وسائل الراحة المتوفرة فى حياة المدينة الكبيرة وهى مثل المدن/ الدول القديمة لكانت أشبه ببلدة صغيرة فى الواقع إذا كان يمكن قطع المسافة من وسطها إلى أطرافها فى خمس عشرة دقيقة لقد كانت مدينة من المزارعين الفلاحين الذين كان لا يزال على الكثيرين منهم أن يتوجهوا إلى الحقول المجاورة للاعتناء بأراضيهم ، فلم تكن أثينا تختلف كثيرا عن قرية ريفية من حيث التكنولوجيا ووسائل الراحة والتخطيط المادى والمعيشة السكان[1] » .

يقول ول ديورانت[2] :

« لم يكن هناك ديمقراطية بالمعنى المفهوم لنبذها ومهاجمتها لأن عدد العبيد فى أثينا بلغ (٥٠،٠٠٠) من أصل (٤٠٠،٠٠٠) من السكان وكانوا مجردين من الحقوق السياسية من أى نوع . أمن الأحرار البالغ عددهم (١٥٠،٠٠٠) لم يتمكن سوى عدد (٤٠٠،٠٠٠) من السكان وكانوا مجردين من الحقوق السياسية من أى نوع . ومن الأحرار البالغ عددهم (١٥٠ ، ٠٠٠) لم يتمكن سوى عدد قليل منهم من تمثيل أنفسهم فى الجمعية العامة حيث كانت تبحث وتقرر سياسة الدولة » .

---

(١) كافين رايلى : الغرب والعالم ج١ . ص ١٠٢

(٢) قصة الفلسفة : ص ٨ .

ثانياً : الآراء السياسية لفلاسفة اليونان

شقراط وأفلاطون

سقراط وأفلاطون

كان المسئولون من الحكام وممثلى الشعب ، ومن الديمقراطيين بنوع خاص ناقمين على الفلاسفة والفلسفة : على سقراط ثم على أفلاطون بعد موت سقراط لأنهما كانا من أصدقاء الطغاة وأقربائهم الذين حكموا أثينا بممالأة إسبرطة . ولعل إدانة سقراط ترجع بعض أسبابها إلى شعور الديمقراطيين الأثينين بأن سقراط نفسه لم يكن من أنصار الحكم الديمقراطى وبأنه كان من المعجبين بإسبرطة ويؤيد هذا الإفتراض موقف أفلاطون الذى أضطر إلى ترك المدينة عند وفاة صديقه والذى أشاد بعد ذلك فى كتبه السياسية بالنظم الإسبرطية .

«لقد كان أفلاطون فى الثامنة والعشرين عند موت سقراط ، وترك هذا المصير المحزن أثراً على كل تفكير التلميذ ، وملأه إحتقاراً للديمقراطية وكراهية للجماهير والجموع التى ولدتها فى نفسه نشأته الأرستقراطية ، وساقه إلى قرار يستدعى ضرورة القضاء على الديمقراطية واستبدالها بحكم الأعقل والأفضل من الرجال[٣]» .

جمهورية أفلاطون :

«يرى أفلاطون أن المواطنين فى جمهوريته المثالية ينقسمون إلى ثلاث طبقات : الحكام والجنود وعامة الشعب . أما الحكام فهم صفوة محدودة العدد هى وحدها التى تملك زمام السلطة السياسية وعندما تنشأ الدولة للمرة الأولى يعين المشرع الحكام وبعد ذلك يخلفهم أمثالهم ولكن من الممكن للأطفال

(٣) ول ديورانت المرجع السابق ص ١٩ .

الممتازين من الطبقات الدنيا أن يرتفعوا إلى مستوى طبقة الحكام ، على حين أن ذرية هذه الطبقة إذا كانت متدنية المستوى يمكن أن تهبط إلى مستوى الجند أو العامة .

وحياة الحكام الاجتماعية والاقتصادية هى حياة مشاعية صارمة فبيوتهم بسيطة وهم لا يأكلون إلا ما يحتاجون إليه فى معيشتهم الخاصة وهم يأكلون سويا فى جماعات ، ولايقتاتون إلا مأكولات بسيطة ويعيش الجميع (أى طبقة الحكام) فى شيوعية تامة ، فجميع النساءِ (هن) زوجات (بجميع) الرجال ولكن الحاكم يحافظ على أعدادهم بأن يجمع فى أعياد معينة بين مجموعة مناسبة من الرجال والنساء يفترض أنها أختيرت بالقرعة ، ولكنها فى الواقع أختيرت من أجل تحسين النسل ويؤخذ الأطفال من أمهاتهم عند ولادتهم ويربون سوياً على نحو لا يعرف معه أى شخص من هم أبواه الحقيقيان أو من هم أبناؤه . أما أولئك الذين يولدون من زيجات لم يقرها الحاكم فيعدون أبناء غير شرعيين ، كما يتم التخلص من المشوهين والمنتمين إلى سلالات هابطة . ويختار أفضل الجميع لكى يتعلموا الفلسفة ومن يتفوقون فيها يكونون فى النهاية هم الصالحون للحكم[٤] .

«وهكذا صور لنا أفلاطون شيوعية أرستقراطية أو دكتاتورية الشيوعيين المتفلسفين فما كان يحق للصناع أن يشاركوا فى حكم المدينة لأنهم لا يطيقون التفلسف وبالتالى لا قدرة لهم على توجيه الدولة إلى أسمى أهدافها ، بل لم يكن من مقترحات أفلاطون أن يمتد نظامه الشيوعى حتى يشمل الصناع (أى الشعب) ، الذين ينبغى أن يقتصر تعليمهم على تلقينهم أصول صناعتهم وأن تظل حالتهم كما هو المعهود من حالتهم فى كل الأرستقراطيات» .

(٤) برتر اندرسيل : حكمة الغرب ج١ ص ١١٩ ومابعدها وراجع أيضاً تاريخ الحركات الإشتراكية ج١ وقصة الفلسفة لديورانت .

أرســــطو :

أما أرسطو فقد كان أكثر هؤلاء الفلاسفة ميلا إلى الاستبداد والعنصرية وكما يقول ول ديورانت[٥]: «ليس من المتوقع أن نجد فى معلم الإمبراطور (الإسكندر) أو زوج الأميرة روابط وثيقة مع عامة الشعب» .

وحرص أرسطو هذا على الإرتكان إلى الحكام يعود إلى طبيعته الخاصة التى «يعوزها الحماسة المضحية بالنفس إعوازاً رهيباً[٦]» .

وفى رأى أرسطو إن الناس منذ الساعة الأولى من ولادتهم بعضهم سادة للعقل لذلك فمن الأفضل أن يتدرج جميع الضعاف تحت حكم السيد .

« ومن الأفضل أن يكون الحكام حاكما واحداً ، ويكون القانون إلى هذا الحاكم الأفضل أداة وليس قيداً أو حداً ، إذ لا قانون يسرى على أصحاب المقدرة البارزة من الرجال ، أنهم هم القانون ، ومن السخرية أن يحاول .. أحدنا وضع قانون لهم وسيكون جوابهم على من يحاول وضع ذلك بما ذكر فى إحدى الأساطير اليونانية : قالت الأسود للأرا نب فى مجلس الوحوش عندما طالبت الأرانب المساواة للجميع : أين مخالبك[٧] »؟

أما عن وضع المرأة فى رأيه فهى من الرجل «كالعبد من السيد وكالعمل اليدوى من العمل العقلى وكالبربرى من اليونانى . فالمرأة رجل ناقص ، تركت واقفة على درجة دنيا من سلم التطور . والذكر متفوق بالطبيعة والمرأة دونه بالطبيعة ، والأول حاكم والثانية محكومة . وهى ضعيفة الإرادة وبذلك فهى عاجزة عن الإستقلال . وأفضل مكان لها حياة بيتية هادئة ، تكون لها السيادة المنزلية بينما يحكمها الرجل فى شئونها الخارجية .[٨]

وعلى أساس تقسيمه السابق للناس إلى سادة وعبيد كان تسويغه لشرعية الرق .

---

(٥) قصة الفلسفة ص ٩٢ . (٧) ديورانت : قصة الفلسفة ص ١٠٢

(٦) هـ . ج. ويلز معالم تاريخ الإنسانية مجلد أول ٢. ص ٣٩٤ .(٨) المرجع السابق ص ٩٧ .

ولقد كانت نظرة أرسطو للشعوب الأخرى نظرة مفرطة فى العنصرية فهو الذى حفز الإسكندر على غزو هذه الشعوب وحكمها حتى ولو أدى ذلك إلى إبادتهم « فاليونانيون أعلى بطبيعتهم من البرابرة ومن ثم فإن من الطبيعى أن يكون الأجانب عبيداً(٩)» ولأن أرسطو هو سيد العالم والمعلم الأول لدى الغربيين فلقد ظلت لأفكاره هذه أثرها الراسخ فى عقولهم وأفعالهم .

ويحاول ويلز أن يقدم لأرسطو العزاء فى موقفه المتخازل فى تسويغه للإستبداد والرق .

«وربما لم يتهيأ لأرسطو أن يكون لنفسه غير شخصية ضئيلة فى التاريخ الفكرى لولا تلك الهبات التى كان يتلقاها من الملك فإنه استطاع بفضلها أن يبرز ذكاءه الباهر فى صورة مادية ويجعل له أثراً محسوساً . فالرجل العادى يفضل الطرق السهلة مادام فى إستطاعته سلوكها وصولا يكاد يأبه متعمداً بما تنتهى به تلك الطرق آخر الأمر حتى ولو أدت به إلى طريق مغلق . ولما أن وجد عامة معلمى الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يستطيعوا ضبطه على الفور . انصرفوا فى تلك الأيام من إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة . وتحولوا إلى إتقان أساليب التهرب الجميلة التى تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس(١٠)».

هذا هو الدور السياسى لأرسطو طاليس فخر الحضارة الإغريقية عند الغرب وهذه هى قيمته الحقيقية فى ضوء التحليل العلمى الكاشف وليس فى ظل الأبهة الطاغية التى يضفيها عليه مروجو دعاية تفوق الحضارة الغربية وأصولها الإغريقية التى لا تقارن .

---

(٩) بديتراندرسل نفس المرجع ص ١٨٢

(١٠) ويلز : نفس المرجع ص ٣٩٦ .

أثر الحضارات القديمة
فى الحضارة الإغريقية

يروى ديورانت أن أفلاطون «سافر إلى مصر وتأثر عندما سمع من طبقة الكهنة التى كانت تحكم مصر يومئذ أن اليونان دولة وضيعة تنقصها التقاليد الثابتة والحضارة العميقة(١١) ثم يعلق على ذلك قائلاً : وكان فلاسفة النيل في ذلك العهد لا يعيرون اليونان أهمية بالغة أو إهتماماً جدياً(١٢)».

ويقول عنه أيضا فى موضع آخر «لقد تأثر بحكومة رجال الدين فى مصر ، وحيث وجد هناك شعباً عظيماً ، ومدنية قديمة تحكمها طبقة صغيرة من رجال الدين ، بالمقارنة مع حكم الطغيان والنزاع والضعف وعدم المقدرة الذى كان يطبع نظام الحكم فى أثينا فى ذلك الوقت . فقد شعر أفلاطون أن الحكومة المصرية تمثل دولة أرقى وأرفع بكثير من دولة أثينا» .

إن هذا الذي يذكره عن أفلاطون ويؤيده ليعطي إنطباعاً حاسماً عن مدى تفوق الحضارة المصرية القديمة على الحضارة الإغريقية لأن عصر أفلاطون المقصود بهذه المقارنة يمثل العصر الذهبى للحضارة الإغريقية .

لقد تأثرت الحضارة الإغريقية بالحضارات التى سبقتها تأثرا كبيراً وبالذات الحضارة المصرية والبابلية والهندية يقول المؤرخ العلمى ج . ج . كراوزر(١٣) : لقد كانت مساهمة الإغريق الكبرى فى تقدم العلم على يد جماعة من رجال الإغريق فى المدن الأيونية الناشئة الذين بدءوا فى دراسة ما كان يصل إليهم من آداب وعلوم الكهنة المصريين والبابليين» .

---

(١١) ، (١٢) ديورانت نفس المرجع ص ٢٠

(١٣) صلة العلم بالمجتمع ص ٦٥

وأهم هؤلاء العلماء المشار إليهم طاليس الملطى (نسبة إلى مدينة ملطية التى تقع على الساحل الأيونى وهو الساحل اليونانى المواجه لمصر) وفيثاغورث من مدينة ساموس القريبة من الساحل الأيونى .

يقول الأستاذ أوليرى[١٤] : «يقال أن طاليس درس العلوم الطبيعية والرياضيات فى مصر ويصف فيثاغورث بأنه تبعه فذهب إلى مصر وتعلم على كهنتها» ويقول برتراندر سل[١٥] عن نظرية طاليس فى كسوف الشمس : «وليس من المرجح أن يكون طاليس قد كون نظريته عن الكسوف الشمسى بل لابد أنه كان على دراسة بالسجلات البابلية المتعلقة بهذه الظاهرة ومن ثم فقد عرف متى يحث عن الكسوف» .

ويقول المستشرق الألمانى جورج يعقوب[١٦] عن فيثاغورث «الذى عاش فى مصر لمدة تزيد عن العشرين عاماً» : «أصبح الآن من الثابت أن تعاليم فيثاغورث تعتمد على أصول شرقية» .

ويقول الدكتور جميل بلدى[١٧] : «إن فيثاغورث أثبت قضيته الشهيرة (يقصد نظريته المسماة باسمه) بعد إمعان التفكير فى فن المصريين المعمارى وفى هندستهم التجريبية العملية» .

ويقول القاضى صاعد بن أحمد[١٨] عن يونانى آخر هو بطليموس : «لم يصل إلينا من مذهب البابليين فى حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مستقصى ولا جملة ولا عندنا من آدابهم فى ذلك ولا من أرصادهم غير الأرصاد التى نقلها عنهم بطليموس اليونانى فى كتاب المجسطى فإنه أضطر إليها فى تصحيح حركات الكواكب المتحيرة إذ لم يجد لأصحابه اليونانيين فى ذلك أرصاداً يثق بها» .

(١٤) إسهام ص ٧٣

(١٥) رسل : نفس المرجع ص ٣٣ .

(١٦) نقلا عن الدكتور محمد مختار القاضى .. أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الأوروبية .

(١٧) د. جميل بلدى . ص ٥٨

(١٨) نقلا عن الدكتور محمد مختار القاضى .. أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الأوروبية ص ٦٤ .

ويقول ج . ج . كراوزر[19] : «لقد كان علم الميكانيكا الإسكندرى كالفلسفة الأيونية (أى الفلسفة الطبيعية عند الإغريق) قائما على نقد ومخترعات آراء المصريين» .

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة[20] : «إن كلاً من ثالس ، فيثاغورث ، ديموكريتس ، وأيود مكسوس مدينون بمعرفتهم الفلكية والرياضية إلى المصريين والبابليين والآشورين والفينيقيين» .

الإنجازات العلمية للحضارة الإغريقية
ومدى تجافيها مع المنهج التجريبى

المرحلة الهيلينية ماقبل فتوحات الإسكندر :

يقول ج . ج . كراوزر[21]

«عجز الإغريق عن النهوض بعلوم الكيمياء والطبيعة والميكانيكا لأنهم لم يعيروا أعمال العبيد أدنى إلتفاتة من بادىء الأمر ، ولم يتقنوا حتى طريقة البابليين البديعة فى العد» .

وفى مجال آخر مثل علم المعادن يقول أومز[22] عن الإغريق :

«والمعلومات التى حصل عليها بلينى من تلك المؤلفات الإغريقية الضائعة تشير بوضوح إلى أن إضافات الإغريق القدماء إلى علم المعادن كانت على قدر من التفاهة جعل من فقدانها أمراً لا يؤسف عليه» .

« وقام العالم الألمانى يوليسو شفارز بمراجعة التراث الإغريقى فى مجال علوم الأرض إلى ما قبل حملات الإسكندر المقدونى وجمعها فى كتاب بعنوان «فشل المحاولات الجيولوجية التى قام بها الإغريق منذ القدم حتى عصر الإسكندر» وقد نشر ذلك الكتاب فى لندن سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م . وقد أدت

---

(١٩) صلة العلم بالمجتمع ص ١٠٣

(٢٠) العقيدة والمعرفة ص ١٠٧

(٢١) كراوزر : صلة العلم بالمجتمع ج١. ص ٦٥ .

دراسة شيفارز المستفيضة إلى إستنتاج أن نفراً من فلاسفة الإغريق قد قاموا فى تلك الأيام الباكرة بملاحظة عدد من الظواهر الجيوليوجية الملفتة للنظر ، وبالتأمل فى أسبابها وأصولها ولو بصورة بدائية وكانت إستنتاجاتهم بصفة عامة غير ذات قيمة[٢٣]» .

ولعل بعض الكتاب الغربيين (مثل بريتراندرسل الممجد دائما لكل ماهو غربى) يتحدثون بإعتزاز عن العلوم الطبيعية لدى الفلاسفة الأيونيين ولهذا فسنعرض لبعض من هذه الآراء العلمية بالنسبة إلى طاليس فقد أشرنا سابقاً إلى نظريته فى الكسوف ومدى تأثرها بالبابليين وبالإضافة إلى ذلك فإن أهم الآراء التى تنسب إليه هى قوله « أن العالم يتآلف من الماء»[٢٤](أى أن الماء أصل كل شىء حى وجماد) . ومن أقواله أيضاً «أن للحجر نفساً لأنه يحرك الحديد[٢٥]» .

أما أناكسيمندر فقد كان يقول إن العالم مخلوق من مادة أولية تسمى المادة غير المحدودة (وهى نظرية لها قبول عظيم لدى مفكرى الغرب) ، ولقد كانت الأرض فى رأيه «إسطوانة تطفو بلا قيود نوجد نحن على أحد طرفيها والنسبة بين عرضها وأرتفاعها : ٣ : ١ »[٢٦] «وكان يقول إن الحيوانات نشأت من الطين اليابس وبعد وصولها إلى الأرض أصبحت مهيأة للحياة عليها وكان الإنسان فى بادىء الأمر يشبه حيواناً آخر هو السمكة[٢٧]» .

ولعل ذلك ما جعل عالمين كبيرين يعلقان على ذلك ساخرين وهما يقولان[٢٨] : «ولقد تلا أناكسيمندر فى ذلك الخيال الخصب كثيرون من فلاسفة الإغريق» .

---

(٢٢) ، (٢٣) الدكتور النجار و د. الدفاع – إسهام المسلمين الأوائل فى تطور علوم الأرض ص٨١
(٢٤) كراوزر : نفس المرجع ص ٦٧
(٢٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية : ١٣
(٢٦) رسل : نفس المرجع : ٣٥
(٢٧) يوسف كرم : نفس المرجع : ١٤
(٢٨) مرجع سابق .

وكان إنكسيمانس يعتقد أن الأرض « قرص مسطح قائم على قاعدة[٢٩]» وأنكر حركة الشمس ليلاً من تحتها واستبدل بها حركة دائرة حولها وعلل إختفاء الشمس من المساء إلى الصباح بأن جبالاً شاهقة تحجبها عن الأنظار من جهة الشمال ، أو بأنها أبعد فى الليل منها فى النهار[٣٠]» .

أما هر قليطس فكان يعتقد «أن غروب الشمس إنطفاؤها فى الماء وأنها تتجدد كل يوم وأن قطرها قدم واحدة كما يبدو للبصر»[٣١] هذا بالنسبة للفلاسفة الأيليين فإذا إنتقلنا إلى فيثاغورث وأتباعه فإن أحداً لا ينكر ما لهم من أفضال فى الرياضيات والهندسة على وجه الخصوص مع مراعاة ماسبق أن أشرنا إليه عن مدى تأثرهم فى ذلك بالرياضيات والهندسة التجريبية عند قدماء المصريين ولكن بالنسبة للعلوم الطبيعية فإنهم[٣٢] «لم يضعوا رأياً جديداً بل نقلوا عن انكسيمندر وبالأخص عن أنكسيمانس» .

وعند أنباد وقليس فإن الأجسام الحية تتكون كالآتى : « تجتمع بمقادير معينة بفعل المحبة فتنبت فى الأرض رؤوس بدون رقاب وتظهر أذرع مفصولة عن الأكتاف ، وعيون مستقلة عن الجباة وتتقارب هذه الأمزجة إتفاقاً على أنحاء متعددة فتكون منها المسرح وتكون المركبات الصالحة للحياة ، فتنقرض الأولى وتبقى الأخرى[٣٣]» .

وذهب إنكساغوراس إلى أن القمر «أرض فيها جبال ووديان وأن الشمس والكواكب أجرام ملتهبة لا تختلف طبيعتها عن طبيعة الأجساد الأرضية ، كما يتبين من مقابلة الأحجار المتساقطة من السماء بما عندنا من أحجار[٣٤]» . وكان يعتقد أيضاً أن لكل شيء أصلاً لامتناهى فى الصغر أى أن أصل اللحم لحم لا متناهى فى الصغر وأصل الشعر شعر لا متناهى فى الصغر وأن الماء والخبز يحويان مبادىء لا متناهية فى الصغر عظمية ولحمية ودموية[٣٥] .

---

(٢٩) كراوزر : نفس المرجع : ٦٧

(٣٠) يوسف كرم : نفس المرجع : ١٦

(٣١) ، (٣٢) ، (٣٣)، (٣٤)، (٣٥) المرجع السابق ص ١٧ ، ٢٣، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ .

وتقدم العلم خطوة كبيرة على يد أبقراط وأتباعه[٣٦] وإن كان الطب هو مجالهم الخاص وذلك لإهتمامهم بالملاحظة المنتظمة والعلم النظرى والتجريب أحياناً ولكن ظلت كتبهم مليئة بالأخطاء الفاحشة والآراء النظرية التى لم تحقق تجريبياً وسنذكر عند الحديث عن علوم المسلمين بعض الأمثلة الدالة على ذلك .

ولابد أن تكون لنا وقفة مع أفلاطون وأرسطو .

يقول ج . ج . كراوزر[٣٧] : «ويمكن تقسيم سقراط وأفلاطون إلى أجزاء هامة وأخرى ثانوية الأهمية ، والأجزاء الهامة تتكون من رفض العلوم التجريبية والطبيعية وتأكيد أسبقية العقل على المادة وتأييد الدين والسلطة والأجزاء ثانوية الأهمية ، عبارة عن نقد الآراء الفجة عن العقل والدين والسلطة ، ولقد أدى هذا إلى نتائج غاية فى الأهمية تبرر ماكتسبه سقراط وأفلاطون من شهرة . ولقد شجعا دراسة العلوم الرياضية لأنها الأساس العقلى للأعداد ولمعرفة الحقيقة ، ولكن الجزء الهام من فلسفتيهما كان رجعياً» . وفى موضع آخر يقول عن أفلاطون[٣٨] : «ولقد استعمل قدرته التى لا مثيل لها فى تعليم الناس آراء سقراط عن الحقيقة المقدسة والمطلقة والخالدة والرياضية والخلقية والروحية والتى لا يتوقف وجودها على التجربة وكان يبغى أن تكون العلوم الرياضية أساساً لعلمى الطبيعة والفلك وأن يبعد المشاهدات والتجارب عن العلم» ولكن كيف أدى نمط التفكير الأفلاطونى إلى هذا الموقف ؟

يفرق أفلاطون بين الوجود الصادق ويقصد به عالم الأفكار وبين الوجود الزائف ويقصد به العالم المادى المتغير فعالم الأفكار عنده هو العالم الحقيقى حتى أنه يسميه العالم الواقعى (ولقد ظلت هذه التسمية فى الفلسفة القديمة لمدة طويلة) ، أما العالم الحسى فهو عالم يخضع دائما للصيرورة والتحول ولذلك فهو

---

(٣٦) راجع كراوزر : صلة العلم بالمجتمع ج ١ ص ٧٩ ، ٨٠

(٣٧) نفس المرجع : ص ٨٥

(٣٨) نفس المرجع : ص ٨٤

عالم غير حقيقى . ولذلك فإنه لا يمكن الإعتماد على الحواس فى المعرفة لأنها تخدع الإنسان دائماً فهى لا تدرك غير الشىء الظاهر المتقلب فى تياره على الدوام .

ولنترك الدكتورة زيجر يد هونكة تشرح لنا ما ذهبت إليه من إعاقة الفكر الأفلاطونى لإكتشاف علم طبيعى .

تقول المستشرقة الجريئة(٣٩) : «إن مملكة الفكر المضيئة الرحبة المنتظمة الأبدية التسامى هى الحقيقية بالنسبة إليه والمملكة الأخرى ذات الحركة الدائمة الخاضعة للصيرورة والتحول فى المادية المتعارضة مع الله لا وجود لها قطعاً بلا حقيقة .

والمادة تحظى بنصيب من الوجود أولاً وبطريقة واحدة فقط حين تتمثل الأفكار دون أن ترضخ لها تماماً وهكذا فإنها تصبح بحق خليطاً من الكائن وغير الكائن من الموجود والظاهر لكنها كخليط تظل مبتورة ناقصة مآلها إلى الزوال نصف حقيقة مشابهة للظل» أى أن العالم المادى له وجود مؤقت متغير دائماً ، ولهذا فلا يمكن أن تستمد منه الحقيقة .

ثم تستطرد قائلة(٤٠) : « إن التفكير الواقعى وحده ، هو الذى يحيط بالوجود الفعلى (أى عالم الأفكار) ولا يبرز الكائن من المبهم ، المتغير سوى التفكير المنظم ، المحدد ، المعرف ، المفهوم وهو فى تحديده وثباته يقترب من الحقيقة .. ويقدم أفلاطون الحيز الفاصل بين التفكير الأصيل (عنده) واليقين المبتور بالطبيعة الذى عرقل تقدم العلم التطبيقى الأوروبى بشكل صارخ . أجل ، وحيث أن الروح لا تفنى وأنها رأت كل الأفكار فإن كل البحث والتجربة والتعلم ، مجرد ذكرى . وأن الحس ، التصديق بالحس ، هو الذى يثنيهم عنها . لذا فإنه لدى التعرف على الكون سرعان ما يتذبذب العقل اليونانى التأملى ، وبشكل دائم من المسلمات إلى العموميات فوق الطرق الضبابية

(٣٩) العقيدة والمعرفة : ص ٢٩ : ٣٥

(٤٠) المرجع السابق : ص ٣٢ : ٣٣ . بتصرف .

لتجربة العالم الواقع إلى النظرة العقلانية الخالصة للفكرة المجردة . وذلك الشئ هو الذى يفرز تفرده وإنجازه الفريد وكماله ، ولهذا السبب أيضاً يرتاب ويزدرى ويتجنب الخبرة الملموسة والعمل فى الحدائق الذى يتطلب الملاحظة المكثفة مثلما ينكر على الرجل الحر العمل الموكول للعبيد فقط فى الحقول» .

ويعزو البعض إلى أرسطو الفضل فى وضع مقدمات للعلم التجريبى على أساس موقفه الإنتقادى من آراء أستاذه أفلاطون فى عالم الطبيعة والمعرفة الحسية ولكننا عندما نتحقق من هذه الدعوى فسنكتشف أن فكر أرسطو المعلم الأول وسيد العالم كما يحلو للغربيين أن يسموه كان عائقاً رئيسياً فى اكتشاف العلم التجريبى .

يقول ج . ج . كراوزر(٤١) : «كتب أفلاطون كثيراً فى الفلك والطبيعة ولما كانت الفلسفة الأفلاطونية تظهر فى ثياب معيبة فى تلك الموضوعات ، فإن كتابات أرسطو صورة من تلك العيوب» .

ويشرح ذلك بريتر اندرسل فيقول(٤٢) : «لكى نفهم أرسطو ينبغى أن نذكر أنه أول ناقد لأفلاطون ، ومع ذلك لا يمكن القول أن نقد أرسطو كان يرتكز فى كل الأحوال على معرفة صحيحة وعادة يكون من المأمون أن نثق بأرسطور عندما يسرد آراء أفلاطون . أما عندما ينتقل إلى تفسير معناها فإنه لا يعود موثوقاً منه وبالطبع يمكننا أن نفترض أن أرسطو قد عرف الرياضيات السائدة فى عصره وهو أمر يبدو أن عضويته فى الأكاديمية تؤكده ولكن من المؤكد أيضاً إنه لم يكن ميالاً إلى الفلسفة الرياضية لأفلاطون ، بل أنه لم يفهمها أبداً فى الواقع وينطبق هذا الحكم نفسه على تعليقات أرسطو للفلاسفة السابقين فحين يقدم سرداً مباشراً لآرائهم نستطيع أن نعتمد على ما يكتب ، أما التفسيرات فلابد أن تؤخذ كلها بحذر ... وكذلك فإن أراءه فى الفيزياء والفلك كانت مضطربة إلى حد ميئوس منه» .

---

(٤١) نفس المرجع : ص١ ع
(٤٢) حكمة الغرب : ج ١

ولم يكتب كراوزر ورسل هذا الكلام محاباة للحضارة الإسلامية على حساب الحضارة الإغريقية فكلاهما أبعد ما يكون عن هذا الإتهام بل وتتسم كتاباتهما بالإعتداد الشديد بكل ما هو غربى ، ولكنها الحقيقة التى تفرض نفسها ويكون من العبث محاولة ليها وتأويلها إلى أمر آخر كما يفعل صبيان الفكر الغربى عندنا فى تعاملهم مع كل ما هو غربى .

فإذا كان هذا تقييم الفلاسفة لقدرات أرسطو وآرائه فى العلوم الطبيعية فإن الأثر الذى أدى إليه الإتجاه العام لفكره فى إعاقة هذه العلوم اسوأ كثيراً من ذلك .

كان أرسطو ينظر إلى الطبيعة من خلال نظريته عن الهيولى (المادة الأولى) والصورة . فالكائن الواحد يتكون باتحاد هذين المبدأين إتحاداً جوهرياً من حيث أن كلا منهما ناقص فى ذاته مفتقر للآخر متمم له حيث أنهما لا ينفصلان فى الحقيقة فلا توجد الهيولى (المادة الأولى) مفارقة ولكنها دائما متحدة بصورة وكذلك لا تقوم الصورة الطبيعية مفارقة للمادة . ويقول رسل[٤٣] فى شرح هذه النظرية : «لنتأمل مثلاً المادة الخام التى تستخدم فى صناعة عمود فى مبنى . تلك هى (المادة) ، أما الصورة فهى أشبه بالتصميم الذى يضعه للعمود . والفكرتان معاً هما بمعنى معين تجريدان من حيث أن الشيء الفعلى يجمع بين الإثنين معاً . ويقول أرسطو إن الصورة عندما تطبع على المادة هى التى تجعل هذه الأخيرة على ماهى عليه ، فالصورة تضفى على المادة خصائصها ، وتحولها بالفعل إلى شيء» .

والذى يهمنا فى هذه النظرية أنه أضفى على الطبيعة ذاتها معنى ميتافيزيقياً (غيبياً) فكيف يمكن التعامل معها على أنها أشياء واقعية قابلة للتجريب فبالرغم من أنه «أنزل المثال الأفلاطونى من السماء إلى الأرض وسماه صورة[٤٤]» إلا أن نظريته «لا تختلف كثيرا عن نظرية المثل والصور ، عند سقراط

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

وأفلاطون(٤٥)» . هذا بالإضافة إلى أنه « يضمّن الظواهر الطبيعية طبيعة معينة ساكنة فيها فالجمر مثلا أعطاه طبيعة أرضية جعلته يرتمى عليها لأنه — الحجر — يشتاق وبصبر فارغ الرجوع إلى موطنه . أو كما أعطى النار — التى تهفو بلهبها المتصاعد لطبيعتها الهوائية ، التى يشدها الحنين إلى أعلى — وطنها فى السماء(٤٦) » . كل هذا الكلام يؤكد أن أرسطو « قد غلبت على كتبه فى علم الطبيعة الروح الميتافيزيقية(٤٧) الغيبية وهو ما يتنافى تماماً مع مبادئ العلم التجريبى . وهذا ما جعل رسل نفسه يعترف بأن « تأثير أرسطو من الناحية التاريخية كان معوقاً(٤٨) » وإن يكن هو (على طريقته دائماً فى الدفاع عن القيمة العلمية لآراء أساطين الفكر الغربى) يعزو ذلك فى الأساس إلى الجمود الأعمى والذليل لدى الكثير من أتباعه .

أما زيغريد هونكه فإنها تصف(٤٩) هذه النظريات بأنها « هى التى أربك بها أرسطو العالم القديم وأسدى له خدمة ثنته عن العثور على ذاته ، وعن التوصل إلى رؤية ذاتية للطبيعة ، وعن العثور على الطريق الموصلة إلى العلوم الطبيعية » .

ويذهب ول ديورانت(٥٠) إلى أن «إفتقار أرسطو إلى التجربة والإختبار والآراء العلمية ترك علمه عن الطبيعة كتلة من الملاحظات الفجة عسيرة الهضم ، لقد إمتاز فى جمع المعلومات وترتيبها ، وفى كل ميدان نجده يحسن استعمال تنسيقاته ويضع فهارس لها . ويسير جنباً إلى جنب مع هذه الميول والمواهب فى الملاحظة — إنشغاله وإنهماكه فى الميتافيزيقا الأفلاطونية» .

بل إن رسل نفسه يقول عنه فى كتاب آخر(٥١) فى معرض حديثه عن

(٤٥) رسل : حكمة الغرب ج١ .

(٤٦) زيجريد هونكه : العقيدة والمعرفة ص ٤٤ : ٤٥

(٤٧) جميل بلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها .

(٤٨) حكمة الغرب ج١ .

(٤٩) العقيدة والمعرفة : ص ٤٥ ، ٤٦

(٥٠) قصة الفلسفة .

(٥١) تاريخ الفلسفة الغربية : الفلسفة الحديثة .

كونيقوس : «إن نظرية أرسطو القائلة بأن التغير والفساد مقتصران على منطقة ما تحت القمر مثل كل شيء آخر قاله أرسطو فى الموضوعات العلمية ثبت أنه عائق دون التقدم» .

الاسباب الموضوعية لشهرة أرسطو الطاغية :

فإذا كانت هذه هى قيمة أرسطو الحقيقية فى الفكر والعلم وقبل ذلك فى السياسة فما الذى أضفى عليه كل هذه الأبهة الطاغية ؟!!

إننا من الممكن أن نرجع ذلك إلى عدة أمور منها :

- بقاء اغلب أعماله بينما تعرضت أغلب أعمال الفلاسفة الآخرين للضياع .
- كتاباته المستفيضة فى كل العلوم الفلسفية القديمة
- كونه واضحاً إلى حد رهيب بالمقارنة إلى غيره من الفلاسفة
- إهتمامه الكبير بالبحث العلمى المنظم
- أنه – خلافاً لأفلاطون – دعى إلى المعرفة الحسية وجمع الكثير من الحقائق الفردية إلا أنه لم يتقيد شخصياً بنصيحته مطلقاً .
- لظروف خاصة ـــ تراكمت تاريخياً ـــ وجدت فيه الكنيسة الغربية ضالتها فصنعت منه سياجها الفلسفى .

تفسير بعض الكتاب الغربيين لأسباب إعاقة الفكـــر الإغريقـــى للعلـــم

هذا المستوى المتواضع للفكر الإغريقى ـــ والمبالغ فيه عصريا ـــ دعى بعض الكتاب الغربيين إلى محاولة التماس الأعذار لرجاله المغاوير بحيث ينبغى لنا أن نضع موضع الإعتبار لتقاليدهم والفرص التى هيئت لهم والقيود التى حدت من جهودهم .

ويعترف ويلز أن هناك ثلاثة حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقى ولم يكد ينجو منها إلا فى النادر ، هذه الحواجز هى :

«أولا تشبع العقل الإغريقي بفكرة أن المدينة هي الغاية القصوى للدولة ففي عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها ، وفي عالم كان الناس والفكرات يزدادون تحرراً وتفكك عرى وحرية سراح يوماً بعد يوم ، وفي عالم نزعة التوحيد فيه ظاهرة للعيان حتى في ذلك الزمان السحيق ، كان الإغريق بسبب ما يكتنفهم من ظروف جغرافية وسياسية خاصة لا يزالون يحلمون بذلك الحلم المستحيل الذي يأمل في وجود «دولة مدينة» متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية وهي آمنة في شجاعة من العالم أجمع» .

«ثانياً : تسبب نظام الرق المنزلي في إشلال العقل الإغريقي ، إذ كان الإسترقاق أمراً مسلماً به متغلغلاً في الحياة الإغريقية . فلم يكن الناس يستطيعون أن يتصوروا الراحة أو الكرامة والمهابة من غير وجود الرقيق . على أن الرق يحول دون عطف الإنسان ، لا عن طبقة من إخوانه في الوطن فحسب ، بل يضع مالك الرقيق في طبقة وهيئة مضادة لكل غريب ، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة» .

«وأخيراً كان يعوق الفكر الإغريقي إفتقاره إلى المعرفة إفتقاراً لا نكاد نتصوره اليوم . إذ لم يكن لدى الإغريق أية معرفة البتة بماضي البشرية . وهم قوم كان ما لديهم في أحسن الأحوال بضع تخمينات تنم عن فكر صائب . ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس ... ولابد للإنسان أن يتذكر إعوازهم الشديد في الأجهزة التجريبية . وقد لونوا الزجاج للزينة . ولكنه ليس بالزجاج الصافي . وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى ، ولا أي تزقيم عددي يتسم بالكفاية الحقة ولا أي مقاييس شديدة الضبط ، ولا أي مبادىء أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب ... والفيلسوف يترفع عن الصانع ترفعاً أبعد يده من أن تصل إلى أي جهاز . وما كان لأي سيد إغريقي ليقبل أن يدقدق في الزجاج أو المعدن»[٥٢] .

(٥٢) معالم تاريخ الإنسانية : مج١ ، ج٢ .

وحكاية إحتقار العمل اليدوى هذه ودورها فى إعاقة التقدم العلمى لابد من توضيحها فلقد كان من خصائص السيد أن يقتصر نشاطه على العمل العقلى فقط ولذلك فإن أى عمل تستخدم فيه يد الإنسان ويحتمل أن تؤذى سنه سواء بالمجهود أو الإتساخ أو غير ذلك ــ فهو عمل حقير يجب أن يخول للعبيد فقط وعلى ذلك فلكى يحتفظ السيد بوجاهته الإجتماعية لابد أن يبتعد تماماً عن العمل اليدوى وبما أن العلم التجريبى يقوم أساساً على العمل اليدوى فقد ظل إحتقار الأجير مانعاً كبيراً من قيام هؤلاء المتعلمين .

ولم يكن هذا الأمر قاصراً على الحضارة الإغريقية فقط وإنما تشترك فيه الحضارات التى سبقتها أيضا مثل الحضارة المصرية والبابلية .

وسنشير فى الباب القادم إلى الموقف الإسلامى المناقض لذلك تماماً فعلى سبيل المثال يقول كاتب مصرى(٥٣) فى وثيقة من عام ١٢٠٠ ق م تقريباً : « تعلموا الكتابة لتقوا أنفسكم شر الأعمال الشاقة ولتكونوا حكاماً ذوى شهرة عالية . فللمشتغل فى المعادن وهو أمام فوهة الفرن أصابع كالتمساح ورائحته أسوأ من رائحة السمك العفن والناسج فى مصنع ما أسوأ حالاً من المرأة ، يجلس القرفصاء ولا يتمتع بالهواء النقى المتجدد » .

وهذا ما يفسر عدم الإرتباط بين وجود المخترعات وبين وجود القوانين العلمية المؤدية إليها ، لأن أغلب المخترعات والألات أنتجتها أيادى العبيد والصناع نتيجة إلحاح الحاجة إليها .

فى الحقيقة فإن السمة الرئيسية التى يتميز بها الفكر الإغريقى والتى يعتبرها الغرب مدار فخره واعتزازه هى الإصرار على الإقتصار على العقل البشرى فى معرفة الحقيقة وتجريد الوعى البشرى من أى رؤية دينية والبحث عن ثمار الحقيقة فى غير شجرة الدين تماماً وإلى الأبد ليس هذا فى مجال معرفتهم الطبيعة فقط وإنما فى مجال بحثهم عن الله سبحانه وتعالى ذاته .

---

(٥٣) نقلا عن كراوزر : صلة العلم بالمجتمع ص ٥٥

إنهم على غير الاستعداد على الإطلاق أن يقبلوا غير ما ألفوه من نظام طبيعى للوجود مثل أن ٢ + ٢ = ٤ وأننا لو ألقينا الكرة فى الهواء لسقطت على الأرض .

وعلى ذلك فإن عقولهم مقفلة تماماً عن الإقتناع بأنه من الممكن أن يكون هناك شيء يسمى وحياً يتدخل به الله فى شئون العالم ويصطفى أحداً من خلقه يقوم بمهمة إبلاغ رسالته إليهم .

إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا وبالتالى أن يقبلوا أن هناك شيئا من السماء سيهبط إلى الأرض ليشق نسيج الألفة الرتيب الذى ينسج حياتهم ويكشف لهم عن حقيقة الوجود ويحدد لهم الدستور المعيشى الذى ينبغى أن تكون عليه حياتهم وعبادتهم .

كما أن تراثهم الوثنى رسب فيهم أن الالهة المشغولة بنفسها لا تأبه بهم وبما يحدث لهم من كوارث ومصائب حتى أنها تركتهم بلا حماية من غزو البربر لهم .

كل هذا اجعلهم يصرون فى الإعتماد على عقولهم فقط فى كل تصوراتهم للوجود بل فى تصورهم لله ذاته وما ينبغى أن يكون عليه دين الإنسان .

وهذا هو المعنى الحقيقى للعلمانية التى لا تسمح لشيء آخر غير العقل أن يتدخل أدنى تدخل فى حياة الإنسان وتصوراته ولا تترك حتى للدين نفسه أن يحدد موقعه من تلك الحياة بل هى التى – لو أرادت أن تسمح بذلك — تقوم بتحديد النطاق الضيق الذى ينبغى أن يعيش فيه دون أن يفكر فى الخروج عنه .

وعلى ذلك فإننا نعرف العلمانيه بأنها : الإقتصار على العقل الإنسانى فى إدرك الحقيقة وتصريف شئون الحياة

والفكر العلمانى بذلك يكون قديما قدم الفكر الإغريقى ذاته والذى يمثل المنبع الحقيقى للفكر الغربى الحديث حتى ولو كان لفظ العلمانية ذاته لم

يستعمل إلا فى عصور متأخرة جدا عن ذلك .

وعلى ذلك فإنه ليس من الغريب أن يعتاد مؤرخو الفكر الغربى وصف الفكر الإغريقى بالعلمانية .

يقول رسل[٥٤] – ناعيا على توما الأكوينى (فيلسوف لاهوتى فى العصور الوسطى) جموده الفكرى –: «أنه قد أدى إلى سير التيار الفلسفى الرئيسى مرة أخرى فى القنوات العلمانية بحيث عاد إلى روح الإستقلال التى كانت تسود فلسفة القدماء» .

ويقول ج . ج . كراوزر واصفا ثالز (أحد علماء الإغريق بالأيونيين) بأنه « قد قام» «بتحميض المعلومات القليلة التى بلغته عن العلوم الرياضية عند المصريين والبابليين ، بنفس الطريقة العلمانية التى استخدمها فى التحرى عن مدى صدق الحكايات التى كانوا يقولون بها عن الخلق» .

المرحلة الهلينستية
ومدى إرتباطها بالفكر الميتافيزيقى

بقى قبل أن نطوى صفحة الحضارة الإغريقية أن نتكلم عن مرحلة أخرى من الفكر شاركوا فيها فكان لابد من الحديث عنها حتى لا نبخسهم حقهم وهذه المرحلة هى ما تسمى بمرحلة الحضارة الهلينسية .

والمرحلة الهلينستية هى مرحلة مزج الحضارة الإغريقية بالحضارات الأخرى بعد غزو الإسكندر لهذه الحضارات ولقد كانت مدينة الإسكندرية هى أبرز المراكز الحضارية فى كل بلاد اليونان حتى أنها أنتجت نخبة من العلماء لم تستطع أية مدينة فى هذه المرحلة أن تضارعها فى انتاج مثلها حتى أثينا نفسها فى أزهى عصورها .

وقبل أن نتحدث عن هؤلاء العلماء فلابد ألا ننسى أنهم نتاج المزج بين

(٥٤) حكمة الغرب ج١ .

الحضارتين المصرية والإغريقية فلا يحق لإحداهما أن تنسب لنفسها فقط ما حققه هؤلاء العلماء من علم ومجد .

لقد تقدم جالينوس بالطب تقدما كبيراً حيث جمع بين دراسة أبقراط وبين طرق التشريح عند المصريين القدماء كما أنه جمع فى تأثره بالفلسفة بين أرسطو وأفلاطون والرواقيين وكانت إستدلالاته المنطقية ذات قوة ووضوح «غير أن هذه الصفة الفلسفية المنطقية ذاتها ، هى ما أدت به فى بعض الأحيان إلى مناقضة التجربة والمنهج التجريبى الدقيق وخاصة فى نظريته للأمزجة والطباع ، وهى ما جعلته يدخل فى نظرية أرسطو للنفس ، ويوفق بينها وبين موقف الرواقيين من «الروح» وهى التى انتهت به كذلك إلى أن يقرر فى البدن قيام مبادئ وقوى ما لا يمكن أن تصبح يوماً من الأيام موضع تجربة أو بحث علمى ، قوى تفسر فى نظره جميع ظواهر البدن ، كل قوة منها خاصة بضرب معين من الظواهر ، فقوة ممسكة وقوة جاذبة ، وقوة محولة وقوة منومة إلخ ... ، تلك القوى التى أثارت سخرية موليير وتهكمه فى مسرحياته الشهيرة أثناء القرن السابع عشر[٥٦] .

وأشهر رياضى الإسكندرية هو إقليدس . وقد جمع فى كتابه الأركان أو «العناصر» كل المعارف الهندسية التى عرفت فى عصره وهكذا فإن الكثير مما يضمه هذا الكتاب لم يكن من ابتكاره هو غير أنه امتاز بالعرض المنهجى للموضوع ولقد حذا حذو أفلاطون فى عدم البحث إلا فى الأشياء التى يمكن عملها بالمسطرة والفرجار . كما أننا لا نجد لديه أبسط تلميح إلى أن الهندسة يمكن أن تكون مفيدة عملياً[٥٧] .

«ومما يلفت النظر أنه بدأ علم البصريات بقوله الخاطئ : إن الأجسام ترى لما تبعثه العين من أشعة فى خطوط مستقيمة[٥٨]» .

(٥٥) صلة العلم بالمجتمع ج ١ .
(٥٦) رجع د. جميل البلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ص ٤٢ : ٤٤ .
(٥٧) راجع رسل : حكم الغرب ج١ ص ١٩٣ .
(٥٨) كراوزر : صلة العلم بالمجتمع ص ٩١ .

وجاء أرسطارخورس إلى الاسكندرية وهو أول من قال بأن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور حولها ووقع على قوله هذا كوبر نيكوس بعد ذلك بقرون طويلة فجهر به وذاع صيته «وهناك ملاحظة هامشية تحمل اسم أسطارخوس فى أحد مخطوطات كونيكوس تشهد على هذه الحقيقة على نحو قاطع» وحسب بعد كل من الشمس والقمر عن الأرض ، ونسبة نصف قطر كل منهما إلى نصف قطر الأرض بطرق صحيحة(٥٩) .

وكان أرشميدس أعلم علماء الإسكندرية فكان عالما رياضياً ومهندسا ميكانيكيا ومخترعاً كبيراً «ويذكر المؤرخ الإغريقى بلوتارك أن مهارته الفنية ساعدته أكثر من مرة على حماية المدينة من أن تجتاحها جيوش الأعداء»(٦٠) . ولقد استنبط قانوناً مضبوطاً للرافعة ولكن يظهر أنه استنتجه من فروض مبنية على علم غريزى ، وفى الواقع على الإحساس بجمال التوازن أكثر من المشاهدة والتجربة ، ولقد كانت النتيجة التى حصل عليها ، وتصميمه على تطبيق العلوم الرياضية على الظواهر الطبيعية دليلاً على التقدم أما محاولته جعل علم الطبيعة عبارة عن استنباطات هندسية من فروض فدليل على الرجعية ، وتدل على عدم الأخذ بالمشاهدة والتجربة ولقد أخفى نبوغ أرشميدس فى العلوم الرياضية ضعفه فى الطبيعة والميكانيكا»(٦١) ولم يستطع تنمية مواهبه لأقصى حد «نظراً لأن الأعمال اليدوية كانت شائنة ، فكان يحتقرها شأنه فى ذلك شأن جميع أفراد طبقته»(٦٢) .

ولكن إلى أى مدى استمر هذا التقدم الجزئى فى العلم الإسكندرى ؟ يقول الدكتور جميل بلدى : « تؤدى إذن متابعة العصر السكندرى منذ نشأته إلى ملاحظة أن الفكر الفلسفى قد تسرب إلى العلم وتدخل فى مجاله تدخلاً

---

(٥٩) رسل : حكمة الغرب ص ١٩٦ .

(٦٠) جميل بلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ص ٣٩ .

(٦١) كراوزر : حملة العلم بالمجتمع ص ١٠٠ و ١٠٧

(٦٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

تدريجياً ، كان شأنه أن أضعف شيئاً فشيئاً من صفات العلم »[٦٣] .

وأخيراً يقول الدكتور فؤاد زكريا : « أدرك الباحثون أن الكلام عن (معجزة) يونانية ليس من العلم فى شئ »[٦٤] . ويقول فى موضع آخر : « لو نظرنا إلى الإنجازات العلمية التى حققها اليونانيون وإلى الآثار المادية التى خلفوها ، لما وجدناها تمتاز كثيراً عن تلك التي تركتها لنا الحضارات الشرقية الأقدم منها عهداً[٦٥] ».

لكن الدكتور فؤاد زكريا يذهب إلى أن فضل اليونانيين العلمى يرجع إلى توصلهم إلى صفتى العمومية والشمول[٦٥] – وهو مايذهب إليه الكتاب الغربيون عادة – وبهاتين الصفتين إستطاعوا صياغة العلم فى قوانين بدلاً من البحث فى حالات فردية . وإن يكن من مقتضيات العقل أن الإنجازات العلمية للحضارات السابقة ماكان من الممكن التوصل إليها لو لم يكونوا قد أدركوا ضرورة العمومية والشمول فى التفكير . لأنه من المستحيل أن يوجد علم دون أن توجد عمومية وشمول فى إستخلاصه وتطبيقه . وبالرغم من ذلك فإن ماوضعه الفكر الإغريقى من عوائق – بإضفائه للمفاهيم الميتافيزيقية على الطبيعة ومفرداتها الحسية – فى وجه التقدم العلمى كان له من الآثار السلبية التى تفوق القيمة الإيجابية لتلك الإضافة التى يعزونها للفكر الإغريقى لو صدق زعمهم هذا .

---

(٦٣) تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ص ٤٦ : ٤٧

(٦٤) التفكير العلمى : ١٢٨ .

(٦٥) ، (٦٦) المرجع السابق : ١٣٦ .

الباب الثاني

الحضارة الإسلامية

وإنجازاتها السياسية والفكرية والعلمية

أولاً : الإسلام وأصول الحكم

جاء فى قول الرسول ﷺ فى خطبة الوداع : **«أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا في بلدكم هذا ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع»**

«أعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وسنة رسوله» .

«أيها الناس : اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشى مجدّع ما أقام فيكم كتاب الله وسنة رسوله»(١) .

وقال ﷺ عندما خرج إلى الناس فى مرضه الذى سبق موته — فيما معناه : «أيها الناس من كنت قد شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليقتص منه ومن كنت قد أوجعت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه» .

وقال الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول خطبة له بعد توليه الخلافة : «أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخير منكم . فإن احسنت فأعينونى ، وان صدفت فقومونى . الصدق امانة والكذب خيانة ، والضعيف قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، اطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم (٢).

---

(١) فقه السيرة : د. محمد سعيد رمضان البوطى

(٢)، (٣)، (٤)، تاريخ الخلفاء الراشدين : د. عبد الوهاب النجار .

اما الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد خطب فى الناس قائلا : «أيها الناس إن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى ، فقال له رجل من اخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فحمد عمر الله على أن جعل بأمته من يقومه بحد السيف» .

قد خطب عمر يوما فقال : يا أيها الناس إنى والله ، لاارسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أحوالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل شيئاً سوى ذلك فليدفعه إلى فوالذى نفس عمر بيده لاقصنه منه ، فوثب عمرو بن العاص فقال : ياأمير المؤمنين أرأيت أن كان رجلاً من أمراء المسلمين على رعيتك فأدب بعض رعيته أنك لتقصه فيه ؟ قال : أى والذى نفسى عمر بيده إذا لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقتص من نفسه»(٤).

حقا كيف تكون هناك قداسة لأمة يقتص فيها رسولها من نفسه ؟ .

ولا يقول أحد انكم تضربون لنا الأمثلة بالعصر الإسلامى الأول ، لأن الذى علينا هو أن نظهر موقف الإسلام من الإستبداد والقداسة والكهنوت والحكم الدينى وهذا ما يعبر عنه عصر الرسول ﷺ المبعوث بالمنهج الحق والخلفاء الراشدين الذين اتبعوه ولم يشذوا عنه ، أما إذا حدث فإن هذا لا يعبر عن موقف الإسلام ، لأن الإسلام ذاته يدين هذا الشذوذ ، ويعتبره ابتداعا عليه .

ولأن الله وحده خالق الانسان فهو وحده الذى يحكم وهو وحده الذى يشرع .

فالله هو الحاكم الأعلى والواضع الوحيد لأصول الحكم فى الإسلام ، أما الحاكم البشرى فهو الخليفة أو الإمام الذى تنتخبه الأمة لكى يسوسها بما يتفق مع هذه الأصول ولذلك فإن هذا الحاكم يجب أن يكون أكثر المسلمين حرصا

واجتهادا على تطبيق هذه الأصول على متغيرات الواقع ، ومن هذا تفهم عدم التعارض بين كون حاكمية الأمة لله وحده وبين قابلية أحكام الحاكم البشرى للأخذ والرد وعرضتها للخطأ والصواب ، لأن النقد عندما يقع على هذه الأحكام فإنما يقعْ فى الحقيقة على صحة اجتهاد الحاكم البشرى فى تطبيق أحكام السماء على متغيرات الواقع دون أن يمثل ذلك اعتراضاً أو نقداً لأحكام السماء ذاتها .

وكل إنسان هو خليفة لله فى أرضه ومسئول عن تلك الخلافة والتى تعنى إعلاء كلمة وإقامة شرعه وتحقيق خلافته . ولهذا فالأمة الإسلامية جميعها مسئولة عن تحقيق خلافة الله فى أرضه وإقامة حكمه وعدله ، فالحاكم الوحيد فى الأمة الإسلامية هو الله والأمة جميعها مسئولة عن تطبيق أحكام الله الحاكم الأعلى ، أما الخليفة أو الحاكم البشرى للأمة فهو أكثر الأشخاص اجتهادا وحرصا على تطبيق هذه الأحكام ومن هذا الاجتهاد والحرص على تطبيقها يستمد سلطته وحكمه وجماهير الأمة المسلمة المسئولة عن تطبيق أحكام الله هى التى تختار من أبنائها أكثرهم حرصاً واجتهادا فى تطبيق هذه الأحكام ، وهى التى تعزله عن سلطاته إذا تراخى أو أهمل فى تطبيقها ، فالأمة كلها قيومة على تطبيق أحكام الله وراعية لها ومسئولة عنها ، وبهذا يكون القائم بكل أمور الحاكم هو جماهير الأمة أما الحكم نفسه فهو لله رب الوجود ... أى أن الشعب هو الذى يحكم نفسه ولكن بما أنزل الله من أحكام .

وكذلك فإن المشرع الوحيد هو الله ، هوالواضع للأصول الثابتة فى التشريع وهو الذى شرع لمجتهدى الأمة الإجتهاد فى الفروع المتغيره منه «وهى أغلب التشريع» واستخلاص الأحكام الملائمة للواقع المتغير ولكن بشرط اتفاق هذه الاجتهادات مع مقتضيات الأصول .

وكثيراً ما يدعى العلمانيون أن الإسلام لم يأت بأصول لنظام الحكم وكأنه كان ينبغى على الإسلام أن يأتى بنظام حكم على أحد أنماط الأنظمة الغربية لكى يحظى باعتراف العلمانيين بمجيئه بتلك الأصول .

إن الإسلام قد آتى بمجموعة قواعد أصولية تشكل فى مجموعها إيديولوجية الخاصة فيما ينبغى أن يكون عليه حكم المسلمين ولم يأت بصورة تفصيلية لنظام الحكم قد تصلح لأمة من الأمم ولا تصلح لغيرها . من هذه القواعد :

- أن الناس سواسية أمام القانون ليس هناك من لا يخضع لهذه القاعدة ولو كان من أبناء الرسول بل ولو كان الرسول نفسه ﷺ .
- أن الحاكم يجب أن يكون أكثر الناس علما وإجتهاداً وحرصا على تطبيق أحكام الله .
- أن الحكم الإسلامى ليس هرقليا ولا كسرويا أى ليس ملكا عضوضاً وإنما يرجع تعيين الحاكم إلى أهل الحل والعقد من الأمة .
- أن الحكم الإسلامى يقوم على الشورى بين الحاكم والعلماء وممثلى الأمة من أهل الحل والعقد .
- لأى فرد من أفراد الأمة أن يخطىء الحاكم فى إجتهاد ما ذهب إليه مادام يملك الدليل على ذلك سواء كان هذا الفرد رجلاً أم امرأة .
- على الحاكم والمحكومين ألا يخرجوا عما تذهب إليه جماعة المسلمين من أمور حتى ولو إختلفوا معهم فيها .
- أن الدستور المشرع للأمة هو القرآن ثم السنة ثم الإجماع ثم إجتهاد العلماء .
- أن الحاكم إذا وجد فيه إعوجاج عن حكم الله فإنه يجب نصيحته فإذا لم تصلح فإنه يجب إصلاحه بالسيف .

ألا تمثل هذه القواعد أيديولوجية الإسلام الخاصة فى أصول الحكم أم أنه كان ينبغى على الإسلام أن يأتى بصورة من نظام الحكم مثلما هو عليه فى فرنسا أو أمريكا أو سويسرا أو الاتحاد السوفيتى كى يحظى برضاهم .

هل كان ينبغى عليه أن يأتى بديمقراطية مباشرة ؟ أم بديمقراطية غير مباشرة ، وهل كان عليه أن يجمع بين برلمان ومجلس شيوخ ؟ أم كان عليه أن

يكتفى بأحدهما ؟ وهل ينبغى للحاكم المسلم أن يجمع بين الرئاسة والوزارة ؟ أم يكتفى بالرئاسة ويترك الوزارة لغيره ؟! .

لو كان الإسلام قد فعل أى شيء من ذلك لصار نظاماً جامداً إن صلح لبلد من البلدان لم يصلح لأخرى (فما ينفع سويسرا مثلا لاينفع فرنسا) وإن صلح لزمن من الأزمان لم يصلح لغيره ، ولكن الإسلام وضع أيديولوجية العامة لأصول الحكم وحدد الإطار العام والضوابط والأهداف وترك الأشكال التطبيقية للحكم تحددها الظروف والأحوال والأزمنة .

وهم لا يفتأون يرددون أن هذه الصورة المثالية للحكم لم تتم إلا فى عصر الخلفاء الراشدين والخليفة عمر بن عبد العزيز على الأكثر وأن الحكم الإسلامى فى باقى العصور إتسم بالظلم والبشاعة .

وكون حكم الخلفاء الراشدين الخمسة كان مثالياً لا يعنى كنتيجة عكسية حتمية ان حكم غيرهم كان ظالماً وبشعاً بل ان كثيراً من حكام المسلمين ما حققوا درجة كبيرة من مثالية هؤلاء الحكام منهم على سبيل المثال الناصر صلاح الدين والظاهر بيبرس والسلطان قطز بل أن هناك بعض العلماء والمسلمين الذين الحقوا بعض الحكام المسلمين بالخلفاء الراشدين أنفسهم مثل عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ ـــ ٣٥٠) حاكم الأندلس والسلطان تيبو (١٧٥١ ـــ ١٧٩٩) حاكم الهند .

ولكن تعمد التشويه جعلهم لا يتحدثون عن حكام المسلمين إلا من منظور ألف ليلة وليلة فهكذا كان تشويههم الدائم لشخصية هارون الرشيد مع أنه قد حاز ثناء مؤرخين كبار من أمثال ابن قتيبة وابن خلدون (وهما من هما). ومع ذلك أليس من الخير لنا أن يكون خليفتنا هو هارون الرشيد وهو يحكم الدنيا ـــ حتى ولو صدقت فيه كل إتهامات العلمانيين ـــ خير مما يعانيه العالم الإسلامى الآن من الهوان .

ولكن ماذا نفعل فى من يشوهون التاريخ الإسلامى ماجعل جارودي يقول (٥) إنه إذا أردنا الحقيقة . « فيجب علينا أن نقارن بين مفارسة الشعور الأخرى الحقيقية وممارسة الشعوب الإسلامية الحقيقية وليس بي نظرية البعض وتطبيق البعض الآخر » .

فمهما بلغت بشاعة حكام المسلمين بغرض صدق كل الافتراءات التى يتهمون بها . فإنها لن تمثل شيئاً بالنسبة لما فعل حكام غربيون وشيوعيون من أمثال : نابليون وهتلر وستالين وموسولينى وروزفلت ومن قبلهم البابوات الملوك الصليبيين من أهوال وجرائم بشعة .

وصف لبعض مدن الحضارة الإسلامية :

اتسع عمران بعض المدن الإسلامية إتساعاً هائلا بفضل توافر المقومات الحضارية التى توفرت لها حتى بلغ عدد سكان البصرة فى بعض الأقوال ستمائة ألف فى عهد الحجاج وبلغ سكان قرطبة فى عهد المنصور نصف مليون وتعكس هذه الكثافة السكانية عدد دورها ومنشآتها واتصلت العمارة بها أربعة وعشرون ميلاً فى الطول وستة أميال فى العرض وعدد أرباضها المحيطة بها واحد وعشرون أيضاً كل ربض منها يزيد عرضه وطوله على الميل وفى كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره وقد دهش الرحالة الأجانب لاتساع مدينة القاهرة وامتداد عمرانها ويعكس وصف ذلك احصاء حوانيتها وأسواقها وفنادقها وحماماتها وطواحينها ومنازلها ومساجدها ومدارسها وما اشتملت عليه من مرافق تدل على مستوى حضارى متقدم ويعكس إرتقاء الصناعة مستوى هذا التطور فهاهى دمشق أصبحت جامعة لصنوف المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب عديم المثال ويتجهز به منها كل الآفاق والأمصار وكدمشق إشتهرت كل مدينة بصناعات ذاع صيتها وبلغت الآفاق(٦) .

ثانياً : موقــف الإســـلام
من العلم والعقل والمنهج التجريبى

خلاصة موقف الإسلام من العلم هو أن الطريق إلى معرفة أسرار الوجود هو طريق الشهادة على أنه سبحانه وتعالى هو الحق .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

يقول جارودى[٧]: ان مبدأ التوحيد وهو حجر الأساس فى تجربة الإسلام لمعرفة الله يُلغى كل ما يفصل بين العلم والإيمان . وبما أن كل شئ فى الطبيعة هو دلالة على الوجود الإلهى تصبح معرفة الطبيعة ــ مثلها فى ذلك مثل العمل ــ شكلا من أشكال الصلاة وسبيلا للتقرب من الله .

لقد كانت أول كلمة أنزلت فى القرآن هى « اقرأ » وكانت ثانى سورة فى النزول هى القلم .

والإنسان مطالب فى القرآن دوماً بالنظر فى جنبات هذا الكون والبحث عن آيات الله فيه .

﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ﴾ (الأعراف ١٨٥)

﴿وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ .

ويصف الغافلين عن هذا التفكير فى الكون بأنهم ﴿ كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف : ١٧٩)

والقرآن والحديث لا يفتآن يمجدان العلم ويحثان على البحث العلمى ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ (الزمر ٩) .

﴿الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمرمختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ (فاطر ٢٧ ــ ٢٨) . «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (مجمع الذوائد للهيثمى) ، «طالب العلم يستغفرله كل شيء حتى الحيتان فى البحر» (سنن ابن ماجة) لئن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة «إن العلماء هم ورثة الأنبياء» (أبو داود والترمذى ــ وابن ماجة) «العالم أمين الله فى الأرض» القرطبى جامع بيان العلم وفضله .

ويقرر القرآن أن أسرار الطبيعة وقوانين الله وسننه التى تحكم الكون هى آيات لأولي الألباب الذين كثيرًا ما يوجه القرآن خطابه إليه فهم الذين يتفكرون ويعقلون ﴿إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ (آل عمران : ١٩ ، ١١) ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الجاثية : ١٣) ، ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ الروم .

ولقد ذكرت مادة عقل فى القرآن أكثر من خمسين مرة وتكرر السؤال الإستنكارى ﴿أفلا تعقلون﴾ ثلاث عشرة مرة وكأنه لازمة . ولو تتبعنا الكلمات الأخرى التى تدخل فى نفس الموضوع مثل : نظر وتفكر وفقه وعلم وبرهان ولب ونحوها لوجدنا من الآيات الشيء الكثير جداً . ويحصى علماء التفسير سبعمائة وخمسين آية صريحة من آيات القرآن الكريم تشير إلى الكون والكائنات والآيات الكونية المختلفة[٨] .

كل هذا جعل كاتبا ماركسياً (مكسيم رودنسون يتحدث عن العقلانية فى القرآن بحماس شديد فيقول[9]: «إن الوحى .. يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان .. والقرآن يقدم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية ... وفى مقابلة العهدين القديم والجديد فإن العقلانية القرآنية تبدو صلبة كأنها الصخر».

وإن كان خصوم الإسلام يعترفون أن القرآن أعظم كتاب فنى فى العالم فإن عليهم أن يعترفوا أيضاً إنه أعظم كتاب عقلانى فى العالم أيضاً وإن كانت المقارنة ذاتها خاطئة لأنه من الطبيعى أن يكون القرآن كتاب فوق مستوى البشر – من حيث الإتيان بمثله – لأنه كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى. وكما يقول العقاد[10] عن الإسلام: «إنه دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم».

إننا نستطيع القول أن القرآن قد كشف عن وجود العلاقات المنطقية التى تحكم الكون وأمر الناس بالبحث عنها وعلمها وجعل ذلك من مراتب العبادة لله سبحانه وتعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تسبق القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ (ياسين).

فالكون هو كتاب الله المفتوح كما أن القرآن هو كتاب الله الموحى والقرآن كثيرا ما يضرب الأمثلة فى تأسيس المعرفة اليقينية على الإدراك الحسى فهو حين يرد على إفتراءات المشركين يقول عنهم ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾.

فهو قد نفى دعواهم لإنتفاء المشاهدة فمن أين إذن قد أتوا بتلك الدعوى .. كما أن الله سبحانه وتعالى يوجه خطابه لرسول الله ﷺ فيقول: ﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ (اللإسراء: ٣٦).

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ .

كل ذلك يجعلنا نقول بحسم — ودون أن نخشى أن يتهمنا أحد بالحماس — أن القرآن الكريم هو ذاته الواضع الحقيقى للأسس الأصيلة لمنهج البحث العلمى الذى قام عليه العلم التجريبى فبهذه الدعوة إلى العلم وإلى تحريك وتحكيم العقل وإلى تأسيس المعرفة اليقينية على الإدراك الحسى بالإضافة إلى ثناء الإسلام على العمل اليدوى — والذى سنشير إليه بعد قليل وبإستخدامه في عمارة الأرض يكون قد اكتملت لدينا كل مقومات المنهج التجريبى الذى سرعان ما سيظهر تأثيره واضحاً على العلماء المسلمين الذين سيعملون تحت تأثير هذه المقومات على وضع القواعد الأصولية لذلك المنهج العلمى التجريبى ويضعون كذلك تطبيقاته العلمية موضع التنفيذ .

ولم أجد غير هذين الكاتبين فقط قد توصلا إلى مثل ماتوصلت إليه وصرحا به دون وجل يقول الدكتور زغلول راغب النجار والدكتور على عبد الله الدفاع[11]: إن القرآن الكريم هو واضع المنهج العلمى الصحيح الذى إنتهجه

المسلمون وأقاموا به نهضة علميه وفكرية أصيلة كانت هى أساس النهضة العلمية المعاصرة حين تعلمت باق الأمم منهم ذلك المنهج بعد نزول القرآن بقرون عديدة كما أن العلم التجريبى الصحيح هو تنفيذ لأوامر الله فى كتابه العزيز وهو فى صميمه قرآنى الروح » .

وقد كنت فى بداية دراستى هذه أقوم بإثبات مدى إتفاق الإسلام للروح العلمية والمنهج التجريبى ولكنى وجدت من خلال دراستى وبحثى هذه الحقيقة تفرض نفسها على وعلى كل باحث شجاع .

ولكن للعلم الإسلامى غايات أخرى غير غايات النمو المادى التى حرصت عليها الحضارة الغربية الحديثة فآلت إلى ما آلت إليه ، يقول الفيلسوف العالمى جارودى[11] إن العلم والتقنية الموجهين نحو غايات اسمى لايستطيعان أن يصبحا غاية فى حد ذاتهما كما فى التقليد الغربى منذ عصر النهضة .

سمى هذا المرض فى الحضارة الغربية « الحداثة » هذا المرض هو عكس للعلاقة بين الوسائل والغايات . لقد أصبحت الوسائل فى المنظور الغربى غاية .

ولم يعد العلم والتقنية متلائمين مع البيئة ولا كانا فى خدمة الانسان . بل على العكس اصبح الانسان ومحيطه خاضعين لتطور العلوم والتقنيات المستقلة والفتاكة . ونتيجة لعكس هذه العلاقة بين الوسائل والغايات مازال نصف سكان العالم يناضاون فقط من أجل العيش . بعد الثورة الصناعية بقرنين ، تلك الثورة التى تنبأ لها ابنياؤهم الكذبة بإزدهار غير محدد للإنسان . كما مات خمسون مليونا من الكائنات البشرية فى العالم الثالث من الجوع فى عام ١٩٨٠ .

الكمية ، السعى وراء القوة والنمو ، الفردية ، أشهرت إفلاسها : فلا يمكن لأى حضارة أن تبنى على هذه الأسس . نقد انتهى العلم والتقنية اللذان ولدا فى هذه التربة إلى نتائج متعارضة بشكل كامل مع مشاريع ووعود النهضة الغربية .

فما العلم والتقنية إلا وسائل رائعة فى خدمة الغايات الإنسانية . فإذا فصلنا العلم ، الذى هو تنظيم للوسائل ، عن الحكمة التى هى تبصر فى الغايات أصبح هداما للإنسان .

لهذا السبب لم نؤكد على الظاهر التى لعب الإسلام فيها باكتشافاته دور السابق للعلم الغربى الحالى ولكن على مزاياه الخاصة فى إخضاع الوسائل البشرية للغايات الالهية .. وفى هذا المنظور

ولو قدر لعلماء المسلمين فى القرون الوسطى أن يبعثوا إلى الحياة فإن دهشتهم لن تكون من التقدم فى الأفكار التى ولدت أصلا فى أحضانهم !!

بل ان دهشتهم ستكون من ان نظام القيم قد قلب رأسا على عقب !! وسيرون أن مركز الرؤية أو بؤرتها التى انطلقوا منها قد صار هامشيا ، وأن محيط تلك الرؤية قد صار هو المركز وأن تلك العلوم الحدية التى كانت فى الدرجة الثانية من اهتمامات المسلمين قد تصدرت سامة اهتمامهم الآن فى الغرب أما علم الحكمة الثابت ذلك العلم الأول فسوف يرون أنه تضاءل حتى كاد أن ينعدم !!

لقد كان العلم داخل إطار الحضارة الإسلامية يقوم على الإتزان بين مطالب الإنسان الحياتية وتطلعاته العقلية وبين علاقته بالطبيعة وبالبشر الآخرين ، أى أن العلم داخل الإطار الإسلامى له منهجه وغاياته التى تنطلق من العقيدة الإسلامية ذاتها أما العلم داخل إطار الحضارة الغربية فقد قام على إنفصال الإنسان عن الطبيعة ثم سيطرته عليها وتسخيرها له فى عملية تراكمية كمية لانهائية يقوم بها إنسان جعل من المنفعة والمادة واللذة الماديين المقاييس الوحيدة والنهائية لحياته دون الإلتزام بأى حدود حتى ولو أدى ذلك إلى تبديد الطبيعة أو تدمير أو إنفجار الكرة الأرضية ذاتها .

لقد صاغ الغرب العلم فى ترسانات من الأسلحة الذرية وغير الذرية والتى تمكنه من تفجير العالم لعدة مرات والتى تمكنه أيضاً من الضغط على عروق الشعوب الضعيفة المرتعشة لإمتصاص دمائه سواء بالشكل المباشر أو غير المباشر – حتى ولو كانت فى أبعد بقاع الأرض .

والغريب أن العلمانيين يحاولون إنكار هذا الموقف الإسلامى من العلم على أساس أن الإسلام كدين لابد أنه يذهب إلى الاعتقاد فى تدخل الإرادة والقدرة الإلهية فى قوانين الطبيعة وهو مايدخل فى نطاق الغيبيات التى نهانا الإسلام عن الخوض فيها وعدم التعويل عليها فى مجال العلم . مع أن الرؤية الموضوعية تقتضى بناء الموقف الإسلامى على القواعد العلمية التى حرص عليها فى إكتشاف الطبيعة وليس على الإيمان الذى ليس له علاقة بقواعد الإكتشاف وإنما برسوخ عقيدة الإيمان بقدرة الله على فعل مايريد وهذا مالا يدخل فى حدود العلم البشرى .

موقف الإسلام من العمل اليدوى :

يذكر القرآن أن نوحاً عليه السلام كان نجارًا وأن داود عليه السلام كان حداداً وعن المقدام بن معدى كرب – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال :

« **ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داوود كان يأكل من عمل يده** » رواه البخارى وغيره .

– عن المقدام – أيضا – مرفوعاً :

ماكسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده ، وماأنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة » رواه الترمذى

وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب عبده المؤمن المحترف » .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قلت : كان أصحاب الرسول ﷺ عمال أنفسهم فكانت لهم أرواح (تعنى رائحة) فقيل لهم لو إغتسلتم » وهكذا اكتملت فى الإسلام كل مقومات المنهج التجريبى .

ثالثاً : وضع الحضارة الإسلامية لأصول المنهج التجريبي

كتب ثابت بن قرة (٨٣٦ - ٩٠١) الرياضي والفلكي المعروف رسالة إلى زميله في الترجمة إسحاق بن حنين ، في المبدأ العلمي القدوة ، حول ألواح بطليموس التي ثبت خطأها : « نحن بطبيعة الحال - لسنا بعد في وضع يمكننا من الإجابة القاطعة على مثل هذا السؤال . والحسم الموضوعي فيما كان ليتم لو أننا قدرنا على مراقبة الشمس في الفترة الواقعة بين بطليموس ويومنا هذا . فإذا وجدت إحداها لدى المؤلفين اليونان فأرجو إفادتي بها ، بحيث أتمكن من تكوين حكم أكيد حول ذلك . وأود أن أضيف بأنه بعد إجلاء هذه النقطة فإنني سوف أعالجه هنا . لأنني - من جانبي - لاأريد أن أتبنى ماهو ليس بحكم الأكيد بل العاري من الشك من كل جانب »[١٣] :

وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا منغلقة تجدف في وحل المؤسسات السلطوية محرومة تماما من الوقوف على قدميين ذاتيين تعالت في العالم العربي دائماً أبداً أصوات : « لاأستطيع أن أجاري أرسطو طاليس في هذه النقطة » « لقد لاحظت » ، « أنا نفسي قد رأيت » ، « لأننا رغم إجلالنا الكبير لجالنيوس فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق » إن النقد البناء للطبيب عبد اللطيف ، المتواضع الذي كان مدرسا في سائر العواصم تقريبا (١١٢٦ - ١٢٣١) كان قد درس بأن الفك الأسفل يتكون من عظمين مجتمعين معا : « إلا أننا شاهدنا الوفا عن العظام والهياكل وقمنا بفحصها بدقة متناهية وتحصلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة . وهي معرفة ماكنا لنتحصل عليها من دراسة الكتب وكان جالينوس قد علمنا بأن الفك الأسفل يتألف من عظمين يجمع بينهما نسيج ضام غير أنا عاينا الفي عظم ولم نجد فيها فكا واحداً مؤلفا من عظمين إنه عظم واحد دون أي رفو »[١٤] . « إن

---

(١٣)، (١٤)، (١٥)، (١٦)، زيغريد هونكة : العقيدة والمعرفة .

ماقاله جالينوس خطأ » صوت أخر من طبيب زميل من القاهرة ابن النفيس المتوفى ١٢٨٨ الذى اكتشف لأول مره خطأ جالينوس حول دخول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى . (الأذين والبطين) . ويكتشف من خلال بحثه ويصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الاسبانى ميخائيل سيرفت كتب ابن النفيس : لكى نصف مهمة كل عضو على حدة تستند إلى ملاحظة دقيقة ودراسة صريحة دون الإكتراث ماإذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا . لا أصل اطلاقا لمسام القلب هذه . والقلب ذو بنية سميكة ومما لاشك فيه أن هذا الدم بعد أن خفضت كثافتة لابد وأن يسيل عبر الأوعية الدموية الرئوية إلى الرئة ليتخللها ويمتزج بالهواء »(١٥).

أما الطبيب العربى ابن الخطيب فيقول « إن القاعدة التى يجب أن تسند إليها دائماً ، هى أن برهانا ما ، أخذ بطريق النقل ، ينبغى أن يخضع للتعديل إذا ماإتخذ موقفاً مناقضاً مما يشير إليه إدراكنا الحس أجل ، وهل يستلزم مثل هذا مزيداً من الايماء ؟» .

أما ابن الهيثم الذى كان أول من أقام تجاربه فى « البيوت المظلمة » فقد إهتدى بتلك التجارب إلى حقيقة نظرية الإبصار وهى تقوم على سقوط ضوء على الجسم المرئى وإنعكاسه على شبكية العين فإذا كان الجسم المرئى مضيئاً بذاته كالشمس والنجوم سقط مباشرة على العين وذلك بعكس ماذهب إليه إقليدس الذي كان معتقداً بانبعاث الضوء من العين ذاتها فأثبت ابن الهيثم أن ذلك لو كان صحيحاً لكان من الممكن رؤية الأجسام فى الظلام(١٦) .

ويقول الطبيب والوزير الغرناطى ابن الكاتب(١٧) : « إن القاعدة التى يجب أن تنطلق منها دائما هى أن برهانا إقتبس عن المنقول عليه أن يخضع للتغيير حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسنا إلى صدقه » . وبذلك أصبحت تجربة الحواس هى القول الفصل لقانون العلوم الموروثة .

---

(١٧) د. محمد مختار القاضى : أن المدنية الإسلامية على الحضارة الأوروبية

رابعـاً : الإنجازات العلمية للحضارة الإسلامية

نحن لانقدم هنا مجرد شهادات على الإنجازات العلمية للحضارة الإسلامية وإنما نقدم حقائق تتمثل فى علوم لم يسبق للبشر التوصل إليها واكتشافات ومخترعات متجسدة لايمكن إنكارها . فلا نترك الأمر بذلك لشهادة هذا أو إنكار ذاك من الغرب عن الفضل العلمى للمسلمين .

تقول زيجريدهونكه(١٨): « لقد أصبح المسلمون – وهذا أمر قلما خطر على بال الأوروبين – المؤسسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية ، الجبر ، الحساب ، بالمفهوم المعاصر وعلم المثلثات الكروى ، علم طبقات الأرض ، وعلم الاجتماع ، وعلم الكلام ».

ويقول تاتشر وشويل فى كتابهما التاريخ الأوربى العام :

لم يضف العرب إلىماابتكره اقليدس فى الهندسه إلا الشىء القليل ، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم ، وكذلك ادخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائرى مخترعين جيب الزاوية (sine) وظل الزاوية (Tangent) وظل تمام الزاوية (Contangen واخترعوا فى « علم الفوزيقى » البندول وكتبوا فى علم البصريات (Optics) بعض الكتب وتقدموا بعلم الفلك ، فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيراً من الالات الفلكية لا تزال تستعمل حتى اليوم وحسبوا زاوية سمت (الشمس) (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتى الاعتدالين وكانت معرفتهم فى الفلك جسيمة ولا مراء . وتقدموا فى الطب أشواطاً بعيدة عن الأغريق . ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة ، ويكاد علم (الأقراباذين) المادة الطبية (materia nedica) لديهم أن يكون هو نفس مالدينا اليوم . ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملاً بين ظهرانينا إلى اليوم . وكان جراحوهم يفهمون إستعمال التخدير ، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة . وفى نفس الوقت الذى كانت

---

(١٨) العقيدة والمعرفة .

فيه الكنيسة تحرم ممارسة الطب ، انتظاراً منها لاتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التى يقوم بها القساوسة ، كان لدى العرب علم طبى حق . وابتدأوا الكيمياء بداية حسنة . واكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة ، من أمثال البوتاس ونترات الفضه والسليمانى وحمض النتريك والكبريتيك . وكلمة (الكحول) عربية ، وان كانت المادة معروفة باسم (أرواح الخمر) عند بلينى أما فى الصناعة فإنهم بدؤا العلم فى تنوع الصنف وجمال التصميم واتقان الصنعة وكانوا يشتغلون فى جميع أنواع المعادن الذهب منها والفضة والنحاس والبرونز والحديد والصلب . ولم يفقهم أحداً أبد الدهر فى صناعة المنسوجات وصنعوا زجاجاً وخزفاً من أرقى الأنواع وأشدها امتيازاً وعرفوا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود وكانت مصنوعاتهم الجلدية شهيرة فى كافة أوروبا . وانتجوا الأصباغ والعطور والأشربة . وصنعوا السكر من القصب ومارسوا الزراعة بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة للرى ، وعرفوا قيمة المخصبات ، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة . ونفوقوا فى فلاحة البساتين وعرفوا كيف يطعمون النباتات وكيف ينتجون أضراباً جديدة من الفواكه والأزهار وإدخلوا إلى الغرب إشجاراً كثيرة ونباتات متعددة إجتلبوها من الشرق ، وكتبوا رسائل علميه فى الزراعة .

وهذه بعض المخترعات التى اخترعها المسلمون أو طوروا إستخدامها :

الطباعة – صناعة الورق – الطواحين المائيه والهوائية – البارود المدافع – البنادق – الأسطرلاب – البوصلة – الساعة – النظارات – صناعة الزجاج التكويرية – أنابيب الأختبار – أفران التقطير – الموازين الحساسة لحساب الوزن النوعى – أول نموذج لآلة التصوير – المزواه – أنموذج تميل المجموعة الشمسية وغيرها من المخترعات الأخرى[٢٠] .

---

(١٩) نقلا عن هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية ج٢ . ج٣ .

(٢٠) د. القاضى : نفس المرجع ، وزيغريد هونكه : نفس المرجع .

الباب الثـــالث

هل العلم الحديث إمتداد للحضارة الاغريقية
أو هو وليد للحضارة الإسلامية

أولا : حال أوروبا فى العصور الوسطى والصراع بين الملوك والبابوات

حالة أوروبا :

يقول هـ . ج ويلز[1] واصفا أوروبا الغربية فى العصور الوسطى :

«وتمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام ، إذ لا دول هناك ولا حكام وكل ماقى الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة فى ناحية من الريف ويحكمون منطقه غير ثابته الحدود حكماً غير مستقر . كانت الجزر البريطانيه مثلاً مقسمة بين حشد كبير من الحكام وكذلك كان شأن سائر أقطار العالم الغربي ».

فأنت واجد هنا اسقفاً يتولى الملك ، كما كان جيرجورى الكبير فى روما ، وواجد مدينه أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك وكنت تجد بين الخرائب الهائله بمدينة روما اسرات نصف مستقله من مغامرين شبه نبلاء كل يذود عن حياضه ومعه إتباعه وكان للبابا نوع من السيادة العامه هناك ، ولكن كان ينافسه فى تلك السيادة ويوجهه تماماً فى بعض الأحيان شخص يدعى إلى نفسه « دوك روما » .

ويقول[2] فى موضع آخر : « أن أوروبا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمه ، لا قانون لها ولا إدارة ، وطرقها تالفه وتعليمها غير منظم ، ... كان الزمان زمان فوضى ولصوصيه وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم .

ومحال أن نقفو فى هذا المقام أحداث القرنين التاسع والعاشر بأى قدر من التفصيل مسترسمين ماجرى فيه من المخالفات والخيانات والادعاءات وصنوف

---

(١)، (٢) معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ج٣

الضيم والإستيلاء فقد كانت تعم أوروبا حاله من الفوضى والخروج على القوانين وحروب وكفاحات من أجل القوة والسلطان .

وتكاد حالة روما فى القرن العاشر : أن تعجز القلم عن أى وصف فإن انحلال إمبراطورية شرلمان ترك البابا ولا حامى له : تهدده بيزنطه والعرب (الذين أستولوا على صقليه) ويتحرش به نبلاء روما الشرسون . ومن أقوى هؤلاء النبلاء امرأتان هما تيودورا ومارزيا وهما أم وابنتها تعاقبتا فى الاحتفاظ بقلعه سانت انجلو ، التى أستولى عليها سيوفيلاكت زوج تيودورا النبيل كما أستولى على معظم سلطة الباباالزمنيه .

نفوذ البابوات وجمودهم الفكري :

أما عن وضع البابوات فى ذلك الوقت فمنذ البداية تقريبا أحتجبت الحقائق الدينية والمثل العليا التى دعا إليها المسيح عيسى عليه السلام واستترت وراء المبادىء والتقاليد الطقوسيه الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقليه . وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريبا على أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة . إذ أنها أوقعت نفسها فى شراك التقاليد العتيقه الخاصة بالتضحية الانسانية ، وبالتطهر الدموى لدى « المثرائيه » ، » ديانه تطورت عن الزرادشتيه وانتشرت فى حكم القياصره » وبتفاصيل النواحى الدقيقة لطبيعة الاله .

وبالتطهر الدموى لدى « المثرائية » ، « ديانه تطورت عن الزرادشتية وانتشرت فى حكم القياصرة » وبتفاصيل النواحى الدقيقة لطبيعة الاله .

ومن عجب أن أصبع الحبر الاترودى « الاترسكى » الأعظم المخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التى تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصرى !؟ وكذلك أيضا أوقعها العقل الإغريقى الإسكندرى فى أحبولته بما جبل عليه من تعقيد ذهنى حتى إذا وقعت الكنيسة فى معمعة هذا التطاحن الذى لامفر فيه بين هذه المتفارقات المتناقضة ، اضطرت أن تصبح اعتقادية « دوجماتيقية » متصلبة تأخذ بالمذهب الاعتقادى الحتمى . ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية التجأت إلى الاستبداد التعسفى .

فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالا مكيفين وفق مذاهب واعتقاديات قيمية وإجراءات مقررة وثابتة ، حتى إذا ما آن أو ان توليهم منصب الكردلة أو البابوات إذا بهم فى العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسى ذلك الضرب الذى يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره . ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس فقد نسوا ذلك الأمر ، وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة التى هى قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر . وكانوا فى سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أى شىء حتى الغض والخوف والشهوات المستقرة فى قلوب البشر ونظرا لأن كثيرا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة ، ولم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لايحتملون أسئلة ولايتسامحون فى مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين منها .

وعندما أقاموا الحروب الصليبية لأهداف سياسية دنيوية تتعلق بهم فى الأساس كانوا يأذنون لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل مايمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة والقصص التى تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكى لنا من أضراب القساوة والنضال البشع مايتضاءل إزاء بشاعته قصة أى استشهاد للمسيحيين على أيدى الوثنيين ، وهى فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفا لما هى عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها .

كان هذا التعصب الأسود القاسى روحا خبيثا لايجوز أن يخالف مشروع حكم الله فى الأرض.[3]

---

(٣) راجع ويلز : نفس المرجع .

الصراع بين الملوك والبابوات

ولقد إحتدم الصراع بين الملوك والبابوات منذ عهد البابا جريجورى . فقد كان الحاكم الزمنى هو الذى يقدم إلى البابا الخاتم والعليا اللذين يخلعان على البابا المعين حديثا بوصفهما رمز المنصبه ، ولكن جريجورى أخذ هذا الحق لنفسه كما يدعم السلطة البابوية . ووصلت الأمور إلى حد التصادم عندما عين الامبراطور رئيسا جديداً لأساقفه ميلانو فى ١٠٧٥ ، تهدد البابا بخلع الامبراطور وحرمانه من بركه الكنيسه ، وهنا أعلن الامبراطور أنه هو السلطة العليا ، وأعلن عزل البابا ، فانتقم البابا بطرد الامبراطور والأساقفه من الكنيسة ، وأعلن عزلهم بدوره .

وقد استؤنف الصراع حول الترسيم فى عهد البابا إيربان الثانى (١٠٨٨ – ٩٩) الذى عاد إلى إسترداد هذه الحقوق لنفسه ، وعندما تمرد كونراد ، بن هنرى الرابع . على أبيه التمس العون لدى ايربان الذى رحب بتقديم هذا العون . وكانت المدن الشمالية مؤيده للبابا بحيث كان من السهل غزو لومبارديا كلها . وكذلك امكن عقد اتفاق مع فيليب . ملك فرنسا . واستطاع ايربان فى عام ١٠٩٤ أن يبدأ مسيره ظافره نحو لمبارديا وفرنسا . وهناك فى مجمع كليرمون فى العالم التالى ، دعا إلى الحرب الصليبية الأولى . وقد اقترح البابا الا يتدخل الأباطره فى الترسيم ، مقابل تنازل رجال الدين عن الملكيه الدنيويه . غير أن أهل اللاهوت كانوا أكثر حرصا على أمور الدنيا مما يقتضيه هذا الاقتراح الورع . وهكذا فإن رجال الدين الألمان . عندما عرفو بنصوصه ، هبوا ثائرين ، ووجه هنرى ، الذى كان عندئذ فى روما ، انذاراً إلى البابا كيما يستسلم ، وتوج نفسه امبراطورا ، غير أن انتصاره لم يعمر طويلا . فبعد أحد عشر عاما ، أى فى سنه ١١٢٢ ، استعاد البابا كاليكستومس Calixtms الثانى سلطته فى موضوع الترسيم عن طريق اتفاق ورمز Worms . وأسفرت أخر محاوله بذلها باربروسا لكسر شوكه البابا عن هزيمته فى ليجنانو Legnano عام ١١٧٦ ، وعقدت بين الطرفين معاهده صلح غير مستقرة ، وقد انضم الأمبراطور إلى الحمله الصليبية الثالثة ومات فى الأناضول عام ١١٩٠ .[٤]

---

(٤) راجع : برية اندرسل : حكمة الغرب ج١ .

بعض صور الفساد البابوى :

يصف ويلز[٥] تيودورا وابنتهامروزيا المرأتين اللتين أستولتا على معظم السلطة فى ذلك الوقت فيقول :«كانت المرأتان من الجرأة وموت الضمير فى خلاعة أمير ذكر فى ذلك الزمان والمؤرخون يحسبونهما كأنما كانتا أسوأ من الأمراء عشر مرات وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجنته (٩٢٨) وسرعان ماتوفى فى ظل رعايتها !! .. فأما أمها تيودورا فكانت خليلة له ثم نصبت ماروزيا بعد ذلك ابنها غير الشرعى على عرش البابوية باسم يوحنا الحادى عشر ومن بعده شغل كرسى القديس بطرس حفيدها يوحنا الثانى عشر وإن ماسطره جيبون عن ملوك يوحنا الثانى عشر وأخلاقه ليتوارى أخر الأمر خجلا وراء ستار من الهوامش اللاتينية ».

«واستطاع البابا : (٩٣٨ – ٩٦٤) أن يستولى على أموال الكنيسة وأن يجعلها ماخوزا وأن يحكم روما والعالم المسيحى بمعاونة العشيقات ولم يكن أحد ليجهل سيرة البابا اسكندر السادس ١٤٣١ – ١٥٠٣ الذى استباح كل المقدسات باسم القداسة ، واعتدى على كل المحرمات واعتمد على اسرته اسرة يورجيا فى الحصول على لذاته وشهواته وأمواله وكانت ابنته لدكريسا بورجيا سفاحة دموية وكان أبوها المقدس يدربها على ممارسات الشهوة »[٦].

ويقول الراهب « درابر »[٧] فى كتابه العلم والدين : إن الكنيسة كفرت كل من يخالف أمرها فى كل العلوم حتى الطبيعة والجغرافيا ، واقامت محاكم التفتيش التى عاقبت مايبلغ عددهم ثلاثة مائة ألف احرق منهم اثنان وثلاثون الفاً من بينهم عالم الطبيعة « برونون ... أما البابوات فينقل عنهم قول الراهب « جروم » : ان عيش القساوسة ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والاغنياء المحترفين ، ولقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم » .

(٥) المرجع السابق
(٦) الأستاذ أنيس منصور : إثنين إثنين نقلا عن د. محى هاشم : حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب .
(٧) نقلا عن الأستاذ سيد قطب المستقبل لهذا الدين .

وينقل « برتراند راسل » فى كتابه تاريخ الفلسفة الغربية عن[8] المؤرخ (جويسكشيجاردينى) قوله : (لم يكن هنالك انسان اشد اشمئذاذاً منى من طموح القسس وشحهم وخلاعتهم ليس فقط لأن كلاً من هذه الرذائل مكروه لدى ولكن لان كلا منها وجمعيها غير لائق إلى اقصى حد من أولئك الذين يعلنون أنفسهم رجالاً لهم صلات خاصة بالله وأيضاً لأنها رذائل تعارض الواحدة منها الأخرى بحيث أنها يمكن أن توجد معاً فقط فى طبائع فريدة للغاية . وأياً كان فإن وظيفتى فى بلاط بابوات عديدين اضطرتنى أن أروق لهم المجد من أجل مصلحتى الخاصة ولكن لو لم يكن ذلك كذلك لكنت أحببت « مارتن لوتركنج » هنا حبى لنفسى لا لكى أتحرر من القوانين التى تفرضها المسيحية كما هى مفهومة ومفسرة بعرق عام علينا ، بل لكى أرى هذا الحشد من الأنذال يعادون إلى مكانهم المناسب لهم ، بحيث يكون فى الوسع إجبارهم إما أن يعيشوا بدون رذائل أو بدون سلطان » .

ثالثاً : صور من إضطهاد الكنيسة للعلماء والمفكرين

وكان لابد أن يحدث الصدام بين رغبة متفجرة فى المعرفة والبحث عن الحقيقة وبين مقررات دينية متناقضة ومجافية للعقل والمنطق وموقف كنائسى متصلب ومتعجرف وفساد بابوى بلغت رزائله حداً من البشاعة يفوق تصور البشر ودفع هؤلاء الباحثون عن الحقيقة الثمن .

موقف المسيحية القى القبض على روجر باكون ، وقضى بقية عمره فى السجن ، ١٥ عاماً ، أما سيجر من باربانت ، زعيم أولئك الملعونين ، الذى تصدى للحكم الصادر ضده بشجاعة ، واستنجد بالبابا ، فقد قضى الـ ١٥ سنة المتبقية من عمره فى سجن البابا Orvie To ، ومات فيه مخنوقاً ، لقد قاست الروح العلمية الحقيقية على يد السلطة المستبدة المتوحشة خشية على سلطانها ، من ضربة وحشية بالغة الشدة . تلك هى الخلاصة المفزعة التى توصل إليها ليسنغ ، من تأمله لتاريخ العلوم .[9]

(٨) الجزاء الثالث الفلسفة الحديثه .

(٩) زيغريد هونكه : العقيدة والمعرفة .

يقول مارتن لوثر عن كوبر نيكوس : « .. يريد ذلك الأحمق أن يقلب علوم الفلك كلها رأسا على عقب ، ولكن كما يقرر الكتاب المقدس أن الشمس نفسها وليس الأرض هى التى أمرها يوشع بأن تقف .. »

وأكد جون كلفن من كبار قادة الإصلاح الدينى : أن الأرض ثابتة مستشهداً بالزمور ٩٣ وكذلك ثبتت المسكونة لا تتزعزع وسأل بإحتقار (من ذلك الذى يجروء على وضع سلطة كوبر نيكوس فوق سلطان الروح القدس ؟) .

وقررت الكنيسة الكاثوليكية (أن الاقتراح القائل بأن الشمس هى المركز وأنها لا تدور حول الأرض حماقة وسخف وزيف فى علم اللاهوت ، وهرطقة لأنه يناقض على طول الخط ماجاء فى الكتاب المقدس . وأما القول بأن الأرض تدور حول الشمس وليست فى المركز فسخيف وزائف فلسفيا ، ومن الناحية اللا هوتية يعارض - على الأقل - العقيدة الحقيقية) .

وفى عام ١٦١٦ وضع كتاب كوبر نيكوس فى قائمة الكتب المحرمة وأدينت جميع الكتابات التى تؤيد حركة الأرض[١٠] .

ولم يقتصر الأمر على معارضة الكنيسة وقادة الاصلاح الدينى والعامة بل وصل إلى أن حاول أحد مؤسسى المنهج التجريبى (كما يقال) وهو فرنسيس بيكون دحض فكره دوران الأرض حول الشمس[١١] .

وحكم على برونو بالموت حرقاً لتأييده لأراء أستاذ ، كوبرنيكوس أما جاليليو فقد قيد مربوطا بعامود وجثا على الأرض راكعا ونجا من الموت بإعلانه الرجوع عن أرائه وبرائته بالتوبة منها .

---

(١٠) كتب غيرت العالم نقلا عن د. يحى هاشم : حقيقة العلمانية .

(١١) راجع : حقيقة العلمانية : د يحيى هاشم .

وكان موقف الكنيسة ضد الإعتقاد بعمران الجانب المقابل من الأرض فقد ذهب القديس أوغسطين إلى أن التوراه لاتشير إلى وجود مثل هذه السلالة الآدمية واعتنقت الكنيسة والعالم المسيحى رأيه هذا ديناً ولجأت الكنيسة إلى محاكم التفتيش وآلات التعذيب وسخرتها فى مطاردة خصومها القاتلين بذلك الرأى وأوشكت على إعدام الطبيب بطرس الباتو لولا أن أنقذته المنية من براثنها وأحرقت العالم الفلكى ذائع الصيت تشكو داسكولوجيا وحاربت كولمبس لتقضى على مشروع رحلته فى كشف ماسمى بعد ذلك أمريكا وأبى مجلس من العلماء رفض مطلبه وأتخموه بنصوص من المزامير وأقوال مستقاه من القديس بولس وأوغسطين واستمر الجدل ثلاثة أعوام ثبت منه بطلان المشروع الجديد وأصرت الكنيسة على موقفها وعلى الرغم من أن ماجلان قد أثبت برحلته المشهورة عام ١٥١٩ وجود الناس الذين يسكنون الجانب الأخر المواجه من لموطننا من الأرض فان الكنيسة لبثت تقاوم هذا الرأى قرنين من الزمان حتى أكد عصبة مبشرين – طافوا حول الأرض للتبشير– ذلك الرأى .

وفى فلورنسا أعدم البابوات سافونا رولا وهو رجل دين يخلص للعقيدة الكاثوليكية ويوقر المركز البابوى ويحرص على حرفية النصوص لقيامه بدور سياسى للتحرر من فساد .

ثانياً : موقف الكنيسة ومقررات الكتب المقدسة نفسها من العلم

وجد علماء اللاهوت الأوربيون فى فلسفة أفلوطين (٢٠٤ : ٢٧٠) إمكانية صنع نوع من التزاوج بين ميراثهم الدينى وبين الميراث الفلسفى اليوناني والذي كان يشكل تهديداً مباشراً لمعتقداتهم ... وكانت النظرية الأساسية لأفلاطون هي نظريته في الثالوث فهو يذهب إلى أن « الواحد موجود كامل والموجود الكامل دائماً يلد موجوداً أدنى منه ولكنه الأعظم بعده وهو العقل الكلى الذى هو كلمة الواحد وفعله وصورته ولما كان العقل الكلى موجودا تاما فهو يلد بالضرورة فلذلك فهو يلد النفس الكلية التى هى كلمة العقل الكلى وفعله كما هو كلمة الواحد وفعله . وهى أيضاً تلد موجودات أدنى منها . فهى التى خلقت جميع الحيوانات بأن نفخت فيها الحياة ، الحيوانات التى تغذيها الأرض والبحر ، والتى فى الهواء والكواكب الإلهية فى السماء ، خلقت الشمس والسماء الواسعة ووضعت فيها النظام »[(١)] .

ولقد استطاع أفلوطين بآرائه أن يضع حاجزاً لايمكن اختراقه من المسيحية والطبيعة فهو يذهب إلى أنه : « لما كان الشر هو عدم الخير وكان الخير وجودا ولما كانت المادة لا وجودا أى غير معينة أو مصورة فى ذاتها وكانت الصورة خيراً كانت المادة أو عدم الصورة هى الشر بالذات »[(٢)] .

ويذهب إيضا إلى أن « الروح ذاتها تصبح شريرة عندما تلامس الحواس »

---

(١٢) ، (١٣) يوسف كرم تاريخ الفلسفة اليونانية .

وقد كان امبروزو مدافعاً غير هياب عن سلطة الكنيسة حتى إستطاع أن يضع أسس العلاقة بين الكنيسة والدولة كما ظلت سائدة طوال القرون الوسطى واستطاع أن يجعل من الكنيسة « مؤسسة عالمية تتخطى حدود الدول» أما القديس أوغسطين والذي كان « يرجع إليه أساسا الإطار اللاهوتى للكاثوليكية حتى عصر الإصلاح الديني ، فقد كان هدفه الأكبر في الأساس هو التوفيق بين تعاليم الكتاب المقدس والتراث الفلسفى للمدرسة الأفلاطونيه القديمة والجديدة .

وقد إستطاع توما الأكوينى منذ القرن الثالث عشر أن يعقد زواجاً نفعياً بين المذهب الكاثوليكى والفلسفة الأرسطيه التى إستبدل بها الأفلاطونيه (بالرغم من كون الأخيرة أكثر ملائمة للفكر الكنائسى). ومن خلال نظرة الإكوينى إلى الطبيعة .. وهو الذى كان يصف الراغبين فى معرفة الطبيعة وبالراغبين في معرفة الأشياء التافهة » ويحذرهم من ذلك الضمير السيء الذى يشدهم إلى ذلك – إستطاع أن يصنع عائقا صلباً جديداً فى وجه ميلا وعلم طبيعى أصيل .

وهذا هو « أوزيب » عالم اللاهوت مطران « القيصرية » يتوجه إلى علماء الأسكندريه قائلاً[١٦] « نحن لانولى نشاطاتكم ادنى اهتمام ، بل نذدرى تلك النشاطات التى لاطائل منها ونتوجه بعقولنا صوب اهتمامات اسمى وارفع » وبعد عشرة قرون يؤكد القديس توما الأكوينى هذه النظره بقوله « نحن نفضل الحد الأدنى من المعرفة بالأمور الدنيوية الفلسفية » .

---

(١٦) نقلا عن زيغريد هونكه : المرجع السابق .

وفى الحقيقة فإن آباء الكنيسة معذورون فى موقفهم هذا من التفكير والبحث فى الطبيعة لأن تخليهم عن هذا الموقف يعنى فى الواقع تخليهم عن الدفاع عن عقائدهم الدينية هذا فضلا عن تخليهم عن سطوتهم ونفوذهم إذا لم يفترض فيهم حسن النيه . لأن المسأله فى الحقيقه – وهذا مايحاول الكثير من الكتاب الغربيين بل وبعض العرب أيضاً فرض حصار من التعمية والتعتيم عليه – ليست مسألة موقف الفكر الكنائسى المعادى للطبيعة والمنحاز للفكر الأغريقى والذى صنعت منه الكنيسة سياجها الفلسفى ولا حتى مسألة تأويلات وشروح جامدة للكتاب المقدس فرضها هؤلاء الأباء على الناس ولكن الأهم من كل ذلك هو عداء تعاليم الكتاب المقدس نفسه كما هو موجود عندهم للبحث فى الطبيعة وتناقض الكثير من مقولاته مع بديهيات العقل وحقائق العلم وهذا ماجعل أباء الكنيسة يعون جيداً إنهم لن يستطيعوا إذ ترك باب حرية التفكير والبحث فى الطبيعة مفتوحاً أن يواجهوا تيار الحقائق العاصف الذى يمكنه إقتلاع عقائدهم وسلطتهم والإطاحه بها مهما بلغت بهم درجة التأويل لمقررات الكتاب المقدس لتتفق مع الحقائق الجديدة .

يقول موريس بوكاى[١٧] وهو عالم مسيحى أسلم بعد أن قام بدراسة موضوعية عن الكتب الدينية الثلاثة فى ضوء المعارف الحديثة – بعد أن قد فحص التناقضات التاريخية والموضوعية بين مقولات الكتاب المقدس : « إن للمحة العامة التى اعطيناها عن الأناجيل والتى استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى اكتساب مفهوم ادب « مفكك تفتقر خطته إلى الاستمرار » وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل » كما تقول الفاظ الحكم الذى اصدره المعلقون على الترجمة المسكونه للكتاب المقدس » .

ويقول[١٨] فى موضع آخر : « من زاوية المنطق يمكن أن نتبين عدداً كبيراً من المتناقضات والأمور غير المعقوله فى التوراة » ويقول أيضاً « لقد قمت بفحص

(١٧) ، (١٨) الكتب المقدسة فى ضوء العلم الحديث .

العهد القديم والأناجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجه للذهاب إلى ابعد من الكتاب الأول أى سفر التكوين فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين اكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا واما بالنسبه للاناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ونعنى بها شجرة انساب المسيح وذلك لأن نص انجيل متى يناقض بشكل جلى نص انجيل لوقا وان هذا الأخير يقدم لنا صرامة امراً لايتفق مع المعارف الحديثه الخاصة بقدم الانسان على الأرض .

ومع ذلك فقد كان القديس أوغسطين يخطب[19] فى حسم قائلاً : « ان مؤلفات الكتب المقدسة ، هذه التى تعرف بالقانونية هى فقط التى تعلمت أن اعطيها انتباها وإحتراما كاعتقادى الحازم بأنه ليس هناك احد من كتابها قد اخطأ فعندما التقى فى هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضه للحقيقه ، فانى عندئذ لاشك فى أن نص (نسختى) لايحتوى على خطأ وان المترجم لم يترجم النص الأصلى بشكل صحيح أو ان مقدرتى على الفهم تتسم بالضعف » هذا الموقف الحاسم من القديس أوغسطين كان يعتمد فى الأساس على موهبة علماء اللاهوت فى تقديم التأويلات والشروح التبريرية لستر نقاط الضعف الكثيرة مستعينين فى ذلك ببهلوانات جدلية . وبالرغم من كل هذه الجهود المضنيه فإن « المتناقضات والأمور الجيدة عن التصديق تظل باقية بلا حل فى نظر كل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه الموضوعى . وأننا لنأسف حقا لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الأحتفاظ فى نصوص التوراه والانجيل ببعض المقاطع الباطله خلافا لكل منطق[20] »

أما عن موقف المسيحية من البحث والمعرفة فتقول عنه زيجريد هونكه[21] « لم يكن لدى المسيحية ، كهدى سماوى اسئله توجهها إلى العالم ولم تسمح

---

(١٩) نقلا عن المرجع السابق .

(٢٠) موريس بوكاى : المرجع السابق .

(٢١) العقيدة والمعرفة .

للانسان كذلك بتوجيه اسئلة لها . أولم تكن الشهوة إلى المعرفة هى السبب فى انزال الخطيئة إلى العالم أو لم يصف الله فى كتبهم المقدسة، حكمة العالم بأنها غباء ؟ ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة ... وإلى جانب الطرق الروحية ، الوحيدة الموصلة للروح ، إلى الله ، اعتبر كل طريق للبحث عنها فى أى مكان أخر عدى الوحى خاطئاً مارقاً ولقد جرب ذلك كل من فلهلم — كوس وجلبرت دى لابور De la paree وكثيرون غيرهم على أبدانهم أن تكون محبا للاطلاع وأن تبحث بعد مابشر بالانجيل أمرين جعلهما يترتوليان واوغسطين ورئيس الأساقفه تمبير Tampier أثما عظيما وخطيراً » .

وإذاء هذه المواقف التى تقف على النقيض من بديهيات العقل والمنطق — للكنيسة ومعتقداتها وإزاء هذا الفساد البابوى البشع المناهض للعلم والإصلاح كان من الطبيعى جداً أن ينحاز رجال النهضة إلى أصحاب الفكر العلمانى فى هذه الفترة وهم الذين كانوا مستقلين تماماً فكرياً عن كل معتقد دينى مسيحى وغير مسيحى كلية من أمثال الأمبراطور فريدريك الثانى ومعتمدين فى الأساس على الميراث الفكرى الإغريقى وعلى ماا كتسبوه من معطيات الحضارة الإسلامية التى صاغوها صياغة علمانية تتفق مع موقفهم الفلسفى المسبق . وكما يقول برتراندرسل فقد أدى هذا الجمود الفكرى : « إلى سير التيار الفلسفى الرئيسى مرة أخرى فى القنوات العلمانية بحيث عاد إلى روح الإستقلال التى كانت تسود فلسفة القدماء » .

ويجب التنبيه هنا إلى أننا بصدد عودة إلى العلمانية ولسنا بصدد ميلاد لها كما اعتاد الكتاب العرب الذهاب إلى ذلك فقد أدى المناخ المناهض للعلم والحرية الفكرية فى بداية عصر النهضة إلى الإنحياز إلى تيار الفكر العلمانى واستفحال أمره بعد أن كان مجرد صدى خافت للفكر الإغريقى القديم . **وعاد الفكر العلماني المنطلق من الإقتصار على العقل البشري في إدراك الحقائق وتصريف شئون الحياة يسيطر على الأمور مرة أخرى .**

وفى الحقيقة فان مافعله رجال النهضة من انحياز إلى الفكر العلمانى مرة أخرى هو موقف سليم وطبيعى جداً وماكان رأى عقل بشرى موضوعى حر أن يفعل غير مافعلوه لأن البديل الوحيد لموقفهم هذا هو الذوبان فى عالم الخرافات والأوهام والتأملات العجيبة التى صنعها ذلك الزواج النفعى الإنتقائى بين الكنيسة الغربية والتراث الأرسطو أفلاطونى . والذى يؤكد سلامة موقفهم هذا أنهم بالرغم مما تعرضوا له من إضطهاد بشع من الكنيسة الغربية أدى إلى كفرهم بها — لم يذهبوا إلى ذلك الموقف العلمانى المتطرف الملحد الذى شاع أمره فى القرون الأخيرة فلم يفقدوا إيمانهم بالله بل كانوا جميعاً على وجه التقريب من المؤمنين المقرين بوجود الله يقول المؤرخ الأمريكى كافين رايلى[22] فى ذلك : « والواقع أن كل عالم كبير . إبتداء من القرن الثالث عشر حتى لايبتينز ونيوتن كان يفسر دوافعه فى اطار دينى بل إن جاليلو لو لم يكن عالم لاهوت هاويا على هذا القدر الكبير من خبرة لما تعرض لكل هذه المتاعب ، فالمحترفون إستاؤا من تطفله ويبدو أن نيوتن كان يعد نفسه عالم لاهوت أكثر منه عالما (طبيعياً) ولم يحدث ان أصبح الايمان بالالوهية أمرا غير ضرورى لكثير من العلماء إلا فى أواخر القرن الثامن عشر » .

وسيكون لكل هذا صدى قوى فى الفلسفة ستستقل الفلسفة عن الدين فتكون هناك فلسفة إلحادية وتكون هناك فلسفة تتحدث عن الروحانية والمسيحية ولا تعني سوى مجرد عاطفة دينية وتكون هناك فلسفة تشيد بالعلم الآلي وتحصر مجالها على قدر مجاله أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة فى بعض المذاهب مع تفاوت بينها وتظل الأجيال إلى الآن حائرة متردده تعتنق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الأخر وتستبدل نظاما من الحياه بنظام[23] .

ومع بداية القرن التاسع عشر وما شهده من إنطلاق علمى أدى إلى غرور بالغ فى الإعتماد على العلم فى تفسير الوجود بدأ الإتجاه العلمانى يأخذ منحى مادى الحادى متطرف

(٢٢) راجع العالم والغرب : كافين رايلى : ج٢ . (٢٣) يوسف كرم : الفلسفة الحديثة

والآن علينا أن نتسائل عن أى الحضارتين نقلت أوروبا نهضتها الحديثة ؟ هل نتجت هذه النهضة الحديثة عن عملية بعث جديد للحضارة الإغريقية ظهرت مقدماتها فى أواخر القرون الوسطى أو نتجت هذه النهضة عن عملية إستثمار دؤوبه للمعطيات التى أخذتها من الحضارة الإسلامية .

هل كان يملك الغرب الأسس النظرية الدافعة إلى إبتكار منهج علمى جديد أو كان يملك الخبرات العملية المتراكمة التى كان من الممكن أن تقوده إلى بعض هذه النظريات على الأقل لن نكون مبالغين أو متحيزين إذا ذهبنا إلى أن أوروبا لم تكن تملك شيئاً من ذلك ، فكما قدمنا فإن الميراث العلمى الإغريقى كان فقيراً إلى حد مؤسف فى مجال العلوم الطبيعية وكان للتراث الفكرى لنظريات الإغريق الفلسفية خصوصا عند رائديهما أفلاطون وأرسطو أثرا معوقاً للتقدم العلمى فى هذه العلوم وهو ماذهب إليه الباحثون الغربيون أنفسهم وإن كان بعضهم من أمثال بريتراندرسل يعزون ذلك إلى الجمود الفكرى الذى أصاب تلاميذهم تحت ضغت النزعة التحيزية إلى الإعتزاز بالماضى تلك النزعة التى تجعل رسل بالذات يعزو كل أخطاء أعلام الفكر الغربى إلى تلاميذهم .

وهناك نظريتان غربيتان فى تفسير أسباب ظهور التقدم العلمى

. الأولى للمؤرخ الغربى الكبير أرنولد توينبى فهو يذهب إلى أن ظهور عقيدة التوحيد فى اليهودية والمسيحية أدى إلى تعرية أشياء الطبيعية من الخوف والرهبة اللذين كان يشعر بهما البشر تجاهها مما أدى إلى عبوديتهم إياها ومن ثم عدم خضوعها للبحث والتنقيب اللذين يقتضيهما المنهج العلمى .

وكان الأولى بتوينبى – لو كان إستطاع أن يتخلص من التحيز للعقائد الغربية أن ينسب عقيدة التوحيد هذه إلى الإسلام وليس إلى اليهودية والمسيحية

لأن الإله الواحد عند اليهوديه - من خلال كتبها هو إله اليهود آيضا - فإنها بديهة عقيدة التثلث وليست عقيدة التوحيد وهذا بخلاف المنظور الإسلامى إلى الأصل التوحيدى لكلا الديانتين ولكن المنظور الأول هو المنظور السائد بين أتباع هذين الديانتين .

وعلى فرض أن انتشار الديانتين قد أدى إلى تعرية أشياء الطبيعة من مظاهر الألوهية التى كان يعتقدها الناس إلا أنهما قد دمغاها بالمعصية والإنحطاط والتفاهة والشر وجعلا من البحث والتنقيب فيها فضولاً مزرياً قد يؤدى بالإنسان إلى الكفر .

أما النظرية الثانية لزيغريد هونكه فهى تكاد تكون رد فعل متطرف للفحوى التفسيرى لما أدت إليه النظرية الثنائية المتطرفة المسيحية الأرسطو أفلاطونية من إعاقة لظهور علم طبيعى متقدم فإذا كانت هذه النظريات أبعدت الشقة مابين الروح والمادة حتى أنها جعلت هذه الأخيرة تكاد تكون قرينة بالشر مما يؤدى إلى تجنبها فإن هونكة ومعها تيار آخر من علماء الغرب ترى أن ظهور النظريات الفلسفية الحلولية - ولو بطريقة غير مباشرة - والتى تعمل على دمج ماهو روحانى بما هو مادى أى أن الطبيعة تصير من وجهة نظرها - وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - هى العالم مقترناً بالذات الإلهية هذا ماجعل اكتشاف الطبيعة يعنى اكتشاف الله نفسه مثلما ذهب إلى ذلك آريوجينا وكوسانوس . وواضح أن هذه النظرية تقف على النقيض من نظرية توينبى . ففضلا عن أن نظرية الحلول هذه تعبر عن مدى ضغط النظريات الفلسفية المادية على العقل الغربي مما جعل المؤمنين أنفسهم يقفون في موقف دفاعي أدى بهم آخر الأمر إلى البحث عن الله ذاته داخل المادة نفسها - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - مستعينين فى ذلك ببعض النظريات العلمية الحديثة للفيزياء الذرية وملتمسين جذوراً لهم فى بعض الفلسفات الحلولية القديمة ، لتدعيم موقفهم.أقول:فضلا عن ذلك فإن هونكه تجاهلت أن إقتران هذه المادة بما هو

إلهى فى هذه العصور القديمة أدعى إلى الإبتعاد عنه لا إلى التنقيب فيه ووضعه تحت التجربة والإختيار كما ذهب إلى ذلك توينبى وكل من أرجعوه لأسباب التخلف فى العصور القديمة وكان أولى بها أن تسلم بالنظرية الإسلامية فى رؤيتها للطبيعة على أنها كتاب الله المفتوح وأن أشياء هاهى آيات دالة عليه سبحانه تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وكما عبر عن ذلك الشاعر .

له فى كل شيء آيـــة تدل على أنه الواحـــد

أقول كان خيراً لهونكة أن تسلم بتلك النظرية كتفسير لميلاد علم طبيعى جديد بدلا من إمتداحها والبحث عن نظرية أخرى للتفسير (أقرب إلى المادية) تستطيع من خلالها العبور بين مطارق الماديين المشرعة فى الوجوه .

لقد توفرت فى الإسلام كل مقومات المنهج التجريبى التى أهمها .

- **الدعوة إلى السعى فى طلب العلم وإلى البحث فى الطبيعة والتأمل فيها بإعتبارها كتاب الله المفتوح .**
- **الحث الشديد على اعمال العقل وتأسيس المعرفة على الإدراك الحسى .**
- **عدم قبول أى من المعارف العلمية قبل تجريبها .**
- **الدعوة إلى إستعمار الطبيعة بإعتبار الإنسان خليفة الله فى الأرض .**
- **ثناء الإسلام الشديد على العمل اليدوى (الذى نسبه القرآن لبعض الأنبياء) .**
- **أمر القرآن بالآخذ بأسباب القوة والعلو فى الأرض .**

فهل توفرت هذه المقومات للحضارة الإغريقية ؟ .

فإذا كنا ندرك جيداً أنها لم تتوفر لها فليس أمامنا الآن سوى الإعتراف بأن العلم الطبيعى الحديث ماهو إلا نائج موضوعى لما تمخض عنه المنهج العلمى التجريبى للحضارة الإسلامية .

ويبقى لرواد عصر النهضة ومن سبقوهم فى هذا الإتجاه رغبتهم الجامحة فى الخروج من خناق الفكر الكنائسى الأرسطو أفلاطونى وحماسهم الشديد فى الإقبال على العلوم الإسلامية وكفاحهم المضنى فى سبيل الدفاع عن هذه العلوم وتطويرها بعد ذلك .

ونحن نقول ذلك لأن المسألة ليست مسألة كمية تتنازع عليها مختلف الحضارات من أجل اثبات النصيب الأكبر الذى اشتركت به كل حضاره فى هذه العلوم وإنما المسألة تتعلق فى الأساس بالمنهج العلمى الإسلامى الذى لم يكن تجريبياً فحسب وإنما كان دافعاً للإنسان على اكتشاف أسرار الطبيعة التى هى سنن الله فى الأرض التى تحكم كتاب الله المفتوح (الكون) وعلى السيطرة الحكيمة (وليست المدمرة كما حدث عن الغرب) على أشياء الطبيعة وتسخيرها له على أساس أنه خليفه الله فى أرضه وأن قيامه بذلك يعنى عقائديا إرتقائه فى مدارج العبوديه لله سبحانه وتعالى –

إن أوروبا تنسب المنهج التجريبى عادة إلى العالم وجر بيكون . ولكن ماهو رأى بيكون نفسه .

لم يكن بيكون يكن المحبة لأرسطوطاليس كما يقول – وهو النجم المتألق الذى استغبى غالبية الأطباء اللاتين ، وإنما يلفظ – المحبة – لابن زخر ، وبالأخص للرازى الشهير فى أبحاثه ، الفذ فى مؤلفاته ، والتقدمى بحكمه والمعترف له بتجاربه الخاصة . ولعل الشيء الجوهرى هنا : أنه لم يقبل على الصيدلية العربية ، الكيمياء ، بدافع التعصب المذهبى ، بل كمثل يحذى ، علوم تخضع لتيار التجربة لقد كان بيكون يصرخ بقوة قائلا عن أرسطو : « ما الذى يعجبكم فى هذا الرجل » .

وكان لا يفتأ يردد دائماً : « العلم ليس موجوداً إلا لدى العرب »[٢٤].

ماالذى نريد أن نقوله من كل ماسبق ؟ بل على الأصح من كل هذا القسم من الباب .

(٢٤) راجع قيم الحياة فى القرآن الكريم بالأستاذ محمد شديد والعقيدة والمعرفة لهونكة .

نريد أن نقول: إذا كان العلم الحديث هو وليد الحضارة الإسلامية فكيف يحارب الإسلام به ؟!؟!؟! .

الصليبية ماهى ؟

وهنا قد يثور سؤال : لماذا لم يؤد هذا الاعجاب الشديد لرواد النهضة للحضارة الإسلامية ونقلهم عنها إلى إسلامهم ؟ أقول إنه من البديهى أن بعض هؤلاء قد أسلموا وإن يكن قد تم إغفالهم ولكن كانت هناك عوائق شاقه ومريرة تقف فى وجه دخول هؤلاء الرواد فى الإسلام أهمها أن هؤلاء الرواد الذين كانوا يعيشون فى ظل الإضطهاد البشع لمحاكم التفتيش كانوا يرتعشون فرقاً من إفتضاح أبحاثهم وآرائهم فما بالك عما سيكون عليه الأمر لو أسلموا أو حتى فكروا فى ذلك ؟!.

كذلك تلك العقيدة الصليبية العدائية للإسلام التى ترسبت فى وعى الغربيين نتيجة لقهر الإسلام لأوروبا قروناً طويلة مما أشعل نار الغيظ فيها بالإضافة إلى تلك الهزائم والخسائر الرهيبة التى حاقت الحملات الصليبية المتلاحقة على العالم الإسلامى دون فائدة وهو مايصفه هـ . ج . ويلز[٢٥] بقوله : « لقد ترسخ فى ذهن المغامرين الأوربيين تماماً أن الرجال كانوا يذهبون لقتال المسلمين فلا يعود منهم إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين وغالباً مايكون ذلك بعد أن تفرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية اللازمة لهم » .

وكان لابد لزعماء أوروبا أن يرسخوا فى الأذهان تلك الصورة الشوهاء عن الإسلام بأنه الدين الدموى الشهوانى الشيطانى القائم على الدجل والسحر والشعوذة . حتى بلغ الأمر بشاعرهم دانتى فى كوميديته التى يصفها بالإلهية بأن يضع الرسول ﷺ – تنزه الرسول عن ذلك – فى الدرجات السفلى من الجحيم فوق إبليس مباشرة وتحت كل .. الكفار والمجرمين والملاحدة .

وهذه العقيدة الصليبية ليست فقط أقوى فى التأثير من الموقف العلمانى لرجال النهضة ولكنها أيضاً أقوى فى التأثير من الموقف الإلحادي[٢٦] لكثير من الغربيين الآن .

---

(٢٥) معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ج٣. (٢٦) راجع الإسلام على مفترق الطرق . للأستاذ محمد أسد.

فضـــل الحضارة الإســلامية
على الحضارة الغربيــة الحديثــة

المنهج التجريبي :

ماذا عن المنهج العلمى التجريبى فخر الحضارة الغربية والأب الشرعى يقول العالم الأمريكى « درايبر » :

« تحقق علماء المسلمين من أن الإسلوب العقلى النظرى لايؤدى إلى التقدم وأن الأمل فى وجدان الحقيقة أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى ابحاثهم الأسلوب التجريبى العلمى الحسى ».

ويقول « بريفولت » فى كتابه : بناء الإنسانية :

« علـى الرغم من أنه ليس ثمه ناحية واحدة من نواحى الإزدهار الأوربى إلا يمكن ارجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد اوضح ماتكون وأهم ماتكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لإزدهاره أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى .

وليس لروجر بيكون ولا سميه فرنسيس بيكون الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى . لم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم المعاصرين للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

إن المناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هو طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد إنتشر إنتشاراً واسعا وإنكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا » .

---

(٢٧) نقلا عن الأستاذ محمد شديد : نفس المرجع .

ويقول جارودى: «إن العلم الإسلامى الذى لايبعدنا عن الملاحظة الدقيقة جداً والحساب ، هو الذى علم العلم العربى الطريقة التجريبية (المناقضة لطريقة الأغريق التى تهتم بالنظريات اكثر مما نهتم بالوقائع ، وطرق الرياضيات الـحديثه إن العلم الغربى هو علم تجريبى على عكس الإغريق » .[28]

إنتقال العلوم إلى أوروبا :

لقد آثرت العلوم التجريبية العربية تأثيرا أشد بكثير من مجرد كونها نوعاً من شرارة انطلاق لخطة جاهزة للعقل الأوروبى .

إن هذا الوقود العربى الذى ماانفك يهب بقوة منذ ١١٠٠ سنه ، ومنذ منتصف القرن ١٢ من خلال الطلبة الدارسين فى الجامعات العربية العائدين إلى أوطانهم ومن خلال الترجمات القادمه من طليطله وسالرنو وبالرمو ؟ وقوافل الحجاج والمحاربين الصليبيين الذين جاؤوا من الأراضى المقدسة بما فتنهم إلى بلدانهم ، ومن خلال الحضارة والمدنية والتقنية العربية المتفوقة ، ومن خلال المعارف والمنجزات المتسربه اليهم ، ومن خلال التحف التذكارية والمعدات المرغوبة متعددة الأنواع .

إن اثلهارت العائد لتوه من حرية الحياة العقلية العربية ، إلى الوطن استكان — خائبا وحانقا — إلى معوق كل معرفة بالطبيعة ، وإلى سلطاتها المستبده الخانقه للفهم ومن بعده بخمسين سنه ، لم يفل عقل روجرباكون وهو مواطن مثله وجسده أيضاً مين راح يتأوه و ردد من فرط آلآن العميقة « لو قدر أن نحرم من التعرف على جمال الكون المدهش فإننا نستحق آنئذ ، أن يلقى بنا من خارجا شأننا شأن الضيف غير المؤهل على اعضاء قيمه المأوى الذى يستقبل فيه . لقد تعلمت على يد المعلمين العرب شيئا عن التيسير بواسطة الادراك (العقل)(٢٩)

والغرب مدينون لابن الهيثم المعروف فى الغرب باسم الحسن المولود فى بصرى عام ٩٦٥ ، والمتوفى فى القاهرة عام ١٠٣٩ ، الرياضى الكبير والفلكى

(٢٨) الإسلام دين المستقبل .

(٢٩) راجع العقيدة والمعرفة لهونة .

والمهندس بأبحاثه على البصريات التى دشنت العلم التجريبي . ولقد قام فضلا عن ذلك كطبيب عينى بأول وصف تشريحى للعين[٣٠]

ولم يتردد روجيه باكون الذى تلقى علومه فى جامعات أسبانيا الإسلامية فى نسخ بصريات ابن الهيثم فى الجزء الخامس من كتابه (الكتاب الكبير) المكرس لدراسة علم البصريات ، وهذا ماجعل منه رائد الطريقة التجريبيه والعلم الحديث فى الغرب[٣١] .

ويقول الاستاذ ديكنز[٣٢] المشرف على موسوعة جامعة كمبردج : « لقد كانت إضافات المسلمين إلى التراث العلمى وإلى الطب والرياضيات واضحة جداً . وفى الفلك والكيمياء ذهب الفقهاء المسلمون إلى اقصى مكان ممكن أن يصل إليه علم لم يمتلك التلسكوب ولا الأدراك الأوضح للبناء الكيماوى والطريقة العلمية الحديثة وكل ماانجزوه فى هذه الميادين (العلوم والطب والرياضيات) أخذه الغرب فظل يدور فيها لعدة قرون وبعض هذه العلوم لم يعرفها الغرب كالوغاريتمات والكمياء والبصريات والتحكم فى الكولستول وغير ذلك لم يتكشفها الغرب إلا بعد زمن طويل وبعد بحث وكثير من العلماء والمفكرين ومؤرخى العلم لايدركون هذا .

ويقول الأستاذ ديكنز[٣٣] بعد هذه المقدمة «إن الذي إستعاره الغرب من الشرق الأوسط يشكل من الناحية العملية جميع نسيج الحضارة الأساسية ولولا هذه الأستعارات الأساسية من الشرق الأوسط لكنا نعده إلى أشياء كثيرة مالم يكن لدينا القدرة والسرعة على إبتكارها ومن هذه الأشياء الزراعة وتدخين الحيوانات والملبس والمواصلات والحياكة والبناء وعمليات الرى الصرف وتعبيد الطرق وإختراع العجلة واعمال التعدين والسفن الشراعية والمراقبة الفلكية والتقويم السنوى والكتابة وضغط السجلات والقوانين والحياة المدنية وسك النقود أو التفكير المجرد والرياضيات ومعظم أفكارنا، أما كافين رايلى فيقول : نقل خيالة الصحراء إلى أسبانيا تقنية زراعية للأرض تزدهر على نحو لم نر مثله من قبل بل ربما حتى اليوم واصبح نسلهم أساتذة طب فى أولى كليات

(٣٠) (٣١) جارودي : الإسلام دين المستقبل.

(٣٢) (٣٣) نقلا عن الأستاذ أنور الجندي : حضارة الاسلام تشرق على الغرب .

الطب فى أوربا وعلم فلاسفتهم الغرب أفلاطون وعلم تجارهم وبحارتهم الأوربيين الرياضة وسك الدفاتر والسفر بالبصر .

ويقول أنتون ناتنج فى كتابه « العرب تاريخ وحضارة » لقد سجلت مؤلفات ابن سينا دائرة كبيرة فى شتى الموضوعات كالفلسفة والفن والشعر والهندسة والفلك والموسيقى وعلوم الدين وكان من مؤلفاته سيل لايكاد ينقطع من دوائر المعارف فى الفلسفة والعلوم . وعمل على تقنين الفكر والأبحاث الطبية لليونانيين والعرب وتطوير نظريات جديدة لعلاج العديد من الأمراض المعدية وكما حدث لمؤلفات جابر والرازى فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية او قد ظلت حتى القرن السابع عشر وهى لاتزال المرشد والموردالرئيسى لعلماء الطب فى الغرب .

وفى موضع اخر يقول : « إن أبرز إسهام للعرب فى تنوير وتعليم الغرب إنما كان ادخال الأعداد العربية الذى كان الفضل فيه لمحمد بن موسى الخوارزمى أعظم الرياضيين المعاصرين عندئذ والعالم الفلكى المبرز . لقد ولد الخوارزمى كما يدل اسمه فى خوارزم فى وادى بلاد النهر عام ٧٨٠ وكان حجه وضع أقدم المؤلفات المعروفة فى الحساب والجبر ولقد إستخدمت هذه المؤلفات فى أوربا ككتب مدرسية نموذجية في هذا المضمار حتى القرن السادس عشر .

ويقول أيضا : فى ميادين الطب وعلم النبات والفلسفة كما فى الأدب والشعر كان للغرب الأسبان تأثير بالغ فى تقدم الثقافة الأوربية من الزهراوى طبيب البلاط لدى الخليفة الحكم الثانى الذى اكتسب مكانه جعلته معدوداً أعظم جراح فى العالم العربى إلى الفيلسوف والطبيب العظيم فى القرن الثامن عشر ابن رشد – كان علم الطب الذى جمعه العرب الأسبان فى مصر والعراق وفارس ، يتدفق إلى أوربا المسيحية فى مجرى لاينقطع ولا آثار التأثير العربى موجودة فى لغة الكيمياء التى تدين للإشتقاق العربى بمصطلحات مثل صودا الكحول نترات ، قلوى .

---

(٣٤) العرب تاريخ وحضارة

القســـم الثــانى

الباب الرابع

موجز تاريخى عن مراحل
غزو الأفكار العلمانية لمصر
والعالم الإسلامى

أولاً : الحملة الفرنسية :

بيان نابليون بونابرت إلى شعب مصر بعد فتح الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله . لا ولد له ولا شريك له فى ملكه .

من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق «الحكام المماليك» الذين يتسلطون فى البلاد المصرية ويتعاملون بالذل والإحتقار فى حق الفرنساوية يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم ... يا أيها المصريون ، قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ...

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية (الشوربجية) وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا

فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الكوالرية (يقصد الكافالدية أو فرسان المعبد) الذين كانوا يزعمون أن الله سبحانه وتعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه .

ثم يلى ذلك التعليمات التى يجب على أهل القرى أن يتبعوها أثناء زحف الجيش الفرنسى على القاهرة ، واعداً المسالمين بحسن المعاملة ومتوعداً القرى التى تحارب الجيش الحرق بالنار ثم ختم بيانه بأنه ينبغى على المصريين أن يشكروا الله ويدعوه قائلين : « أدام الله إجلال سلطان العثمانين ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى . لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية »[1] .

علق الدكتور لويس عوض على هذا البيان قائلاً : « فالإستعمار الفرنسى قد لعب إذن بثلاث ورقات ، ورقة عديمة القيمة لأنها لم تجز على أحد ، وهو أنه جاء ليحمى الإسلام وورقتان مكشوفتان ولكنهما وافقتا مصالح المصريين ، وهما من ناحية تغذية الروح القومية المصرية ، وإقناع المصرى بالثورة على المماليك ثم الإنفصال عن الباب العالى وذلك بالدعوة إلى إقامة حكومة مصرية تتولى مسئولية الحكم فى البلاد بعد أن كان المصريون بأجمعهم معزولين سياسياً . ومن ناحية أخرى تغذية الفكرة الديمقراطية بالدعوة الى المساواة أمام الله وأمام القانون والعمل على إقامة حكم برلمانى أو شبه برلمانى نيابى فى البلاد »[2] .

هذا التعليق يحاول صرف النظر عن الحقيقة المحورية التى تتجسد فى هذا البيان وهى أن هم نابليون الأكبر كان متمثلا فى التفكير فى كيفية إزاحة الإسلام من المعركة لأنه العائق الأكبر الذى لن يستطيع أن يغزو هذه البلاد

(١) نقلا عن الأستاذ أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٣. ود . لويس عوض تاريخ الفكر المصرى .

(٢) تاريخ الفكر المصرى

مادام هو واقفاً فى وجهه .

وهذه الحقيقة متمثلة فى كل سطور البيان فليس الأمر مما يمكن إختزاله إلى مجرد ورقة عديمة الفائدة (لإنكشافها) المقصود بها التودد إلى المصريين بإدعائه أنه جاء ليحمى الإسلام وإنما الأمر الواضح وضوح الشمس أنه يحاول مراراً وتكراراً أن ينفى عن نفسه تهمة العداء للإسلام بل ويحاول أن يؤكد للمصريين أنه مسلم مثلهم وعلى ذلك يكون العائق الأكبر قد انزاح فتسهل مهمة اقناعهم أنه أفضل لهم من المماليك .

أما الورقتان المكشوفتان اللتان يتحدث عنهما الدكتور لويس فهو يحمل بهما النص أكثر مما يعنى فقد ذهب بعيداً جداً بزعمه أن البيان يحاول اقناع المصريين بالثورة على المماليك ثم الإنفصال عن الباب العالى وإقامة حكومة مصرية بل إن البيان يكرر مراراً دعوة المصريين إلى التمسك بالباب العالى (الذى هم أصدقاؤه) وهذا أيضا مما يؤكد ما ذهبنا إليه . وأما حكاية أن مساواة الناس أمام الله (والبيان لم يقل أكثر من ذلك) فإنه يذكر الناس بهذه الحقيقة القرآنية ليدلل بها على عدم شرعية حكم المماليك الظلمة لهم . ومن ثم جواز اقناعهم بأفضلية حكم الفرنساوية المسلمين (فى رواية الجبرتى) أصدقاء السلطان العثمانى الذين يعبدون الله الواحد ويحترمون نبيه والقرآن العظيم والذين خربوا كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام . وهذا كله تأكيد للحقيقة التى ذهبنا إليها .

ولا يوجد فى البيان ما يضاف إلى هذه الحقيقة غير ما جاء فيه من إغراء للطامعين وإرهاب للعاصين ، وهذا أمر بديهى عند أى غازٍ .

وقد أردنا فى بداية هذا الباب أن نوجه الأنظار إلى أن الغرب يعى تماماً ــ بل كثيراً ما يصرح بذلك ــ أن الحائل الوحيد الذى يقف بينه وبين استعبادنا هو الإسلام ذلك المارد المصفد بأغلال جهلنا وتخلفنا وفسادنا وهزيمتنا النفسية والروحية وأنه أخشى مايخشاه على نفسه يوم أن يتمكن هذا المارد من تحطيم أغلاله وقيوده .

ولقد إعتاد الباحثون التأريخ للغزو التغريبي العلماني لمصر وجانب كبير من العالم الإسلامي بأحداث الحملة الفرنسية على مصر حيث يصف الجبرتي[٣] سنة وقوع هذه الأحداث ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) بقوله «هي أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وإنعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى وأهلها مصلحين».

ولكن كيف حدث ذلك الصدام الذى فضح مدى التفوق الغربى على العالم الإسلامى وعلى رأسه الدولة العثمانية التى شاخت وأصابها العجز ومن قبل ذلك الغرور.

إن المقدمات الأولى للحملة تكشف لنا مدى الجهل والغرور والغفلة التى كان يعيش فيها العالم الإسلامى عندما وصلت أنباء هذه الحملة إلى إنجلترا أرسلت قائدها نلسون على رأس جزء من الإسطول الانجليزى لتعقب الفرنسيين وشاءت الأقدار أن يصل أسطول نلسون إلى الإسكندرية قبل الأسطول الفرنسى. فأرسل نلسون إلى السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية يسأله عما إذا كان الأسطول الفرنسى قد شوهد بالقرب من هذه النواحى فلما أجيب بالنفى طلب أن يسمح له بالمرابطة فى المياه المصرية، فى انتظار مقدم الأسطول الفرنسى الذى لا قبل للمصريين به.

ولكن السيد محمد كريم إنتهر فى كبرياء وصلف رسل الأسطول الإنجليزى وطلب منهم أن يسرعوا بالإبتعاد عن المياه المصرية وإلا أطلق عليهم المدافع فإن مصر: «أرض السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها من سبيل، فاذهبوا عنها»[٤].

---

(٣) تاريخ الجبرتى نقلا عن د. السيد أحمد فرج: جذور العلمانية.

(٤) أحمد حسين: نفس المرجع.

يعلق الأستاذ أحمد حسين على هذه الواقعة قائلا : «ولم تكن هذه المدافع التى هدد محمد كريم بإطلاقها إلا أربعة مدافع قديمة عفى عليها الزمان ... لقد كان السيد محمد كريم لا يزال يعيش فى الوهم القديم ، من أن مجرد ذكر اسم السلطان من شأنه أن يخلع القلوب من الرعب[٥] » .

ما هو مصدر ذلك الإعتزاز والثقة (والتى لم تعد ذات محل فى ذلك الوقت) الذى جعله ينطلق بمثل هذا الكلام .

لقد استطاع الأتراك العثمانيون أن يكونوا أسياداً للدنيا لقرون طويلة فلقد امتدت على أيديهم الخلافة الإسلامية فى أعماق أوروبا ذاتها إمتداداً رهيباً فلقد ضموا إلى دولة الإسلام بلاد اليونان والمجر وبلغاريا ورومانية ويوغسلافيا وغير ذلك من بلاد شرق أوروبا حتى وصلوا إلى حدود النمسا واستطاعوا أن يحاصروا فيينا نفسها (عاصمة النمسا) مرتين كانت أخراهما سنة ١٦٨٢ ميلادية (ولعل ذلك الجزء من الصراع الدرامى بين المسلمين والغرب يفسر لنا بعضا من أسرار العداء المترسب فى نفوس الغرب (حتى بصورته العلمانية) للإسلام والمسلمين الذين لم يستطع أحد غيرهم أن يقهر الأوربيين مثلما قهروهم .

يقول أرنولد توينبى[٦] : «إن كل ما كان قد تبقى من المسيحية الأرثوذكسية الشرقية فى أسيا الصغرى وجنوب شرقى أوروبا تم إخضاعه فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر على أيدى الأتراك المسلمين . ومن مدة ليست بعيدة فى سنة ١٦٨٢ ـــ ١٦٨٣ حاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية . وبعد فشل هذا الحصار بدأ الصراع بين الغرب والإمبراطورية العثمانية يتحول لصالح الغربيين ... وكان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربى على العالم الإسلامى فى يوم أو فى آخر ، ولكنه تأخر فى الظهور بسبب الصورة التى كانت فى مخيلة الغربيين عن شجاعة الأتراك والمسلمين وبسالتهم العسكرية ..

---

(٥) المرجع السابق .

(٦) الغرب والعالم .

ولم يخاطر الغرب بذلك الهجوم إلا فى القرن التاسع عشر فيما بعد فحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم» .

أى أنه بالرغم من تصاعد التفوق التكنولوجى للغرب على الأتراك منذ سنة ١٦٨٢ إلا أن الغربيين لم يجرؤوا على محاربة الأتراك المسلمين إلا بعد ذلك بأكثر من قرن كامل وذلك لما ترسب فى مخيلتهم من قوة المسلمين واستبسالهم فى القتال .

أما الأتراك فقد ترسبت فى نفوسهم هذه الثقة العتيدة التى لم تستطع معها الهزيمة التى حاقت بهم فى حربهم مع الروس (١٧٦٨ — ١٧٧٤) أن تفيقهم من ذلك الغرور الذى عماهم عما يدور حولهم من أمور ، ولا حتى ما لاحق ذلك من أحداث ، وكأن الدنيا كانت لابد أن تندك على رؤوسهم حتى يفيقوا مما هم فيه .

نعود مرة أخرى إلى الحملة الفرنسية فنقول : إن إعلان إسلامية الحملة كان هدفاً إستراتيجيا لابد منه لقوادها ومرسليها ولكن لعل هناك أمراً آخر كان يدور بمخيلة نابليون نفسه لأن مذكراته التى سجلها فى منفاه بجزيرة (سانت هيلانة) التى قضى فيها نحبه تقول : إنه كان مقتنعاً حقاً بالإسلام ولو من ناحية قوته وعظمته الحضارية على الأقل . يقول الشيخ محمد الغزالى[7] «إن نابليون يتحدث فى هذه المذكرات عن نفسه فيقول : إنه كان مقتنعاً بأن الإسلام هو أصلح قاعدة لبناء أعظم دولة فى التاريخ وإن هذا الإقتناع صاحبه لدى إعداد الحملة على مصر . كانت هذه الحملة — على ما يقول — تمهيداً لإقامة دولة إسلامية يكون هو على رأسها . ويحكى أنه استقدم معه جيشاً من الخبراء والفنيين ليكونوا الجهاز العقلى المدبر لهذه الدولة . وزودهم بوسائل التحضر الحديث ليعينوه على هدفه البعيد (لاحظ أن نابليون لم يشترط لذلك التحضر

---

(٧) الغزو الفكرى يمتد فى فراغنا .

الحديث أن يتخلى الناس عن دينهم . بل كان يعتبر ذلك الدين «الإسلام» أصلح قاعدة يقام على أساسها ذلك التحضر الحديث)[8] .. وقال : أنه أجرى أحاديث مع علماء الأزهر أكدت له أن الإسلام عقيدة وجوهر وليس رسوماً وظواهر .. وأنه يستطيع التدرج فى بناء الدولة التى يؤمن بها ، وإظهار صوتها الإسلامية شيئاً فشيئاً . وقال : إنه كان يعد لإعتناقه الإسلام رسمياً عندما يصل إلى بغداد ، ويعلن إنفصاله عن عقيدته الأولى وأكد أنه قبل حضوره إلى مصر درس الإسلام واطمأن إلى صدق تعاليمه ، واستقرت هذه الطمأنينة فى نفسه ، غير أنه لما فاتح معاونيه بدخيلته وأمانيه إعترضه بعضهم وبين له وعورة الطريق فكان جوابه : إنه فى سبيل المصالح العليا تحول هنرى الرابع ملك فرنسا السابق من العقيد البروستانتية إلى العقيدة الكاثوليكية ولا يوجد ما يمنعه بدوره من التحول إلى الإسلام (من الأكيد أن ما ردع نابليون عن القيام بما كان ينشده هو ما تأكد لديه أن هذه المصالح العليا لا تقوم عند قومه إلا بإسقاط الإسلام نفسه فى الأساس وليس التحول إليه)[9] .. ثم قال : إن القاهرة والإسكندرية أجدر من عواصم أوروبا ، لتكونا على رأس العالم كله» ا هـ .

ولعل ذلك الميل الحقيقى للإسلام عند نابليون هو ما جعله يطمح فى إتقان دوره فى إقناع المصريين بإسلاميته على الأقل . لقد كان نابليون قائداً سياسياً وعسكرياً يهمه فى الأساس تحقيق مصالحه وبناء مجده الشخصى ولا يتصور أبداً أن يضحى بها من أجل أى شيء آخر مادام هذا تفكيره .

ولقد كانت نظرة الجبرتى ثاقبة عندما وصف[10] الفرنسيين بأنهم «لا يتفقون على دين فكل واحد منهم ينحو دينا يخترعه بتحسين عقله»[11] ويقول فى موضع آخر :«ولقد خطب كثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم

---

(٨) مابين القوسين للمؤلف .

(٩) مابين القوسين للمؤلف .

(١٠) تاريخ الجبرتى نقلا عن د. السيد أحمد فرج .

(١١) ، (١٢)، (١٣) المرجع السابق .

ونوالهم ، فيظهر (الفرنسى) حالة العقد ، الإسلام وينطق بالشهادتين ، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها» .

وقد استقبح الجبرتى مستحدثات الفرنسيين كإنفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من المثل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى ، خاصة وقد أبيح البغاء العلنى وسفرت بعض النساء واختلطن بالرجال وتمردت بعض الفئات الإجتماعية على الأوضاع الموروثة وارتدت ما كان محرماً عليها من ملابس وتحدت العرف الإسلامى .

وقد فهم الجبرتى بحاسته الإسلامية أهداف الفرنسيين اللادينية (العلمانية) ولم يكن الجبرتى مسلماً جامداً بل كان يميز بين ما هو نافع ويمكن قبوله ، وبين ما هو ضار ويجب رفضه ، يمجد فى الفرنسيين حبهم للعلم والفن والبحث العلمى ، وحرصهم على نشر العلم والتثقيف بين الناس . ونراه لهذا يصف باهتمام بالغ تلك الحركة العلمية والفنية التى بعثوها فى مصر فيقول[١٢] : «وأفردوا مكاناً للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة» . ولكنه مع ذلك رفض لعبهم بالدين ، فهم الذين زينوا للمصريين ممارسة كل فعل مخالف لدينهم . فعن طريقهم تبرجت المرأة المصرية المسلمة . وسفرت وخرجت ، واختلطت بهم .

والحقيقة فإن الجبرتى لم يرفض كأى مسلم حريص على نهضة مجتمعه كل ما هو فرنسى فقد أقر بأن الفرنسيين وهم دهرية معطلون للميعاد وللحشر منكرون لله وللنبوة والرسالة جاحدون «إلا أنهم كانوا يجتهدون فى الأخذ بأسباب العلوم الحديثة وأنهم كانوا فى حكمهم أقرب إلى العدل من العثمانيين[١٣]» .

وهذا القول الأخير للجبرتى يفضح هؤلاء الذين يتحدثون عن مقاومة الشعب المصرى للفرنسيين على أساس وطنى لأنه لو كان ذلك كذلك فإن

مصلحتهم الوطنية مع الفرنسيين الآخذين بأسباب العلوم الحديثة الأقرب فى حكمهم إلى العدل من العثمانيين مما لا يترك فى النفس شكاً من أن دافع المقاومة الأساسى هو العصبية الدينية . فثورتى القاهرة الأولى والثانية انطلقتا من الأزهر قلعة المقاومة الشعبية وكان من بين الدين أعدموا فى أعقاب الثورة الأولى «ثلاثة عشر من مشايخ الأزهر»(١٤) وقاد الثورة الثانية زعيم العلماء السيد عمر مكرم (الذى كان مبعداً عن مصر أثناء الثورة الأولى) وسليمان الحلبى الفتى المسلم الملتهب الذى «جاء من سوريا خصيصاً لقتله»(١٥) كل ذلك لا يدع مكانا للشك فى أن دافع الثورة الشعبية الوحيد هو الإسلام والذى عمل له قواد الحملة الف حساب وحاق بهم الإخفاق بالرغم من ذلك .

محمد على وأولاده :

وبعد الفرنسيين جاء محمد على ذلك البراجماتى الطموح بلا حدود والذى كان أحد الجنود الذين أشرفوا على الغرق بعد هزيمة حملتهم العثمانية فى موقعة أبى قير البرية فأدرك إدراكا كاد أن يهلكه مدى التفوق الغربى على هذه البلاد .

ولم يكن محمد على سوى «علمانى أراد أن يقيم دولة علمانية»(١٦) كما يقول أرنولد توينبى وفتح محمد على البلاد على مصراعيها للغرب الذين ينشد عندهم القوة اللازمة لتحقيق طموحه وبجيش فرنسى التدريب (الكولونيل سيف الفرنس) وسلاح فرنسى ومشورة فرنسية وخبراء عسكريين فرنسيين استطاع ابنه إبراهيم بك اخماد حركة جماعة الإمام محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية .

ولقد كانت الحركة الوهابية أول حركة فكرية متفجرة فى العصر الحديث فلقد استطاعت أن تدفع بقوة تلك التلال من الأوهام والخرافات التى تراكمت على عقول المسلمين فى عهود الضعف والإنحلال وأعطى ببعثه للمفاهيم

---

(١٤)، (١٥) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج٣ .

(١٦) مجموعة أبحاث عن الجبرتى بإشراف الدكتور أحمد عزت نقلا عن د. السيد أحمد فرج : جذور العلمانية .

العقائدية الراسخة للتوحيد-للمتحمسين من المسلمين صلابة قتالية عنيدة يتحصنون بها وأبرز من جديد وبشكل حاسم المصدرين الاصليين للمشروعية الإسلامية أى الكتاب والسنة .

ما الذى صنع محمد على ؟ .. يتسائل الإمام عبده ثم يجيب عن ذلك قائلاً(١٧) :

لقد رفع الأسافل وأعلاهم فى البلاد والقرى حتى انحط الكرام وساد اللئام .. قالوا إنه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد فهل فكر يوما فى إصلاح اللغة عربية أو تركية . هل فكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين . أين البيوت التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ... هل كانت له مدرسه لتعليم الفنون الحربية — أين هى وأين الذين نبغوا من طلابها فإن وجد أحد نافع فهل هو من المصريين

وقد لا يستحى بعض الأحداث (والكلام مازال للإمام محمد عبده) من أن يقول إن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية من الدين .. فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين .

وهذا العصر الذى تتطاحن فيه حضارات وتشتد الحاجة فيه إلى عملية غربلة دؤوبة لكل ما هو أصيل ووارد كان يحتاج إلى رجال ذوى عقلية متفردة ونشطه ونفوس قوية الإيمان شديدة الإخلاص .

ولم يكن رفاعة الطهطاوى بذلك الرجل المناسب (من ناحية الإخلاص على الأقل) فقد كان «موظفاً كبيراً عايش محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل ورضى عنه معظمهم وأنعموا عليه بالرتب والتشريفات والحقوها بإقطاعات هامة ، حتى ترك لورثته عند وفاته ما يزيد على الألف وستمائة فدان»(١٨) ومن هنا لم يكن لرفاعة أن يقف مواقف لا يرضى عنها الحكام . ولقد

---

(١٧) نقلا عن أحمد حسين : مرجعه السابق ، د. السيد أحمد فرج : مرجعه السابق .

(١٨) د. عزت قرنى : العدالة والحرية نقلا عن د. السيد أحمد فرج : نفس المرجع .

تمت على يديه أهم عملية حاسمة أزاحت الإسلام عن ميدان الحكم فى مصر عندما أنجز قلم الترجمة برياسته ترجمة القانون الفرنسى المدنى والجنائى إلى العربية ١٨٦٣ م والتى الغى إسماعيل على أثرها المحاكم الشرعية فى البلاد وأبدلها بهذه القوانين الوضيعة(١٩).

ولقد عاد رفاعة من باريس مأخوذاً بالغرب وبفكره السياسى المبنى بصفة أساسية على القومية والعلمانية وفى كتابه الأول (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) الصادر سنة ١٨٣٤ نلمح إشارات مبهمة عن القومية المصرية تطفو على استحياء بينما نراه فى كتابة (مناهج الألباب الصادر بعد ثلاثين عاماً فى ١٩٦٩ «يتحدث فى هذا الأمر باهتمام كبير يدل على ما آلت إليه هذه الفكرة من قوة على مدى تطور المفهوم السياسى فى مصر خلال الثلث الثانى من القرن التاسع عشر(٢٠).

ونحن لا نتفق مع الأستاذ عبد الجواد ياسين فى ذهابه إلى أن محمد على لم يكن بقادر على صد الطوفان القادم من أوروبا يحمل رياح الحضارة الغربية، ماديا ومعنويا واقتصاديا وسياسيا وإجتماعياً وعلمياً وثقافياً وذلك لأن الحضارة (كما يقول) لا تقبل مبدأ التجزئة والإنتقاء بحيث أن اختيار جانب من جوانبها يستتبع بطريق اللزوم الحتمى جر سائر الجوانب والفروع ويحدث ذلك عندما تكون الأمة الناقلة هى الطرف الأدنى والجانب الأضعف.

فبالنسبة لمحمد على فإنه لم يكن يملك القدرة العلمية (بمفهومها الواسع) التى تمكنه من التمييز والإنتقاء الحضارى. كما أن الأمر لم يكن يهمه فى قليل أو كثير (وهو الرجل الطامح إلى إتساع ملكه بأية وسيلة) لكى يعمل على صد هذا الطوفان.

أما حكاية مبدأ الحضارة الذى لا يقبل التجزؤ ففضلا عن كونه إدعاء غربياً تكتيكياً فإننا لو سلمنا بشرط الأستاذ ياسين للتجزىء وهو أن يكون الناقل فى

---

(١٩) المرجع السابق: كما يضاف إلى المصائب التى أتى بها رفاعة إباحته لمراقصة الرجال للنساء ولمثل هذا يعتبره العلمانيون رائد النهضة الحديثة فى مصر: المؤلف.

(٢٠) الأستاذ عبد الجواد ياسين.

المركز الأعلى فإن ذلك يؤدى بناء إلى نتيجة حتمية مؤداها أننا لن نقوم من مأزقنا الحضارى أبداً فما دمنا نحن الطرف الأضعف (واقعياً) فليس أمامنا سوى الذوبان في الغرب أو الإنهزام له .

وأهم مروجى هذا المبدأ الخطير هو مؤرخ الغرب الكبير أرنولد توينبى الذى يقول فى ذلك .

وصدقنا نحن دعوى أعداءنا حتى أطمأن الغرب لدوام تبعيتنا وإستعبادنا ، يقول كبيرهم توينى[٢١] : «إن كل حضارة مثل كل طريق أقسامها متداخلة بعضها ببعض[٢٢]» .

ويقول أيضاً : «إن جميع المقومات فى حضارة ما من دين وتكنولوجية لها جذور داخلية ، وإذا تخلى أحدهم عن تكنيكه التقليدى ليتبنى تكنيكا أجنبياً فهذا التغيير الذى يبدو عليه أنه سطحى ، لا يبقى كذلك ، بل يتسرب إلى الأعلى إلى درجة تصبح معها الحضارة التقليدية فى الصف الثانى بينما تشق الحضارة الأجنبية لنفسها شيئاً فشيئاً طريقاً بواسطة الشق الذى خلف خلفه على السطح من الخارج التكنيك الأجنبى» .

ويروج توينبى أن التكنيك الغربى ما هو إلا حصان طروادة الآلى الذى سرعان ما تتفجر منه القوة الكامنة المختبئة للحضارة الغربية فهو بخبث شديد يحاول أن يرسخ فى أذهان أبناء العالم غير الغربى أن عليهم لكى يواجهوا القوة العسكرية الغربية أن يسرعوا بالانضمام إلى الغرب بالكامل والذوبان فيه وإلا أصابهم الفناء بنار أسلحته المتقدمه لقد أراد توينبى بضربه لذلك المثل الأسطورى (أى حكاية حصان طروادة) الذى أملاه الغرور الغربى أن يقنعنا بأمر أسطورى أيضاً وهو أن التطور العلمى جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية ذاتها ، بل انه أراد بمقولته تلك أن تكون هى ذاتها حصان طروادة الذى يستطيع به الغرب أن يفرض هيمنته وسيطرته على كافة شعوب العالم .

---

(٢١) ، (٢٢) الغرب والعالم .

إن العلم الطبيعى فى ذاته هو اكتشاف للقوانين التى سنها الله فى الأرض لتحكم الطبيعة ولهذا فإن هذه القوانين العلمية فى ذاتها ليست حكراً لحضارة من الحضارات ، كما أنها لاترتبط ارتباطاً عضوياً بعقلية فلسفية معينة أو نمط معيشى معين ولكن الذى يرتبط بذلك هو الغرض أو التوظيف المراد منه استخدام تلك القوانين ، وعلى هذا فإن ذلك الغرض أو التوظيف هو الذى يختلف بإختلاف تلك الحضارات والذى يستوجب نقله نقل النمط الحضارى ذاته ، ونستطيع أن نفهم من ذلك كيف أراد توينبى بذلك الخلط بين الأمرين من تركيع لشعوب العالم أمام حضارته الغربية التى ينتمى إليها .

وكما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى(٢٣) : «إن توظيف العلم داخل إطار إيمانى يختلف عن توظيفه داخل إطار دنيوى «علمانى» .

وأفضل الأمثلة التى تضرب على خطأ هذا الزعم هو ما فعله الغرب نفسه فى المقدمات التى سبقت عصر النهضة وقد كان هو الطرف الأدنى والأضعف وقد قام بعملية انتهاء طويلة لمعطيات الحضارة الإسلامية فتلقى ما كان يحتاجه من هذه المعطيات (وخصوصاً فى الجانبين العلمى والتحررى) وصاغه بالطريقة التى تتوافق معه داخل اطاره الفكرى العلمانى .

وكما قلنا سابقاً فإن الأمر يحتاج إلى رجال ذوى عقلية متفردة ونشطة ونفوس قوية الإيمان شديدة الإخلاص هذا بالإضافة إلى المثابرة الدؤوبة التى لاتتعجل النتائج السريعة لهذه العملية من الغربلة .

جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومدرستيهما :

كان السيد جمال الدين الأفغانى شعلة من الحماس المتأجج تستشعر فى كلماته لهيب النار التى تؤرقه من أجل العالم الإسلامى من التحلل والضياع الذى يتعرض له .

---

(٢٣) جريدة الشعب .

وكان أكثر المفكرين المسلمين الذين برزوا فى هذه الفترة وعياً وحسماً فى آرائه عن موقف الإسلام من القضايا السياسية والفكرية التى طرحها الصراع المرير بين الغرب والإسلام فى ذلك الوقت فأعلن حرباً شعواء على أفكار مثل القومية والوطنية والشيوعية (والتى أدخلها فى إطار الدهرية) والإنهزامية أمام التقدم المادى للحضارة الغربية وفى مقال بعنوان (التعصب) يرد جمال الدين الأفغانى) على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع بين شعوبها ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين . ودعى الأفغانى إلى ضرورة الأخذ بعلوم الغرب الطبيعية خصوصاً ما يتعلق منها بمجال التصنيع وكانت أهدافه تتحدد فى «إنها من ما بقى من الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها تحت ظل الخلافة العظمى»[٢٤]

ومما قاله فى شحن قلوب تلاميذه ومريديه فى الثورة على الأوضاع السائدة ويوقظ فيهم روح الحمية والألفة وذلك بما يلقى إليهم بقوله[٢٥].

إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم بحجر الإستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين تعانون لوطأه الغزاه الظالمين تسومكم حكوماتهم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون بل راضون وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضون فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حياة وفى رؤسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون .

وكان أهم ما يميز الأفغانى قدرته العلمية الفائقة والتى تجمع ما بين الدراسة

---

(٢٤) نقلا عن د. محمد محمد حسين : الإتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر .

(٢٥) نقلا عن الأستاذ أحمد حسين .

الإسلامية المتعمقة وثقافته الغربية الموسوعية مع ذكاء حاد نافذ وقد ظهر ذلك جلياً فى كتاباته وعلى رأسها رسالته فى الرد على الدهريين (بعكس ما ذهب إلى إليه جب[٢٦] كعادته فى تحقير الفكرية للمفكرين المسلمين) فقد استطاع أن يوفق فى هذه الرسالة فى الربط بين فكر الدهريين القدامى وفكر المحدثين من الطبيعيين والداروِنيين والماركسيين وبيان موقف الإسلام منها بطريقة تتناسب مع وعى المسلمين فى تلك الفترة والذين كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً عن فكر المحدثين الغربيين . إلا أنه مع ذلك فقد كانت شخصية الأفغانى تتسم بالكثير من الغموض وكان انتماؤه إلى الماسونية[٢٧] أشد الأمور غموضاً ويبدو أن الأفغانى (طريد الديار الأفغانية بعد أن كان وزيراً بها)[٢٨] كان لا يرى غضاضة فى تعضيد قضيته بعقده لمثل تلك التحالفات الغربية .

أما محمد عبده فإن كان لا يقل عقلا وعلماً عن سلفه إلا أن آراه ومواقفه لم تكن فى مثل حسم وصراحة الأفغانى ولعله كان يبدى الرأى فى أمر من الأمور يبغى به هدفا إصلاحياً بعيداً إلا أن هذا الرأى ذاته يكون سلاحاً صالحاً للغاية لطعن الإسلام به فهو مثلا (برغم حرصه على نبذ أى عصبية غير العصبية الإسلامية) تجده يكتب فى تمجيد الوطنية بهدف تحريض المصريين ضد الانجليز فيأخذ العلمانيون ما كتبه مادة صالحة للإستناد عليها فى ترسيخ مفهوم القومية وهو يدافع عن حرية المرأة الشرقية بدافع مشاركة النساء للرجال فى النهضة العلمية والأخذ بأسباب الحضارة فيجد العلمانيون فى كتاباته مادة صالحة للغاية فى تسويغ الإنحلال والفساد بين الرجال والنساء .

لقد كان محمد عبده يريد أن يقيم سدا فى وجه التيار العلمانى اللادينى ليحمى المجتمع الإسلامى من طوفانه ، ولكن الذى حدث هو أن هذا السد قد

---

(٢٦) تجديد الفكر الإسلامي .

(٢٧) راجع د. فرج ، د. محمد محمد حسين .

(٢٨) محمد عبده : جمال الدين الأفغانى ورسالة الرد على الدهريين .

أصبح قنطرة للعلمانية ، عبرت عليه إلى العالم الإسلامى لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر ، ثم جاء فريق من تلاميذ «محمد عبده» وأتباعه فدفعوا نظرياته وإتجاهاته إلى أقصى طريق العلمانية «اللادينيه»[29].

لا على نفعا نضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

ومن أهم ما يذكر للإمام محمد عبده من جهود فى خدمة الإسلام محاوراته وردوده ـــ التى كانت تتسم بالقدرة العلمية والعقلية الفائقة ـــ على أعداء الإسلام واشتهر من بين هذه الردود رده على هانوتو الفرنسى .

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى ما كان يفعله ذلك الأخير من تحريض للدول الاستعمارية على الإسلام : يقول هانوتو[30] فى ذلك :

«إن الإسلام دين وسياسة . وإن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة المدنية أو الوطنية فالوطن عندهم فى الإسلام وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الالوهية فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون . ثم أشار (هانوتو) إلى نجاح فرنسا فى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى تونس . وقال إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الإنقلاب العظيم بلباقة وحذق . دون أن تثير ضجيجاً أو تذمراً فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس وتسربت الأفكار الأوربية بين السكان بدون أن يتألم منهاالإيمان المحمدي وبذلك انفصم الحبل بين هذا البلد وبين البلاد الإسلامية الأخرى شديدة الاتصال بعضها ببعض .. ودعا فى أخر مقاله إلى أن تتخذ تونس مثالاً يقاس عليه ونموذجا ينسج على منواله» .

أما فتاويه العصرية فكانت أقرب إلى الإستسلام إلى مفردات الحضارة الغربية منها إلى الإجتهاد فالذى يبيح لبس البرانيط فى تلك الظروف الاستعمارية ويفتى بإباحة فوائد البنوك والتماثيل والاستعانة بالأجانب فى تربية أيتام المسلمين

---

(٢٩) نقلا عن محمد بن إسماعيل : عودة الحجاب : ج١

(٣٠) د. محمد محمد حسين : نفس المرجع .

ويصفهم بالأفاضل ويصف الذين يكفرونهم أو يضللونهم بأنهم هم الذين تعدوا حدود الله وخرجوا على أحكام .. دينه القويم فإنه يوفر بذلك على العلمانيين مجهوداً كبيراً فى اكساب آرائهم قسطاً كبيراً من الشرعية .

براثن الماسونية فإن محمد عبده كمفتى للديار ما ظل هو ممثلاً للسلطات البريطانية فى مصر . وكذلك علاقته الوثيقة بالأميرة شاهيناز وامتداحه لها وكانت تمثل فى تلك الفترة واحة التجمع العلمانى والمصريين المتفرنجين من أمثال لطفى السيد وقاسم أمين وفتحى زغلول .

دور الصحافة والتبشير :

« وظهرت فى تلك الفترة الصحف المعادية للدول العثمانية والتى تؤيد الاحتلال البريطانى مثل صحيفة المقطم المصرية وغيرها وظهرت الصحف التى تساند فرنسا ضد الإحتلال البريطانى مثل الأهرام »(٣١) .

وكانت هذه الصحف ترتبط أيضا بالأرساليات التبشيرية والتى ترتبط بنقل المفهوم العلمانى الغربى إلى البلاد التى حرصت على إحتوائها فأصحاب المقطم الثلاثة (فارس نمر ، يعقوب صروف ، شاهين مكاريوس) تربو فى الكلية الأمريكية فى بيروت وكان أولهم (فارس نمر) قد تزوج فى ١٩٨٨ من ابنة قنصل بريطانيا السابق فى الإسكندرية وكذلك الأهرام والوطن والجهاد وكوكب الشرق والسياسة الاسبوعية والمقتطف والهلال والمسجلة الجديدة كانت تعمل فى خدمة النشاط التبشيرى فى البلاد » (٣٢).

مدرسة لطفى السيد :

وبنهاية رياده الإمام محمد عبده للفكر برز التباين الشديد من أتباعه ومريديه فى الفكر فانقسموا إلى جناحين الجناح العلمانى ويمثله قاسم أمين وأحمد لطفى

---

(٣١) د. عواطف عبد الجليل : التبعية الإعلامية .

(٣٢) د. خالد نعيم أرساليات التبشير .

السيد وسعد زغلول وفتحى زغلول وغيرهم . والجناح الإسلامى ويمثله رشيد رضا وشكيب أرسلان ومصطفى كامل وعبد العزيز جاويش .

« وتجمع أغلب الجناح العلمانى تحت راية حزب الأمة الذى سرعان ما أصبح حزب الوفد بعد ذلك »(٣٣).

ولابد أن تقدم نبذة تاريخية صغيرة عن هؤلاء « الذين جردوا الانتماء الوطنى من أى روافد دينية متأثرين فى ذلك بدوافع علمانية قوية »(٣٤) .. لقد حمل الخديو إسماعيل الذى مهد للانفتاح على أوروبا وتحويل مصر كما جاء فى مقولته الشهيرة إلى « قطعة من أوروبا » عمل ذلك الخديوى على « تكوين طبقة من الباشوات الفلاحيين الوطنيين تختلف عن طبقة الباشوات الذين صنعتهم الدولة العثمانية يأتمرون بأمره ولا يعصونه وكان من هؤلاء :

١ ــ محمد شريف باشا الذى تقلد رياسة الوزارة .

٢ ــ محمود حمدى الفلكى وعين وزيرا للمعارف .

٣ ــ على باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين .

٤ ــ إسماعيل باشا الفلكى .

وكانوا - همزة الوصل بين الخبراء الفرنسين فى مصر فى النوادى والحفلات والجمعيات الخاصة وبين الخديوى إسماعيل ثم توفيق ابنه الخديوي ثم حفيده عباس حلمي الثاني ولم يؤثر عن هؤلاء وأمثالهم الانتماء في أي شكل من الأشكال إلى الثورة العرابية .

ولكن الظروف السياسية التى أدت إلى احتلال البلاد أحدثت تغييرا كبيرا فى وضع هذه الطبقة فالاحتلال الانجليزى لم يشأ أن يقضى عليها .

ولكن شاء أن يعدها إعداداً جديدا يساير خططه المتجددة عملا بنصيحة

(٣٣) د. محمد محمد حسين : نفس المرجع

(اللورد كرومر الذى أكد : أن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوربيين لا يقوى على حكم مصر . لذلك سيكون المستقبل للمصريين المتربيين تربية أوربية .

ـ عمل الأستعمار الانجليزى إذن ـ على تأكيد وتدعيم الطبقة الجديدة لتكون أهم طبقة فى المجتمع واهتدى الانجليز إلى رجلين قديرين من أكفأ رجالهم ليقوما بإعداد هذا العمل وهما وليم ويلكوكس ـ وأرنست كابل (وكان ويلكوكس يغنى من يشاء بغير حساب» على ما فعله فى كتابه « ستون عاماً فى الشرق » ... وصارت تلك الطبقة تعرف بإسم أصحاب المصالح ومن أبناء هذه الطبقة حكم مصر سياسيا سعد زغلول باشا وثقافيا (أحمد لطفى السيد باشا) .

ـ وكان أستاذ الجيل (أحمد لطفى السيد) الذى حفظ القرآن وجوده فى بدء طفولته بدأ يدعو لداروين ويترجم السياسة لأرسطو وينادى بنبذ الإسلامية بل والعربية أيضا لأن العربية هى قاعدة الإسلامية وركيزتها متعللاً بأن المصلحة لن تعود على المصريين إلا بنبذها .

ـ وكان من أسوأ ما جاء فى جريدة لطفى السيد استنكاره للحركة الحاضرة بمصر لأن إعانة ليبيا على حرب إيطاليا عند احتلالها قد ظهرت بشكل الجهاد الدينى .. وهذا خطأ ضار بمصر .

ـ وعمل لطفى السيد بكل طاقته لحذف فكرة الإسلامية من أذهان المسلمين وكان يقدم مصر كمثل فى هذا المجال فيقول إن أول معنى للقومية المصرية وتحديد الوطنية المصرية والاحتفاظ والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه والانجليز على قوميته لا أن نجعل أنفسنا وبلاداً أخرى (على المشاع) وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الإسلامية تلك الجامعة التى يوسع بعضهم معناها فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم »(٣٥) .

ولا أدرى هل كان الإسلاميون حتى ذلك الوقت لا يعون مدى المفارقة بينهم وبين أصحاب الفكر العلمانى ونأكد الأخطاء التى وقع فيها الإسلاميون

---

(٣٤) د. يونان لبيب : تاريخ الاحزاب المصرية .

(٣٥) د. السيد أحمد فرج : جذور العلمانية .

فى تلك الفترة هو عدم وضعهم للنقاط فوق الحروف فى الجدل الذى أثير حول القضايا السياسية والفكرية التى طرحت فى ذلك الوقت مثل (القومية ــ الوطنية ــ العروبة ــ تحرير المرأة ــ الدعوة إلى التجديد والإنفصال عن القديم) وذهب فيه العلمانيون إلى تلك المواقف المتطرفة فى عدائها للإسلام . وظلوا يجادلونهم طيلة هذه المدة على أساس الأصلح فى ميزان العقل أو على أساس أن الصالح للأمة هو أن تأخد برأى الإسلام فى كذا وكان يتحتم عليهم أن يقيموا موقفهم على أساس أن تلك الآراء المطروحة حول هذه القضايا تتناقض مع الإسلام تناقضاً بينا وأن المسألة المحورية التى ينبغى أن تطرح هى : الإسلام أو اللا إسلام . لأنه قد حدث جراء تهاونهم فى أخذ موقف حاسم إزاء تلك الآراء أن اكتسبت – على الأقل – شرعية عدم الخروج على الإسلام وترك الباب مفتوحاً أمام العلمانيين للطعن فى الإسلام بنفس تلك الأساليب .

وكان هؤلاء العلمانيون يحققون بأقلامهم الأهداف التى كان يبغى تحقيقها المستعمرون بقوة السلاح .

لقد كان الجندى الإيطالى ينادى بأعلى صوته ، حين كان يلبس بدلة الحرب للقتال فى بلاد الإسلام : « أماه ... أتمى صلاتك .. لا تبكى .. بل اضحكى وتأملى .. أنا ذاهب إلى طرابلس .. فرحاً مسروراً .. سأبذل دمى فى سبيل سحق الأمه الملعونة .. سأحارب الديانة الإسلامية .. سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن[٣٦] .

يقول أيوجين روستو رئيس قسم التخطيط فى وزارة الخارجية الأمريكية ومساعد وزير الخارجية الأمريكية ، ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧ . يقول[٣٧] : «يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب ، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية .. والحضارة المسيحية» .

ويقول بأترسون[٣٨] سمث فى كتابه (حياة المسيح الشعبية) : « باءت الحروب الصليبية بالفشل ، لكن حادثاً خطيراً وقع بعد ذلك حينما بعثت انجلترا بحملتها الصليبية الثامنة ، ففازت هذه المرة ! وحملة للنبى على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى هى الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة » .

لذلك نشرت الصحف البريطانية صورة للنبى وكتبت تحتها .. عبارته المشهورة التى قالها[٣٩] عند فتح القدس :

« اليوم أنتهت الحروب الصليبية » .. ونشرت هذه الصحف خبراً آخر يبين أن هذا الموقف ليس موقف للنبى وحده بل موقف السياسة الانجليزية كلها قالت للصحف : هناك يد جورج وزير الخارجية البريطانى والجنرال اللنبى فى البرلمان البريطانى ، لاحرازه النصر فى آخر حملة من .. الحروب الصليبية ، التى سماها يد جورج الحرب الصليبية الثامنة ..

فالجنرال غورو عندما تغلب على جيش ميسلون خارج دمشق توجه فورا إلى قبر صلاح الدين الأيوبى عند الجامع الأموى ، وركله بقدمه وقال[٤٠] له : « هاقد عدنا ياصلاح الدين»

ويؤكد صليبية الفرنسيين ما قاله مسيو بيدو وزير خارجية فرنسا عندما زاره بعض البرلمانيين الفرنسيين وطلبوا منه وضع حد للمعركة الدائرة فى مراكش أجابهم[٤١] : «إنها معركة بين الهلال والصليب» .

ويقول لورانس براون[٤٢] :إن الإسلام هو الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى .. ويقول عنها دستون رئيس وزراء بريطانيا سابقا : مادام

(٣٦) ، (٣٧)، (٣٨)، (٣٩)، (٤٠)، (٤١)، (٤٢)، (٤٣) : نقلا عن الأستاذ جلال العالم : دمروا الإسلام أبيدوا أهله

هذا القرآن موجودا فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق .

ويقول الحاكم الفرنسى[٤٣] فى الجزائر فى ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر إننا لن ننتصر على الجزائريين مادام يقرؤن القرآن ويتكلمون العربية فيجب أن نزيل القرآن العربى من وجودهم ونقتلع اللسان العربى من السنتهم .

ـ كان يحدث ذلك فى الوقت الذى كان يحيك فيه لورانس خديعته الكبرى وهو يمهد لسقوط الخلافة العثمانية والاستعمار الانجليزى لسوريا وغيرها من بلاد المسلمين يقول لورانس[٤٤] : «وأخذت طول الطريق أفكر .. وأتسائل : هل تتغلب القوميات ذات يوم على النزعة الدينية» وهل يغلب الاعتقاد الوطنى الأعتقاد الدينى ، وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحى والإلهام وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الدينى بمثلها الأعلى الوطنى ، هذا ما كان يجول بخاطرى طول الطريق .

وبعد ثورة ١٩١٩ (صاحبة الشعار العلمانى الشهير : الدين لله والوطن للجميع)[٤٥] أبيح لكل الأفكار العلمانية والليبرالية أن ترعى فى مصر وتمرح وأصبح لكل فكر وافد ملتقطوه»[٤٦] . وبسقوط الخلافة العثمانية بدأت موجة أكثر حدة فى الهجوم على الإسلام وكان من أبرز معالمها صدور كتاب الإسلام وأصول الحكم«لعلى عبد الرازق ذلك الكتاب الذى اعتمد فيه مؤلفه على آراء المستشرفين اعتماداً كبير حتى ذهب البعض إلى أن مؤلف الكتاب هو أحد المستشرقين وأن اسم المؤلف (الذى لم يعرف عنه قبل أو بعد ذلك القدرة على التأليف) استخدم فقط للتمويه .

---

(٤٤) نقلا عن د. محمد محمد حسين : الإتجاهات الوطنية .

(٤٥) مابين القوسين للمؤلف .

(٤٦) د. السيد أحمد فرج : نفس المرجع .

ويدور كتاب المؤلف كله حول هدم فكرة الخلافة كنظام إسلامى فى الحكم ليصل من ذلك إلى النتيجة التى ضم بها كتابه حين انكر أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعا من الدين فى شىء ووصفها بأنها خطط دنيوية صرفة ، لا شأن للدين بها . فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها . وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الامم وقواعد السياسة وقد حاول المؤلف أن يصل إلى هذه النتيجة من كل طريق فذهب إلى أن : كل ما جرى فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة الخ لا يدل على شىء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر ـــ ص ١٩ .

ويرفض المؤلف اعتبار نظم الإسلام وتشريعه فى العقوبات والحبس والجهاد والبيع والرهن وغير ذلك مظهراً للحكومة فيقول «ولكنك إذا تأملت وجدت أن كل ما شرعه الإسلام وأخذ به النبى المسلمين ، من أنظمة وقواعد وآداب ، لم يكن فى شىء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسى ، ولا من أنظمة الدولة المدنية . وهو بعد إذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءاً يسيراً مما يلزم لدولة مدينة من أصول سياسية وقوانين ـــ ص ٨٤ » .

طه حســـين :

وكان أكثر تلامذة لطفى السيد (أستاذ الجيل الذى يقال أن الرئيس عبد الناصر تمنى أن يوليه رئاسة الدولة) هما د . طه حسين وسلامة موسى وهذا الأخير لا يهمنا كثيراً فى عدائه الطبيعى للإسلام لإنتمائه الدينى المغاير ، وإنما الجديد بإبراز أرائه هنا هو د . طه حسين الملقب بعميد الأدب العربى والذى كان من أكثر الناس نقمة على اللغة العربية ودينها وأزهرها ويرون أن أول شىء فعله الدكتور طه حسين بعد أن أن أستقر على ظهر الباخرة التى تحمل البعثة العلمية المتجهة إلى فرنسا هو أن خلع زيه الأزهرى وألقى به فى البحر وارتدى زيا أفرنجيا بدلاً منه(٤٨) .

(٤٧) د. محمد محمد حسين : نفس المرجع .
(٤٨) الأستاذ أنور الجندى : رجال أختلف الرأى فيهم .

ابتدا طه حسين معركته الأولى مع الإسلام بكتابه فى الشعر الجاهلى الذى ظهر سنة ١٩٢٦ بعد أن ألقاه صاحبه على طلبة السنة الأولى فى كلية الأداب خلال العام الدراسى المنصرم . يقول طه حسين[٤٩] فى هذا الكتاب:

«إن الذى يدرس الادب يجد نفسه أمام واحد من منهجين أما ان يقبل فى الادب وتاريخه ما قاله الأقدمون مطمئنا إليه ، وأما أن يضع علم المتقدمين كله موضع البحث ». ثم يقول : «والفرق بين هذين المذهبين فى البحث عظيم ، فهو الفرق بين الإيمان الذى يبعث على الاطمئنان والرضا ، والشك الذى يبعث على القلق والاضطراب ، وينهى فى كثير من الأحيان إلى الانكار والجحود» . ثم يقول : «والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذى يذهبه المجددون عظيمة جليلة الخطر ، فهى إلى الثورة الأدبية اقرب منها إلى أى شئ آخر .. فهم قد ينتهون إلى تغير التاريخ ، أوما أتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها ، ويقوم المؤلف بعد ذلك بين يدى القارئ ما إنتهى إليه من أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شئ ، وأنها إنما وضعت فى العصور الإسلامية المتأخرة ».

يقول الدكتور محمد محمد حسين[٥٠] فى عرضه لهذا الكتاب : « ويستطرد المؤلف بعد ذلك إلى ذكر إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — دون أن تدعو إلى ذلك حاجة ظاهرة ، أو ضرورة ملزمة ، فيتناولها بكلام لا يوصف بأقل من إنه كفر بكتب الله ورسله يؤدى إيمان المؤمنين ، ويفسد عقائد صغار الطلاب الذين القى عليهم . فيقول مثلا : «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنها أيضا . ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربه فيها . ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين العرب واليهود من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى »

(٤٩) نقلا عن د. محمد محمد حسين : نفس المرجع .

(٥٠) الإتجاهات الوطنية .

ويرى المؤلف أن هذه القصة قد اخترعت لتدعيم وجهة نظر الإسلام فى الخلاف الذى كان قائماً بينه وبين الوثنية الجاهلية . ثم يقول : «واذن فليس هناك ما يمنه قريشا من أن تقبل هذه الاسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم ، كما قبلت روما قبل ذلك ، ولأسباب مشابهة ، اسطورة أخرى ضد اليونان تثبت أن روما متصلة بايزياس بن بريام صاحب طروادة . أمر هذه القصة إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب دينى . وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضا» .

« وواضح من كلام طه حسين الذى قدمنا أمثلة منه جرأته على الدين ، وخطره على الناشئين ، وإستهانته بما قرره القرآن من صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وبنائه الكعبة ، مما لا يرتفع عنده إلى أكبر من مرتبة الاساطير التى خلقها اليونان والرومان »(٥١).

وينتهى الكاتب من مؤلفه إلى نتيجة فحواها « أن الشعر المنسوب لهذا العصر لا يمثل الحياة الدينية أو العقلية أو الاجتماعية فيه »(٥٢).

ومن خلال كتاب مستقبل الثقافة فى مصر خاص الدكتور طه حسين معركته الثانية ضد الإسلام بعد أن أكسبته معركته الأولى مهارة فائقة فى التحايل والتمويه على المقاصد الحقيقية من كتابه الجديد ، يقول د . طه حسين(٥٣) فى ذلك الكتاب الذى ظهر سنة ١٩٣٨.: « أن سبيل النهضة واضحة بينه مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى : أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب» .

« أن العقل المصرى منذ عصورة الأولى عقل تأثر بالبحر الأبيض المتوسط .. وأن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط ».

ويزعم المؤلف فى الفقرة الثالثة من كتابه أن «وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ، ولا قواما لتكوين الدول» .

ويقول فى اللغة العربية أخيراً :

« إن اللغة العربية عسيرة ، لأن نحوها مازال قديما عسيراً ولأن كتابتها مازالت قديمة عسيرة ».

الإمام حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين :

وبين هذا اللهيب العلمانى الذى كان يحصد عقول الناس بل وفوقه أسس الإمام حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين . ويمثل فكر الإمام حسن البنا بل والواقع الذى صنعه طفرة كبيرة بالنسبة لسابقيه وأبسط ما يقال عنه من هذا المنظور أنه وضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لوجهة نظر الإسلام فى كل القضايا السياسية والفكرية المطروحة ولم يقبل الإمام الحديث إلا عن الإسلام فقط واستطاع أن يصنع الأصول الأيديولوجية السياسية والفكرية للإسلام فى العصر الحديث .

ومما لاشك فيه أن النضج الفكرى المبكر لدى الإمام حسن البنا أمر يثير الحيرة عند الباحثين فهو لم يقع فى مثل ما وقع فيه أسلافه من زلات ولم يأخذه مثل ما أخذهم من حيرة وتردد أمام الحضارة الغربية الزاحفة هذا فضلا عن أنه كان خلافهم زعيما شعبيا لا يبارى إستطاع أن يغزو المدن والقرى والنجوع بالإسلام العملى الجماعى ولم يكتف بمجرد الاجتهاد فى طرح الإسلام السياسى والفكرى المعاصر مثلما فعل سابقوه . وكأنه كان يرى أهدافه أمامه فى وضوح شديد فيتجه إليها كالسهم دون أن يعرج شمالاً أو يميناً .

ثم جاء تلامذته من بعده فأقاموا فوق هذه الأصول الأبنية الفكرية المتكاملة لرؤية الإسلام السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى العصر الحديث . ولم يعد الإسلاميون فى حيرة حول موقف الإسلام مما يطرحه الصراع المتطاحن بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامى من قضايا معاصرة .

ولأن الإمام حسن البنا كان يبذل من الجهد ما ينوء به العصبة أولى القوة من الرجال فى سبيل نشر دعوته الإسلامية فقد استطاع أن يجسد مساعيه فى بنيان جماعى من البشر لم تستطع عواصف المؤامرات الاستعمارية الدولية زعزعته عن مكانه . ولقد استطاع الإخوان المسلمون بالتعاون مع الأزهريين أن يقيموا سداً منيعاً فى مواجهة الهجمات العلمانية الشرسة على الإسلام وبرز منهم من المفكرين الأستاذ سيد قطب والشيخ محمد الغزالى والشيخ القرضاوى والدكتور محمد سعيد رمضان البوطى وكثيرون غيرهم .

ومع بداية عصر الثورة الإشتراكية بدأت الكتابات العلمانية تتخذ شكلاً صريحاً فى موقفها العدائى من الإسلام وعلى الرغم من علو نجم مفكرين علمانيين من أمثال د. لويس عوض ود. عبد الرحمن بدوى إلا أنه لم تعد للمفكرين بوجه عام المكانة الأولى فى التوجيه خلال تلك الفترة التى شهدت حكم الرئيس جمال عبد الناصر . لقد خلت الساحة للسياسيين وكبار الصحافيين ليلعبوا الدور الأساسى فى تحريك الأمور على أن دورهم فى الحقيقة لم يكن يتعدى سوى الترديد الإعلامى لشعارات الثورة وبطبيعة الحال كان المفهوم الإشتراكى السائد (والذى يطلقون عليه الناصرية) ينطوى من الناحية الأيديولوجية إما على المنظور الفلسفى الماركسى أو على السذاجة والتى ترتبط إرتباطاً حتميا بتبنى سياسة ثورية قائمة على الشعارات ولعل ذلك مايشكل للإسلاميين رادعاً كبيراً على عدم التسرع فى ضم الكثير من الناصريين إلى نفس الموقع الفكرى الذى يقف فيه العلمانيون . وكان الزمن زمن عاطفة تراجع فيه الفكر وأخذ دوره الأدب وهو الأمر الذى يتفق مع الهياج الثورى وإن يكن التمرد الأدبى الجديد على يد المدرسة الواقعية كان أبعد شططا من التمرد الأدبى للمدرسة الرومانسية التى غالباً ماكانت تثوب إلى رشدها مؤمنة بعكس الأولى التى إرتبط أغلب إنتاجها الأدبى بالإلحاد سواء كان ذلك بشكل سافر أو مضمر – ومن خلال الأدب والشعارات السياسية فى العهد الناصرى إستطاع

(٥١) د. محمد محمد حسين المرجع السابق . (٥٢) نقلا عن المرجع السابق

الفكر القومى أن يحتل المكانة المبوءة للفكر الإسلامى ليس فقط فى عقل النخبة والمثقفةولكن فى عقل الجماهير أيضاً وتحت ضغط الإضطهاد الذى لاقته جماعة الإخوان المسلمين(٥٤) وفتح الباب على مصراعية للفكر الغربى الإلحادى الإباحى كاد الناس أن ينسلخوا من دينهم وماتبقى لديهم من قيم تحت على التواضع والمساواة والتعاون نسبوه إلى الإشتراكية التى طالما ردد روادها هذه الشعارات بينما كانت حياتهم فى واد آخر منها وكان من الطبيعى جداً أن يضطهد الإخوان فى ذلك العهد بصرف النظر عن صدق أو كذب مانسب إليهم من تمرد وإنقلابيه وذلك لحقيقة ماقيل عنهم فى ذلك الوقت « أن فكرتهم ومثاليتهم لاتزال تمثل أعمق مطامح المسلمين من المغرب إلى أندونيسيا »(٥٥) كما أن الحقيقة المخيفة التى تفرض نفسها هى « أن الحركات الإسلامية هى وحدها الأصيلة فى تمثيلها مطامح أهل هذه المنطقة فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والإشتراكية والشيوعية كلها أوروبية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها فى الشرق الأوسط ، والمنظمات الإسلامية هى الوحيدة التى ينبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقه »(٥٦) .

وقد سمح الرئيس السادات (أياً كان غرضه الحقيقى من ذلك) للحركات الإسلامية بوجه عام أن تتقدم تقدماً زاحفا فى عهده واستطاعت من خلال الجماهير التى استعادت مكانتها الأصيلة فى قلوبها أن تمثل ضغطاً كبيراً على الأقلام العلمانية التى كانت تجهر فى تبجح بمواقفها العدائية من الإسلام ومنذ ذلك العهد وقد أخذت هذه الأقلام تقدم تلك الصيغة التمويهية فى ترديد الشعارات العلمانية الكاذبة مع إعلان إخلاصها للإسلام الذى إنفردوا بفهمه دون سواهم وإن كانوا علماء الأزهر الشريف وهو مايعنى فى الحقيقة تفريغ الإسلام من محتوياته وملأ إطاره الذى إستبقوه للزينة والتضليل – بالمفاهيم الفلسفية العلمانية الملحدة وقد بدى التناقض صارخاً فى بعض المواقع بين

(٥٤) راجع فى تاريخ الخلاف بين عبد الناصر والإخوان : الإسلام هو الحل للأستاذ جمال البنا و٢٥ عاماً فى جاعة للأستاذ حسن .

(٥٥) ، (٥٦) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط .

الأدعاء الكاذب بالولاء للإسلام وما يحدث من هجوم وقح على الإسلام ومفرداته وانصاره على النحو الذى يفعله أطفال الحزب الشيوعى المصرى الديماجوجيون (الغوغائيون) حتى بلغ بهم الأمر التنديد المستمر بالمجاهدين الأفغان الذين أيدهم فى جهادهم العالم كله تقريباً بما فيه أغلب الأحزاب الشيوعية الأوروبية ، ولكن أسوأ مافى الأمر أنه قد حدث منذ ذلك العهد أن المفاهيم الإسلامية نفسها وماتحمله من مبادى وقيم قد تعرضت للكثير من الخلط والتشوه والإلتباس على يد المفاهيم البراجماتية الأمريكية الغازية . وهو ماسبق أن تعرضنا له فى كتاب « **الإسلام النفعى** » .

وسنعرض فى الباب القادم مناقشة صريحة لإثنين من أهم أعلام العلمانيين المعاصرين مركزين على دحض منهجهم الجديد الذى إلتجأوا إليه فى هذا العصر .

الباب الخامس

مناقشة صريحة لأفكار أهم علمين من أعلام العلمانيين

أولا : الدكتور زكى نجيب محمود

يصف الدكتور زكى نجيب محمود نفسه فى مقدمة كتاب (تجديد الفكر العربى) فيقول إنه : «واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبى — قديم أو جديد — حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ولبثت هذه الحال مع الكاتب أعواما بعد أعوام» .

وبعد أكثر من أربعين عاماً من التشكيل الغربى للفائف عقله أراد لكى يوائم!؟ بين ذلك الفكر وبين التراث لماذا ؟ لكى لاتفلت منا عروبتنا ! (كما يقول) . ولكن كيف حدث ذلك ؟ يقول[1] . «استيقظ صاحبنا (يقصد نفسه) بعد أن فات أوانه أو أوشك فإذا هو يحس لحيرة تؤرقه فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة ، التى قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث آبائه إزدراد العجلان كأنه سائح يمر بمدينة باريس ، وليس بين يديه إلا يومان ، ولابد له خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة إلى غرفة يلقى بالنظرات العجلى هنا وهناك ليكتمل له شىء من الزاد قبل الرحيل» .

فهل من الممكن أن يكون من الموضوعية أن يحاكم الإسلام بمعايير غربية ترسخت فى ذهن صاحبها على امتداد أربعين سنة وأن تحدث هذه المحاكمة فى عجالة سريعة سبعة أو ثمانية أعوام كل ذلك بغرض أخذ شىء منه (على أساس

(١) ، (٢) تجديد الفكر العربى

كونه تراثاً[٢])يتوائم مع الفكر الغربى للحفاظ على عروبتنا .

فماذا للإسلام فى كل هذا الكلام وما ذنبه أن فلانا من الناس لا يقدره قدره فيعامله على عجالة بينما يقف من الفكر المعادى له موقف العبودية لعقود طويلة وهل يحق لمن يكون هذا منهجه أن يضطلع بدور المجدد للفكر العربى ؟!؟! .

من البدأ لابد أن نعرف الموقع الذى يتحرك منه هذا الكاتب وهو كما هو معروف للجميع ينتمى إنتماء جذرياً للفلسفة المنطقية الوضعية فماذا تقول هذه الفلسفة ؟ وما هو موقفها من الدين بوجه خاص ؟ سنتركه هو يجاوب عن ذلك . يقول الدكتور زكى[٣]: « يرى المذهب الوضعى على يدى(أوجست كونت» وجوب الوقوف بمحاولاتنا نحو معرفة العالم الخارجى عند حدود الظواهر التى يمكن مشاهدتها واقامة التجارب عليها واستخراج قوانينها العلمية القائمة على علاقة السببية ، أما أن نجاوز الطبيعة المتظورة إلى ما وراء الطبيعة الغيبى فتلك محاولة غير مشروعة ولا عناء فيها ، إن جاز للاسبقين فى مرحلة الطفولة البشرية أن يحاولوها فلا يجوز ذلك لنا نحن الذين نعيش فى عصر العلم ودقته .. وللمذهب الوضعى شعبة حديثة معاصرة تسمى بالمذهب الوضعى المنطقى مؤداها أن ما يجاوز حدود الخبرة الحسية ليس هو كما ظن «أوجست كونت » وكما ظن « كانت » متعذر المعرفة على الإنسان لقصور أدوات المعرفة عند الإنسان ، وأنه لو كان مزودا بوسائل أخرى للمعرفة غير وسائله الحالية لجاز أن يكون فى مستطاعه معرفة ذلك العالم الأسمى ، بل هو مستحيل المعرفة بحكم تحليل اللغة نفسها التى يستخدمها من يتحدثون عن ذلك العالم الذى يجاوز حدود الخبرة الحسية الممكنة ، إذ أن تحليل تلك العبارات تحليلا منطقيا يبين أنها عبارات بغير معنى» ... أما «الوضعيون المنطقيون» إذا سئلوا عن رأيهم فى عبارة كهذه ، رفضوها لأن التحليل المنطقى لاجزائها وطريقة تركيبها يبين أنها بغير معنى ، فلا يجوز قولها لا لأنها فوق مستوى العقل ، بل لأنها عبارة فارغة » . ...

(٣) نظرية المعرفة

وبمثل هذا المنطق وبمثل هذه المعايير جاء يحاكم الإسلام على أساس أنه مجرد تراث لابد من الإحتفاظ ببعضه لكى نحفظ لعروبتنا شيئاً من الأصالة كما يقول : لقد نظر إلى خصائص شخصيتنا فوجد فيها ثلاث خصائص إذا سلمنا بالأولى كان لزاماً أن نسلم بما يليها وأولى هذه الخصائص هى نظرتنا الثنائية الحادة إلى السماء والأرض إلى الروح والجسد إلى الغيب والواقع تلك النظرة التى تجعل الطرفين فى إنفصام تام ويكون للطرف الأول دائماً السيادة المطلقة وللطرف الثانى الإنقياد والتسليم . والثانية أن قوانين الأشياء والظواهر فى الطبيعة قد تطرد أو لا تطرد دون التقيد بقوانين العلم والثالثة أن قوام الأخلاق عندنا هو الواجب لا السعادة وهذا الكلام سليم تماماً إذا فهمنا أن الدين الذى يتحدث عنه الكاتب هو المسيحية الغربية التى لا يستطيع فى سنواته العجلى أن ينزعها من مخيلته أما الإسلام فإذا كان لا يستطيع أن يراه فلنحيله إلى أحد أبناء الحضارة الغربية التى يعتز بها مثل جارودى فى (وعود الإسلام) أو إلى الدكتورة زيغر يدهونكه فى (العقيدة والمعرفة) والتى لم تسلم بعد — وكلاهما يتحدث عن الفرق بين الإسلام الذى ألغى هذه الثنائية والمسيحية (الأرسطو أفلاطونية) التى رسخت هذه الثنائية وعمقت المسافة بين طرفيها .

ونفس الأمر ينطبق على الخصيصة الثانية اما الثالثة فهو يرفض نفس المفهوم الدينى للأخلاق ويضع بدلا منه المفهوم البراجماتى لها الذى يجعل الهدف النهائى من الأفعال هو السعادة أو بقول أدق (لو أراد الدكتور) المنفعة وهو ما يعنى هنا إدخال القيم الأخلاقية نفسها فى مجال المتغيرات (وارجو من القارىء أن يحتفظ معى بهذه الملحوظة الهامة) لأن الواجب يحدد موقفاً أخلاقياً معيناً أما مفهوم تحقيق السعادة (المنفعة) فهو يقتضى تغير الموقف الأخلاقى بحسب النتائج المتحققة والتى يجب أن تستهدف السعادة سعادة من لا أحد يعرف وسوف نتعرض لهذا الأمر بالشرح فى حديثنا عن الفلسفة البراجماتية .

ولهذا الموقف الذى يستدعى فيه الدكتور إلى ذهنه صورة أوروبا فى القرون الوسطى يقول[٤] : «إننا فى حياتنا الثقافية مازلنا فى مرحلة السحر التى تعالج

الأمور بغير أسبابها الطبيعية وإننا لولا علم الغرب وعلماؤه لتعوت حياتنا الفكرية على حقيقتها ، فإذا هى حياة لا تختلف كثيراً عن حياة البدائى فى بعض مراحلها الأولى» إنها ياسادة حالة حادة من الإنسلاب النفسى أمام معطيات الغرب .

هناك قصة مشهورة فى التاريخ الإسلامى يسردها المؤرخون دائما على أنها رمز للجهاد الفكري في الحضارة الإسلامية وعلى الإستماتة في الحفاظ على حقائق القرآن والسنة من عبث العابثين أو تدخلات الحكام تلك القصة هى مواجهة الامام أحمد للقائلين بخلق القرآن وعلى رأسهم الخليفة المأمون وكيف كان إصراره الفريد على موقفه برغم الإضطهاد وقد يمثل هذا الموقف الذروة فى جهاد أئمة المسلمين من أجل استقلال حقائق الدين عن آراء الحكام .

لكن الدكتور زكى نجيب محمود بعد سرد هذه القصة أراد أن يستدل بها على أشياء على النقيض التام من كل ما سبق ويقول الدكتور(٥) معلقا على تلك القصة : لا ، لم يكن فى ساحة الفكر عن الأسلاف «حوار» حر إلا فى القليل النادر ، وفى مواقف لم تكن بذات خطر كبير على سلطة الحاكم ، وكيف يكون والحوار إنما يتم بين أنداد ذوى قامات متقاربة ، وأوزان متكافئة ؟ أما وسامتنا لا تعرف هذا التكافؤ ولا ذلك التقارب فى الأوزان والقامات — اللهم إلا فى المبادىء النظرية التى كادت لا تشهد العمل والتطبيق — وكل الذى تعرفه هو أن تعلو فيها نخلة واحدة ، أو قلة من نخيل ، ليحيط بها كلأٌ قصير فإذا ما دفعت حرارة التربة ذلك الكلأ أن يرتفع برؤوسه ، جُذت رؤوسه لتظل قريبة من مواضع الأقدام .. هذه كانت ساحة الفكر ، وتلك هى كائناتها فهى بطبعها ترفض أن يدور على أرضها حوار إذ لا يكون حوار بين نخيل ونجيل .. وفيم العجب ؟ ألسنا قوما على الفطرة ؟ تلك إذن هى سنة الفطرة : فهل ترى — فى البحر — حوار الأنداد قائما بين الحوت والبلم ؟ أم هل ترى — فى

(٤) ، (٥) تجديد الفكر

الفضاء ـــ نقاش الأقران دائراً بين سباع الطير وبغاثها ؟ وهل تجرى مفاوضات فى الغاب ـــ إلا فى الاساطير والحكايات ـــ بين الليون والغزلان ؟

تلك هى فطرة الاحياء والاشياء وظواهر الطبيعة ، ونحن قوم على الفطرة فأى عجب إذا سلكنا أنفسنا مع الفطرة فيما فطرها عليه فاطر الأرض والسماء ؟» .

وما يريد أن يقوله الدكتور هو أن تراثنا الفكرى الإسلامى بالكامل كان من صنع الحكام المستبدين وهو بذلك ليس تراثاً مزيفاً فقط وإنما هو تراث معاد للإنسانية مسوغ لإستبداد من يحكمون ومن يملكون القوة والسلطان . وبالرغم من ندرة هذه المواقف فإن إستدلال الدكتور قد تحتمل صحته لو أن الإمام أحمد وافق المأمون على ما يريد لكن ما بالك وأن ما حدث هو على العكس تماماً فبرغم ما ذاقه الإمام أحمد من صنوف العذاب إلا أن ذلك لم يثنه عن موقفه المتصلب المستميت إلا أنه في النفس شيء يجعلها تقلب الأمور رأساً على عقب وتحاول أن تحيل الليل نهاراً والنهار ليلاً . كما أن الخليفة المأمون عندما فعل ما فعل فإنه لم يكن يفعل هذا طمعاً في دنيا أو رغبة في سلطان تدعوه إالى الإستبداد والإصرار على رأيه وإنما كان يفعل ذلك من وجهة نظره هو دفاعاً عن حقائق الدين كما يراها فلا داعي للغمز بالخلفاء في كل مناسبة وإتهامهم بمجافاة الدين وتنحيه عن حياتهم .

وللدكتور زكى نجيب محمود طريقة ذكية فى عرض أفكاره يخلص بها إلى الغرض المنوط منها فهو عادة يفترض ثلاث وجهات نظر أمام القضية المحورية التى يطرحها يختار أو سطهما فيبدو ذلك أنه نموذج للفكر الوسطى وأنه يتمثل بذلك الرؤية الإسلامية إلى الكون مع أن الحقيقة فيما يفعل أن وجهات النظر الثلاث التى يطرحها الأولى شبيهة لوجهة النظر الإسلامية والثانية معادية والثالثة متطرفة

فى معاداتها للإسلام وبذلك فإنه عندما يعطى للقارىء إنطباعا ما بوسطيته بإختياره وجهة النظر الثالثة فإنه فى الحقيقة قد إستطاع بتلك الحيلة أن يوقع به

في قبول وجهة النظر التي يبغيها والتي هي في نفس الوقت معادية للإسلام ومناقضة له تماماً .

ففى مقال له بعنوان (صورة جديدة لأفكار قديمة)[٦] يذهب إلى أن هناك ثلاث أفكار تمثل كبرى القضايا بالنسبة للإنسان وهى فكرته عن إله خلقه وفكرته عن نفسه وفكرته عن الكون الذى يعيش فيه ثم يتسائل بأى الأفكار ينبغى لإنسان العصر أن يبدأ ؟ هل يبدأ من فكرته عن الخالق ودراسة العقيدة الدينية أولاً أم يبدأ بدراسة نفسه والكون معاً وعندئذ فقط يكون أقدر ما يكون معرفة وفهماً لحقيقة الخالق الذى خلقه وخلق الكون جميعاً . ويقول «والحق أن ثمة فرقاً بعيداً بين الحالتين حالة تعرف بها نفسك والكون على ضوء ما ورد فى تعاليم الدين ومبادئه ؟ وحالة أخرى تعرف فيها تلك التعاليم والمبادئ — على ضوء ما تدرسه دراسة متعمقة عن نفسك وعن ظواهر الكون معاً» . ثم يعرض لوجهات النظر الثلاث فى الإجابة عن ذلك ، الأولى هى البدأ بدراسة الثقافة (لاحظ أنه يكاد يتأفف دائما من ذكر التعبير الحقيقى أى الدين الإسلامى) التى استظل بظلها أسلافنا فى التاريخ العربى الإسلامى على وجه التجديد واستنتاج الحلول منها أما الثانية فهى أخذ ثقافتنا الآن بضاعة جاهزة من منتجات الغرب الحديث والمعاصر ، تماماً كما نفعل عندما نستورد منه الطيارات والسيارات . ويصفها هنا نها أضعف وجهات النظر حجة وأبعدها عن الصواب (لاحظ أن وجهة النظر الثالثة التى يهدف إلى إقناعنا بها لا تختلف شيئاً فى مضمونها عن وجهة النظر هذه) . أما وجهة النظر الثالثة فهى تريد لنا حياة ثقافية تظل معها السحنة العربية بعامة — والمصرية بخاصة — سليمة من الأذى (ما كل هذا الكرم !) مع تعميق الثقافة الغربية لتشمل جوانب الحياة بأسرها وأبناء الشعب جميعاً فى رؤيتهم العامة للدنيا وأهلها وأحداثها وبهذه الثقافة العلمية نكون أقدر على فهم ديننا فهماً لا يتصادم مع أسس الحياة كما تفرضها ظروف واقعنا . ا . هـ .

(٦) نقلا عن د. عبد الحميد الغزالى : تجديد الثقافة .

فهل من الممكن أن يتفق مع الإسلام أن يكون مجرد سحنة عربية من الثقافة لا ترتقى حتى لأن تصل إلى مستوى السحنة المصرية . وما دخل العلوم المعاصرة فى اختيار هذا الموقف أو ذاك ولماذا الإصرار على وضع الإسلام وكأنه فى صراع ومواجهة مع العلم ؟! إذا كان يقصد بذلك العلوم الطبيعية فإن القرآن لم يقل مثلا أن الغلاف الجوى على بعد ٥٠ ميل وقال العلم إنه أقل من ذلك أو أكثر ولم يأت القرآن بقوانين فى الميكانيكا تتناقض مع قوانين نيوتن وليس للقرآن آراء فى الإنشطار الذرى تختلف عن آراء أينشتين . فلماذا الإصرار على هذه اللعبة المستهلكة التى يوضع فيها الإسلام فى مواجهة العلم ويطلب منا اختيار أحدهما . أما إذا كان المقصود بهذه الثقافة العلمية علوم الغرب الإنسانية المستمدة من عمق ثقافة حضاراتهم العلمانية فكيف أبنى ثقافتى على هذه العلوم التى ما هى إلا ركام من آراء البشر وأتطلع من خلالها إلى فهم الخالق والدين وأقول إننى سأكون بذلك أقدر على المعرفة والفهم ما ذنب الإسلام أن يحاكم على معايير قوم تصدعت نفوسهم من الإنحلال والحيرة والتيه .

إن غاية هذه العلوم أنها تقدم رؤية ما للكون والحياة وحركة التاريخ وهى رؤية ظنية تتشتت فيها الآراء الغربية إلى فرق متباعدة يخطىء كل منها الأخرى فهل لو نحن مؤمنون ينبغى علينا أن نحاكم ديننا الإسلامى المنزل من السماء إلى المعايير المستخلصة من هذه الآراء البشرية التى تتعرض كل يوم للنقد والتصحيح .

وهل ينبغى على الدين أن يقف موقفاً حيادياً من حيرة الإنسان فى فهمه لأحداث الكون والحياة ويتركه دون هدى فى هذه المتاهة من الفلسفات والمذاهب والآراء التى تتشتت بها عقول البشر فى كل إتجاه وبأى معايير يمكن محاكمته وتفضيل وجهات النظر تلك عليه ؟! لقد يستساغ ذلك لو أن الدين جاء بآراء تتناقض مع بديهيات الواقع المعقولة أما إن كان يقدم وجهات نظر تختلف مع وجهات النظر الأخرى للفلسفات والمذاهب فكيف يكون من

المنطق أن نحاكمه على أساس معاييرها . هل أخطأ الدين حين قدم للإنسان رؤيته الهادية للكون والحياة ؟!

من وجهة نظرهم نعم كان ينبغى على الدين أن يقف هذا الموقف الحيادى الذى يبغونه ولا يتدخل فى حياة البشر وتوجيههم وإنما من له حق التدخل عندهم فقط هو عقل الإنسان مهما كان شطحه .

فهل هم وقفوا هذا الموقف من وجوب تنحية الدين عن التدخل فى شئون البشر نتيجة دراسة فلسفية عميقة أتت لهم بهذه النتائج ؟ لا وإنما غاية ما فى الأمر أن الغربيين يفعلون ذلك فعليهم إذن أن يفعلوه . ولكن لماذا يقف الغربيون هذا الموقف ؟ ببساطة جداً لأنهم لا ينظرون إلى الدين إلا على أنه وهم من الأوهام فمن أراد أن يحتفظ بهذا الوهم فليحتفظ به لنفسه ولا يقحمه فى حياة الآخرين . ويتلقى الإنسلابيون عندنا هذه الآراء ثم يريدون أن يحاكموا ديننا بها .

ثانيا : الدكتور فؤاد زكريا

فى كتاب الدكتور فؤاد زكريا (أستاذ الفلسفة الطبيعية) (نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان) يعدد مصادر المعرفة المختلفة (وطبعاً لا يذكر من بينها الوحي) ثم ينكرها جميعاً باستثناء الإدراك الحسي الذي يعتبره المصدر الوحيد للحقائق . ويرفض الدكتور فؤاد المنهج العقلى الذى يتخذ البرهان العقلى على وجود الأشياء رفضا شديداً حيث يقول : «إن المعيار الحاسم لوجود الأشياء هو إدراكها (يقصد إدراكها بإحدى الحواس الخمس) لا البرهنة عليها» [٧].

وينقل قول لوك مؤكداً لموقفه : «إن معرفتنا بوجود الأشياء لا ينبغى أن ترد إلى الذهن لأن الوسيلة الوحيدة لهذه المعرفة هى الإحساس ولا يمكن عن طريق الأفكار الذهنية وحدها إثبات وجود موضوع لفكرة ما» [٨].

(٧) ، (٨) نظرية المعرفة وموقف الإنسان

ومن هذا المنطلق فإنه ينتقد آراء ديكارت وباركلى فى الإيمان بوجود أشياء ميتافيزيقية (غيبية) اعتماداً على البرهان العقلى .

ويقول عن الآثار العملية الضارة لهذه الطريقة فى التفكير : «عندما كان الناس يؤمنون بأن محاصيلهم هبة من إله الزرع أو الخصب كانوا يركزون جهودهم فى الصلاة لذلك الإله ويتركون زرعهم تحت رحمته أما عندما أصبحوا يؤمنون بأن جودة محاصيلهم تتوقف على ما يبذلونه فيها من جهد فإن نشاطهم تحول من الصلاة لإله الزرع إلى رعاية الأرض وتعهد النبات وهكذا يؤدى تغيير طريقة التفكير النظرى فى الأشياء إلى تغيير فى طريقة التعامل مع هذه الأشياء»[٨] .

وهذا الموقف الحاسم والمعروف عن الدكتور فؤاد زكريا (والذى نقدر له ثقافته العلمية الواسعة وقدرته الموضوعية الكبيرة وكذلك موقفه السياسى فى رده على كتاب الأستاذ حسنين هيكل خريف الغضب) حيث أكد فى كتابه (كم عمر الغضب) أن الأخطاء التى وقع فيها الرئيس السادات يجب أيضاً أن يتحملها بالتبعية الرئيس عبد الناصر الذى عينه فى منصب النائب وهو يعلم من هو .

ونقدر له فى كتابه (التفكير والمنهج العلمى) موقفه الموضوعى من الحضارة الإغريقية والتى اعتبرها ذات انجازات علمية متواضعة وكذلك موقفه الموضوعى من الحضارة الإسلامية التى أشاد بإنجازاتها العلمية وقدرتها على تفجير الطاقات الفكرية النابغة وكذلك تفريقه بين الإسلام والكنيسة الغربية فى عصر النهضة حيث ذهب إلى أنه بالنسبة للإسلام فإننا أمام دين يختلف كل الإختلاف عن الدين الذى كان يواجه رواد النهضة فالإسلام دين يدعو إلى العلم وإعمال العقل فى التفكير بشكل قاطع وإن كان يؤخذ عليه فى هذا الكتاب أنه أسقط هجومه على التفسيرات الغيبية بوجه عام .

إلا أن الموقف الفكرى الحاسم والمعروف عن الدكتور فؤاد زكريا والذى أشرنا إليه فى الحديث عن نظريته فى المعرفة بدأ يأخذ شكلا آخر فى كتبه التى يتحدث فيها عن الصحوة الإسلامية وموقفه منها . فبدت آرائه تأخذ طابعاً بعيدا عن الموضوعية وتتجه نحو التأويل والتعميم والمراوغة .

ويرى الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه : «الحقيقة والوهم فى الحركات الإسلامية» أنه مازالت تسيطر على الإسلاميين الفكرة الساذجة بمعاداة الغرب للإسلام بوجه خاص (ولا أعرف كيف يمكنه تأويل الأقوال الصريحة الدالة على ذلك لقادتهم السياسيين والمفكرين والتى أشرنا إليها فى الباب السابق) .

ويرى أنه بالنسبة للمعتدلين الذى يؤمنون بالتطبيق التدريجى للشريعة الإسلامية (والتى يكاد يختزلها فى الحدود) ويشترطون لتطبيقها توفير حد أدنى من الكفاية الإجتماعية قد فاتهم أن يسألوا أنفسهم وكيف يمكننا أن نصل إلى تلك المرحلة إلا بتحقيق الإصلاح الاقتصادى والاستقلال السياسى والحياة الديمقراطية وعلى ذلك فعلينا أن تشغلنا هذه الأمور أولاً ــ وذلك بالترتيب السليم للأولويات ــ ثم تأتى بعد ذلك مسألة تطبيق الشريعة .

فهل فات الدكتور فؤاد وقد يكون السبب فى ذلك هو بعده عن الحركة الإسلامية أو رؤيته لها بمنظوره الخاص أنه ليس هناك بين الإسلاميين (سواء المعتدلين أو غير المعتدلين) من يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية بمعناها التشريعى المحدد في المعتدلين من يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية بمعناها

الحدود بل أن المطالبة بتطبيق الشريعة عندهم تمثل رمزاً لقيام الدولة الإسلامية المنشودة بل أن تطبيق الشريعة يكاد يكون مرادفا عندهم لقيام الدولة الإسلامية : وهذا أمر مبدئى لدى الحركة الإسلامية لا يمكن التشكيك فيه لأنه من البديهيات الإسلامية التى يعوقها أن الإسلام دين شمولى لا يقبل التجزىء وأن تجزىء الإسلام لا يعنى شيئاً سوى تشويهه .

وليس استطاعتى أن أقتنع أن الدكتور فؤاد زكريا ــ بكل ثقله الفكرى ــ من الممكن أن يجهل ذلك مهما كان موقفه من الحركة الإسلامية .

أما ما يطرحه الدكتور فؤاد عن ترتيب الأولويات فإنه يدور حول الحلقة دون أن يحاول اقتحامها لأن المسألة تتعلق بالمنهج المطبق فى كل المراحل وليست المسألة مجرد تطبيق الإسلام فى مرحلة ما لكن الدكتور فؤاد أراد بطرحه لفكرة تطبيق الشريعة والرد عليها بترتيب الأولويات التى تستوجب الخروج من الأزمة التى نعانيها أولاً سياسياً وإقتصادياً وإجتماعياً ملتمسين النجاة داخل دائرة الحلول العلمانية وطبعا أقول أراد بذلك أن يؤجل نقاش فكرة تطبيق الإسلام لأجل غير مسمى ومحاولة تسويغ فرض التفكير فى المشاكل المطروحة بالأساليب العلمانية فى التفكير التى يريد أن يخلص إليها .

ولا أكاد أقتنع (مرة أخرى) أن الدكتور فؤاد لا يعى حكاية المنهج هذه فأيا كانت المرحلة المطلوبة أولاً وأيا كانت المشكلة المطروحة فإن السؤال البديهى هو هل نلتمس الحل لها من داخل الإسلام أم من غيره هل تعترفون بأن هناك حلاً إسلامياً لمشكلتنا الاقتصادية أم لا وهل تعترفون بأن هناك حلاً إسلامياً لمشكلتنا السياسية أم لا .. إلخ . أى أن المسألة المطروحة هى هل أنتم ترون الحلول من داخل الإسلام أم لا ؟ وأكررها فى أكثر من مناسبة المسألة هى إسلام أم لا إسلام .

وإذا كان جيب بموقفه الإستعمارى يسخر من المفكرين الإسلاميين فى أوائل القرن الماضى متسائلاً لأى جمع من الناس يوجهون حوارتهم[9] ؟ فإننا من دورنا نسأل الدكتور فؤاد بقدرته الموضوعية الكبيرة ــ ودون سخرية ــ لأى جمع من الناس توجه كلامك الذى يعنى - ولو بشكل تمويهى - إنك تقبل تطبيق الشريعة بضماناتها الإجتماعية ولكن توفير هذه الضمانات يستوجب حلول مشاكلنا السياسية والإقتصادية والإجتماعية داخل نطاق الحلول العلمانية أو فى قول أقرب إلى إسلوبكم بالطرق الموضوعية المجردة التى لا شأن للإسلام بها .

(٩) تجديد الفكر الإسلامى

ويقول إن الشريعة الإسلامية شديدة العمومية ولابد من تدخل بشرى كبير لكى تصير واقعاً يمكن تطبيقه فى ذلك العالم البالغ التعقيد .

ضع هذا القول نصب عينيك جيدا وضع أمامه قول إن النص الإلهى يفسر ويطبق بواسطة حكام بشر وأن التجارب المريرة التى خاضها عالمنا الإسلامى قد أثبتت أن أمثال هؤلاء الحكام الأكثر دموية والأشد استخفافا بمصائر البشر . إنه يخلص من هذين القولين إلى أن الشريعة الإسلامية ليست قانوناً إلهياً له حق التفضيل على القوانين الموضوعية .

وفى هذا الكلام عدة تجاوزات لا أعتقد أبداً أنها تفوت الدكتور فؤاد زكريا فكون الشريعة الإسلامية أتت بكليات شديدة العمومية أمر لا يعيبها وإنما هو ما يمنحها المرونة اللازمة التى تكسبها صلاحية الملائمة مع تطور الأزمان والظروف الأحوال وهو ما يقتضيه كونها الشريعة الخالدة خلود الزمان ولكن هذا لا يجعلنا نتغاضى كما فعل الدكتور زكريا عن أن هناك الكثير من الأحكام التفصيلية أيضاً التى جاء بها الإسلام فى كل شئون الحياة ولتناقض الإدعاءات العلمانية والتى لا تعنى فى حقيقتها أى شئ له معنى موضوعى بل وليست إلا محاولات تمويهية لإخفاء الأفكار المعادية للدين وراءها فإن الجانب الأكبر من العلمانيين يستغلون هذه الأحكام فى اتهام الإسلام بالتعقيد الشديد .

ولكن الدكتور فؤاد لم يفعل ذلك لأنه أراد أن يخلص نتيجة أخرى معادية للإسلام ومترتبة على هذا القول هى أن من يقوم بتفسير هذه الأحكام العمومية حكام بشر أثبتت التجارب المريرة مدى ظلمهم وفسادهم . وأظهر إدعاء باطل فى هذا الكلام هو أن ما يفسر هذه الأحكام هم الحكام فمن المعلوم بالضرورة أن الذى يقوم بذلك هم العلماء وليس الحكام ولا يعيب بعض هؤلاء العلماء — من أمثال عمر وعلى — أن يكونوا حكاماً وكيف من الممكن أن تؤدى عملية التفسير إلى سحب الصفة الإلهية من هذه الأحكام وكأن هؤلاء المفسرين يعملون فى الهواء الطلق دون الإلتزام بأية قواعد أو مناهج فعمومية الأحكام

التى تكسبها الصلاحية والمرونة لمواجهة ما يقتضيه التطور الإجتماعى ومتغيرات السلوك الإنسانى من أحكام لا يفقدها مقوماتها الخاصة بها لأن هذه العملية التوليدية المستمرة من الأحكام الإسلامية تخضع فى تطورها لإطارات خاصة وأهداف محددة تعكس تصورات العقيدة الإسلامية للعالم والغايات الإسلامية من حركة تطور المجتمع ويخضع هؤلاء المفسرون لقواعد أصولية ثابتة فى عملية التفسير واستخلاص الأحكام الجديدة وعلى قدر إلتزامهم بهذه القواعد على قدر ما ينسحب على آرائهم من شرعية إسلامية .

وحكاية عمومية أحكام الشريعة هذه وإتخاذها ذريعة لتفريغ الإسلام من محتوياته تتردد كثيراً فى كتابات الدكتور زكريا حتى تكاد تشك أن لديه إعوازاً شديداً فى مواده الفكرية التى يستخدمها فى محاولاته فى إزاحة الإسلام وتثبيت دعائم الأنماط العلمانية فى التفكير (والماركسية منها بالذات) على الساحة الفكرية مكانه وذلك فى رده على كتاب الدكتور مصطفى محمود الماركسية والإسلام يقول(١٠) : «إذا كانت الأحكام الدينية تقتصر على العموميات وتترك التفاصيل والجزئيات لإجتهاد العقل البشرى وفقاً لظروف الإنسان المتغيرة فمن أى مصدر تستمد هذه التفاصيل لابد أن يكون ذلك من مصدر دينوى ولابد أن يملأ الناس ذلك الإطار العام الذى تحدده الأحكام الدينية ، بمضمون أو بمحتوى مستمد من واقع حياتهم المتغيرة ومستلهم من فكر إنسانى وإجتهاد بشرى». ونعود لكى نسأل مرة أخرى هل عملية الإجتهاد فى التفاصيل هذه تحدث هناك فى الهواء الطلق دون أى تأثير من القواعد العمومية ثم يأخذ على الدكتور مصطفى محمود هجومه على الماركسية ويتهمه بأن ذلك يعنى أنه يريد أن يملأ الفراغات التى تركتها الأحكام العمومية بالرأسمالية . والحقيقة أن كلام الدكتور فؤاد هو الذى يريد أن يوحى للقارىء الساذج (لأنى لا أعرف مَن مِن الممكن أن يقتنع بهذا لكى يوجه إليه الدكتور فؤاد كلامه) أن الأوفق أن تمتلىء هذه الفراغات بالماركسية بل إنه يصرح بهذه الفكرة فى كتاب آخر حديث له فيذهب إلى أن عمومية الأحكام الدينية تترك للإجتهاد وللتفسير وبذلك لا يجد

(١٠) ، (١١) ، (١٢) الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل .

المفكر مفراً لسد هذا الفراغ إلا إلى الرجوع إلى الأيديولوجيات المعاصرة بحيث يؤدى العداء للإشتراكية على نحو آلى إلى خدمة الرأسمالية ويرى أن الأوفق إلى الإسلام أن يرجع فى ذلك إلى الإشتراكية وذلك لأن «جوهر القيم الإشتراكية ، ومضمونها الفعلى متفق مع الجوهر الحقيقى للإسلام اتفاقاً أساسياً» .

وهكذا يضح الآن السبب الخطير الذى يقف وراء اصرار الدكتور زكريا على ترديد حكاية عمومية الأحكام هذه فى الكثير من كتاباته إنه يريد أن يتخذها ذريعة لوضع الماركسية مكان الإسلام (على أساس أنها الأيديولوجية ذات الحلول المعاصرة) ولا يحتفظ من الإسلام إلا بغلاف للزينة فقط يعمل على تسويغ موقفه . ومازلت أردد يتخذ ذلك ذريعة عند من ؟! لمن يوجه الدكتور فؤاد كلامه ؟! إنه يريد أن ينتقل بمسألة عمومية الأحكام من حالة التميز بالمرونة والمعاصرة إلى حالة وصمها بالحياد والجدب والعجز بل واللا وجود تماماً فهل بلغ الإسلام هذا الحد من الفراغ الذى يجعله فى حاجة إلى ملئه تماماً إما بالماركسية أو الرأسمالية ؟! إن مسألة مثل المسألة الإقتصادية والتى كثيراً ما يشار إليها فى هذا الموضوع نرى أن الإسلام له مواقفه الخاصة الأصولية فى مختلف فروعها تلك المواقف التى تميزه من ناحية الأيديولوجية الاقتصادية كمذهب مستقل يقف فى موضوعية كاملة فى مواجهة الماركسية والرأسمالية معاً . أليس للإسلام موقفه الخاص من الملكية الخاصة وملكية الدولة والربا والإحتقار واسترزاع الأرض ومختلف العقود التجارية والإقتصادية واتجاه الإنتاج والضرائب وتحقيق الكفاية الإجتماعية وغير ذلك من المسائل . لكن الدكتور زكريا يدعى بهذه الأقوال أن الإسلام (خيال مآته) يشير إلى العدل ولكنه لا ينطق بشئ .

فهل يجهل الدكتور زكريا هذه المواقف الخاصة للإسلام ؟! من السذاجة أن نعتقد ذلك . ولكن ماذا يفيد الدكتور زكريا إذن تجاهله لهذه الأمور ؟! ومع هذا فإن أسوأ المنزلقات التى وقع فيها الدكتور فؤاد تحت ضغط أهدافه

العلمانية هى محاولة تأويله لقول كارل ماركس «الدين أفيون الشعوب» فهو يندد بالذين يفهمون المعنى الظاهر لهذا القول ويستغلونه فى ترويج مفهوم العداء بين الماركسية والدين فيذهب إلى أن ماركس لم يقصد بذلك «ابعاد الناس عن الدين مثلما يبتعدون عن مخدر ضار كالأفيون»[11] ولكنه كان يقصد «أن الدين مهم مادامت المظالم الإجتماعية قائمة»[12] وبرغم اعترافه أن آراء ماركس فى الدين لن ترضى رجال الدين إلا أنه لم يذهب فى موقفه إلى الدعوة إلى محاربة الأديان . وكل هذا الكلام يثير لديك الشفقة على محاولات الدكتور زكريا فى التمرير وما يستتبعه ذلك من سقطات ما كان لكاتب مثله على علم كبير وقدرة موضوعية عالية . أن يقع فيها لأن كارل ماركس نفسه أتبع عبارته : «الدين أفيون الشعوب» مباشرة (تفصل بين العبارتين نقطة فقط) عبارته التالية : «إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى (ضع ألف خط تحت كلمة الأولى لنقد هذا الوادى الغارق فى الدموع»[13]

إذن فماذا من الممكن بعد هذه العبارة أن تفيد محاولات الدكتور زكريا فى تأويل عبارة ماركس الأولى !؟ وأعود لأكرر إلى من يتوجه الدكتور زكريا بهذا الكلام ؟!

هل للعلمانيين ؟ لا أعتقد فهم يفهمون جيدا (خصوصاً الماركسيين منهم) مواقفك الفكرية فى غير حاجة لمثل هذا الكلام .

هل للإسلاميين ؟ لا أعتقد لأنهم يفهمون ما يفهمه العلمانيون هل من الممكن أن يكون كل هذا المجهود موجهاً إلى السذج ؟ نحن نناى بمفكر يملك القدرات العلمية التى يملكها الدكتور زكريا عن أن يفعل ذلك .

(١٣) نقلا عن الإمام باقر الصدر : إقتصادنا .

الباب السادس
نجيب محفوظ وسلمان رشدى
والتحالف العلمانى الصليبى الصهيونى
فى الهجوم على الإسلام

أولا : نجيب محفوظ

يقول النص الرسمى لحيثيات منح جائزة نوبل للأستاذ نجيب محفوظ عن رواية (أولاد حارتنا) :

وموضوع هذه الرواية غير العادية (أولاد حارتنا) هو البحث الأزلى للإنسان عن القيم الروحية فآدم وحواء وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبياء والرسل بالاضافة إلى العالم المحدث يظهرون فى « تخف طفيف » (لاحظ دقة العبارة .. فى تخف طفيف)[1] .

وعندما وجهت مجلة الشباب إلى الأستاذ نجيب محفوظ سؤالا يقول : هل هذه الرواية ليس لها علاقة اطلاقاً بشخصيات الأنبياء ؟ أجاب قائلاً : « بالعكس تماماً فهى ذات علاقة وثيقة »

ولكنه قام بتفسير هذه العلاقة بقوله : « فهذه الشخصيات تعيد جزءاً من سيرة الأنبياء ، مع التحفظات أنها شخصيات عادية من أبناء الحارة ولكنهم أبطالاً مع الخير »[2] .

وهذا التفسير لا يعنى شيئاً سوى محاولة التهرب من الإجابة المقصودة بطرح تصور غامض عن المرامى المقصودة مما حدث من ربط وتركيب بين مضامين

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) الأستاذ مصطفى عدنان جريدة النور أعداد مختلفة .

الرواية يؤدى إلى تمييع القضية كلها وهذا ما يفعله عادة الأستاذ نجيب محفوظ بالنسبة لأى سؤال يوجه له عن علاقة أعماله بالإسلام لأن المقصود من السؤال الذى يطرحه الجميع هل هذه الرواية تسىء إلى الذات الإلهية والأنبياء وجميع الأديان السماوية أم لا وليس مجرد وجود علاقة أم عدم وجودها ؟ ولنترك إجابة المعسكر الإسلامى قليلاً فماذا يجيب إذن المعسكر العلمانى عن هذا السؤال ؟!

تقول الدكتورة منى أبو سنة[٣] أستاذ الإجتماع بجامعة عين شمس مدافعة عن الرواية ومطالبة برفع المصادرة عنها :

« الرواية تصور التأويل العلمانى للرؤية الكونية الدينية ، برد ما هو أبدى (الله) إلى ما هو زمانى ، وبتصوير الله — ويرمز له بشخصية جبلاوى — وأولاده (لاحظ) الأنبياء موسى وعيسى ومحمد ، تصويرا بشريا فى اطار علاقات طبقية اقتصادية وسياسية » .

ومن هذه الزاوية — تقول الدكتورة منى أبو سنة . كان نجيب محفوظ يصفى الله والأنبياء والخير والشر من المضمون الاسطورى .

وبذلك يقيم علاقة جدلية بين الأسطورة (الدين) والواقع — بين الرؤية الدينية والرؤية العلمانية .

فيحذف البعد الروحى ويفسر العلاقات على أنها تقوم على الاستغلال ! ثم يرد العلاقة بين الإنسان والله كعلاقة بين الإنسان والإنسان . من أجل ازالة « وهم » واقع الاسطورة مستندا فى ذلك إلى المنهج العلمى ، وبالاخص الاشتراكية العلمية — لا الإسلامية — باعتبارها المخرج الوحيد من الاستغلال السياسى والاجتماعى ، ليس محليا فقط وإنما عالميا أيضا .

أكاد أجزم أننى لم أقرأ نصاً لأحد من العلمانيين يشهد فيه بتهجم هذه الرواية على الدين ويعترف أنه هو نفسه فى تناقض تام معه مثل هذا النص .

فالدكتورة تمتدح فى الرواية أنها إستبدلت التصور الدينى للكون الذى نصفه بأنه وهم اسطورى بالرؤية العلمانية التى تصفها بالواقعية بل إن الدكتورة وفرت على الإسلاميين مجهودهم فى إثبات أن منهج الأستاذ نجيب محفوظ فى تفسيره لما جاءت به الأديان هو المنهج الشيوعى والأمر هنا يتطلب تفسير لعدد من المصطلحات حتى لا يعترضنا أحد قائلاً : إن الدكتورة لم تأت بشىء عن سيرة الشيوعية .

ولذلك أقول : أن الفلسفة الماركسية التى جاء بها كارل ماركس صارت أهم تيارات المذهب الشيوعى (وهو مذهب قديم من حيث النشأة التاريخية) منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن حتى يكاد يستعمل اللفظان الشيوعية والماركسية كمترادفين ولكن نحن نسمى مذهب كارل ماركس الفلسفى نسبة إلى اسمه (الماركسية) فياترى ماذا كان يسميه هو ؟ ببساطة جداً كان يسميه بالإشتراكية العلمية وهذا هو الوصف الذى وصفت به الدكتورة منى منهج الأستاذ نجيب محفوظ فى تفسيره للحقائق الدينية فى روايته أولاد حارتنا .

وكفى الله المؤمنين شر القتال .

ولذلك فقد كان من المثير للدهشة قول الأستاذة سكينة فؤاد صاحبة الدعوة إلى القيم فى المسلسل الشهير (ليلة القبض على فاطمة): «يبدو موقفاً مخزياً للغاية يصل إلى حد العار أن نمنع القارىء المصرى والعربى رواية أولاد حارتنا وتشهد كذلك أن «الرواية غير هدامة ولا تضع نظرية تخالف الدين»[٤] .

ولم تكتفى الدكتور منى أبو سنة بما ذكرناه من دفاعها عن الرواية وتفسيرها لهابل بلغ بها الأمر أن تطالب الأستاذ نجيب محفوظ أن يكمل مهمته مسائلة إياه فى تحريض بين : «هل يستطيع نجيب محفوظ فى السنوات القادمة معالجة حالة البتر التي حدثت منذ أولاد حارتنا واستكمال مسيرة إرساء قواعد العلمانية من خلال الرواية الأدبية ؟»[٥] .

وهنا أحب أن أنبه الإسلاميين إلى ثغر من أهم الثغور (إن لم يكن أهمها جميعاً) التي تغزونا منها جحافل الأفكار العلمانية وأقصد بذلك الأدب والفن . لأنه من المصائب الكبرى التي وقع فيها الإسلاميون في هذا العصر اهتمامهم الضئيل (الذي يبلغ درجة الإهمال الشديد) بالأدب والفن والرواية بالذات وما يستتبعها من أعمال تليفزيونية وسينمائية وتركوا بذلك أهم قناة إعلامية للسيطرة على عقول الجماهير وتوجيهها من خلالها حتى شغلها العلمانيون وسيطروا عليها تماماً .

وقبل أن نعرض لرأي علماء الإسلام في الرواية فإننا نقدم للقارئ عرض[6] موجز لرواية الأستاذ نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» .

الروايـــة

«هذه حكاية حارتنا» سنرى بعد ذلك أنه يرمز إلى الدنيا .

لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير ولكنني سجلتها جميعا كما يرويها الرواة ، وما أكثرهم ، وكما نقلتها الاجيال .

«كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم سوء معاملة اشارة إلى البيت الكبير على رأس الحارة (يرمز إلى الكعبة/ إلى بيت الله) من ناحيتها المتصلة بالصحراء (صحراء مكة) وقال في حسرة :

«هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبة ونحن مستحقوا أوقافه (لاحظ التعبير/ الأوقاف) فلماذا نجوع وكيف نضام» .

ثم يستطرد : «جدنا (الله) هذا لغز من الالغاز . عمر فوق ما يطمع انسان أو يتصور .. حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل في بيته لكبره ، منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد ــ وكان يدعى الجبلاوي ..»

وباسمه سميت حارتنا (ملكوت الله) وهو صاحب أوقافها .. وكل قائم فوق أرضها والاقطار المحيطة بها في الخلاء (الفضاء) .. وحارتنا أصل مصر أم الدنيا (لاحظ) ..

(٦) هذا العرض نقلا عن الأستاذ مصطفى عدنان بتصرف كبير النور ٢٢ ربيع أول ٢٠ نوفمبر

ثم يستطرد المؤلف : «أليس من الغريب أن يختفى هو (الله) فى هذا البيت الكبير المغلق ، وأن نعيش نحن فى التراب ؟!

وبشروطه العشرة (يرمز إلى الوصايا العشرة حتى نزلت على سيدنا موسى عليه السلام) نشب النزاع فى حارتنا منذ ولدت ومضى خطره يستفحل بتعاقب الاجيال حتى اليوم والغد .

ويصور الملائكة عباس (عزرائيل) ورضوان (باسمه) وجليل (جبريل) وهم خدامه الذين يقامرون فوق سطح البيت .

ثم يبدأ الأستاذ ن . م يرمز إلى سيدنا آدم باسم أدهم ، وإلى إبليس اللعين باسم إدريس .. فيقول :

اختار الجبلاوى أدهم دون إدريس ليدير أوقافه (أى أن يكون خليفة فى الأرض) .

واعترض إدريس (إبليس) .. وانتفخ كالديك المزهو قائلا : «إننى وأخواتى ابناء هانم خيرة النساء (النار) .. أما هذا فأبن جارية سوداء (الطين/ الصلصال) .

لم يصور الأستاذ نجيب خطيئة أمنا سيدتنا حواء عليها السلام (بالأكل من الشجرة المحرمة كما ورد فى القرآن الكريم) بل بأنها خانت أبينا سيدنا آدم ، مع إبليس بالزنا ويقول الجبلاوى (الله) لادريس (إبليس) : لا أنت ابنى ولا أنا أعرفك .

أما هابيل (همام) الطيب فيقول أيضا : « أما هو (الله) فقابع وراء الاسوار بلا قلب .. متمتعا بنعيم لا يخطر على بال بالمقارنة بأبينا الذى يكدح وراء عربته .. وأمنا التى تكد طول النهار وشطرا من الليل .. ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة ..» .

أما قابيل . (قدرى) فيقول عن الله : «إنه كان يخرج كثيرا فى الماضى فيمر

بهم فى ذهابه واياته أما اليوم فلا يراه أحد .. وكأنما يخاف على نفسه !!» .

ثم يقول : أصبح للجبلاوى العظيم (الله) حفيدة عاهرة وحفيد قاتل . لم يفهم ان اول بنات سيدنا ادم . تزوجت شقيقها الذى لم يولد معها فى حمل واحد .. حتى يعمر الكون . فيسميها عاهرة ! بلا نفى من غير الذى سماها !!!

ثم نسير مع الرواية على هذا المنوال المخيف حتى نلقى بالبلقيطى (سيدنا شعيب عليه السلام) فيصوره ومعه جوزة ولفة ويقول : «خير الليل ما مضى بين هذا وذاك» .

ويصور سيدنا شعيب بأنه حاوى !

وفى حديث البلطيقى مع جبل : «أصارحك بأنى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى .. فضحك جبل فى نشوة طفل ..» .

وكان الكاتب قد وصف لقاء سيدنا موسى عليه السلام مع الله : «بانه التقى بـ «شبح هائل» .. حيث قال له : أنا جدك الجبلاوى فيسألونه : ألم تكن مسطولا ! فيرد : أن السطل لم يذهب بعقلى قط .

ونلاحظ هنا أن على طول الرواية ، يتضح أن عمودها الفقرى يذكر بمقولة نبى الشيوعية لينين أن الدين افيون الشعوب .. الدين مخدر .. لا تمضى صفحة إلا ويرمز للدين بالحشيش ! ففى الموضع الذى يشتم فرعون سيدنا موسى عليه السلام نراه يقول له : اخرس يامحتال ياحشاش !

ثم يصف الكاتب أفراح انتصار المؤمنين بموسى على فرعون : «جرت البوظة انهارا .. وانعقدت فى سماء الحجرات سحب الحشيش (لاحظ) .. ورقصت تمر حنة حتى الخل وسطها» .

ثم أعطى المسيحيون (خلفاء رفاعة/ المسيح عليه السلام) كما أعطى اليهود من قبل (خلفاء جبل/ موسى عليه السلام) وقفا لهم .. وأصبح لهم أيضا رئيس ..

ولكن مع ذلك لم يتغير شيء فى حال البشر : «الذباب مازال يلهو بين الزبالة والأعين .. والثياب مرقعة .. والشتائم تتبادل كالتحايا» ، «والبيت الكبير رمز الله» لا يزال قابعا وراء أسواره غارقا فى الصمت والذكريات .. «(!)

ثم يظهر الكاتب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام باسم قاسم (معروف ان من أسمائه أبو القاسم لأنه انجب سيدنا القاسم) ..

ويناجى (قاسم) نفسه فيتساءل عن جدنا العظيم «الله/الجبلاوى» ويقول : هل ما يزال بعقله أم خرف ؟! ـــ هل يذهب ويجيء أم اقعده الكبر ؟! . هل يدرى بما يقع حوله أم عن كل شيء ذهل ؟! ، هل يذكر احفاده أم نسى نفسه ؟! ـــ هكذا ...

ثم يعرض لست قمر «يقصد السيدة خديجة أم المؤمنين» ويصفها هذه السيدة الأربعينية ويردد أن الزواج بها تم بعد أن كان قاسم لظرف ما ، يتردد على بيتها ـــ قالها بلسان زوجة كبير الحارة مشهرا بالسيدة خديجة ... أم المؤمنين ..

ومن قبل هذا دار حديث آخر مع قاسم يقال له فيه : «مالك ياولد متأنقا كالبنت ؟!» فهذا .. فى مثل سنك قلة أدب .. !

ومن قبل الزواج ، يصور الكاتب أنه لما أشار قاسم «محمد عليه الصلاة والسلام» على الناس برأى يفض نزاعاتهم (يستر فيه على السارق !!!) «رمزا لقصة وضع الحجر الأسود فى الكعبة» سرت فى القوم همهمة ارتياح لاقتراحه فاشتد خفقان قلبه . لأن ذلك جرى على مشهد من دار قمر وهو موقن أن عينيها السوداوين ترقبانه فداخله زهو سعيد وشعر بلذة فوز كبير (إذا هو مزهو

بانجازه من أجل قمر !) .. ويسجل الكاتب كيف أن الجارية كما حدث فى الواقع هى التى اقترحت على قاسم زواجه من السيدة ..

وعندما وصف عرسه ﷺ قال : «ودارت أفراح البوظة وعشرون جوزة» .

وغنى المطرب : «زمان الوصل قرب بالتهانى» .

وازداد قاسم «محمد عليه الصلاة والسلام» اضطرابا ففطن صادق (أبو بكر الصديق) إلى حالة كشأنه دائما ، فقدم إليه قدحت جديدا من الشراب . ومازال به حتى افرغه فى جوفه حتى الثمالة . وكانت الجوزة ماتزال فى يده .

وجلس قاسم بين حسن «ابن عمه سيدنا على كرم الله وجه ابو الحسن» وصادق فحياهم قائلا لصبيه ـــ ياليلة الهنا . جوزة دنجل ، ياوله للجدعان !

أما صادق سيدنا ابو بكر فأخرج من صدره بلبوعة فى حجم البلية ادارها بين اصبعيه تحت ضوء الكلوب ، وقال فى أذن قايم : معجونة بالهريسة ولها مفعول ياسلام ! ـــ فتناولها قاسم . وأودعها قاه باسما ، وقد احمرت عيناه السوداوان من الشراب .. فعاد صادق يقول : امضغ ثم استحلب ..

انتقل قاسم إلى الحريم .. رأى قمر جالسة فاتجه نحوها يخوض امواجا من الزغاريد .. تتقدمها راقصة كانما تلقى عليهما الدرس الأخير .. حتى احتواتهما حجرة العرس .. وباغلاق باب الحجر انفصل انفصالا كليا عن العالم الخارجى .. ومرت عين قاسم بالفراش الوردى .. واشياء لم تقع له فى خيال .. ثم استقر بصره على المرأة التى جلست تنزع الزينة عن رأسها .. بدت فخيمة مليئة بضة ذات بهاء .. «هكذا» ..

ثم يقتحم الكاتب بقلمه بين النبوة ويصف رضاعة السيدة فاطمة الزهراء احسان ـــ الثدى الخ ـــ عندنا جاء قاسم «محمد عليه الصلاة والسلام» بعد لقائه بجبريل «قنديل» فى الليل والخلاء تحت الصخرة ، ويمضى إلى أن يعكس

ثم يصف السيدة مريم العذراء بهذا الوصف : «وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها .. لتريح بطنها المنداحة»

ويردد ما يقوله اليهود (ضد المسيح عليه السلام) أنه كان ابن يوسف النجار من السيدة مريم العذراء سيدة نساء العالمين كما جاء فى القرآن الكريم .

ثم يقول : وها هو ابننا رفاعة (المسيح/ اختار له نجيب محفوظ اسم رفاعة لأنه رفع إلى السماء) .

وفى وصف لقاء المسيح عليه السلام بمريم المجدلية يقول : «وفوق نهضة النهدين .. وحافية وعارية الساقين .. ولبثت صامتة» .

ثم يبدأ فى حديثه عن المسيح عليه السلام بأن «حارتنا تعيرنا برقته (!)» ويسخر منه بعبارات على لسان شخوصه منها مثلا : هل يخاف الزواج ؟ .. هل أدركه البلوغ اليوم ؟ .. أنه رقيق أكثر من اللازم .. و «يظنه الناس كودية زار .. شاعرا لتعلقه بالحكايات ..» .

وأن كل مهمة رفاعة (المسيح عليه السلام) أن يزور المساكين ليطرد عنهم العفاريت !.. ويزوجه ياسمينه أظن يقصد مريم المجدلية .

وفى هذه الليلة نصف الزفاف شف ثوبها الرقيق عن جسدها البارع .. وجلست تنظر فى عينيه الهادئتين (للمسيح) حتى داخلها اليأس .. أخاف أن تزورنا أمك غدا (يقصد السيدة العذراء تزور ابنها السيد المسيح عليه السلام) لتحذرك من الافراط (فى المعاشرة سخرية) .

وفى قول آخر «دع أعمال النساء للنساء» .. وفى قول آخر «رفاعة (بن شافعى ـ المسيح عليه السلام) خف عقله» .. (!) .

ثم تصور الرواية زوجة رفاعة ، تتسلل لتخونه عند بيومى حيث تشاركه «تدخين الجوزة وشرب البوظة أيضا» ــ وهو يفضل أن يسكر ويحشش لأنه لا يليق به الشم كالاتباع .

ويقرصها فى صدرها ويمطرها بالقبلات وهما يتحدثان عن رفاعة «ككودية زار من جنس الرجال» — هكذا — وأنها تصبر على حياتها الزوجية المعطلة معه «لأننى مدينة له بحياتى .. ولاضرر منه فما أيسر من خداعه» !! فيرد «اتتركينه يعبث بك عبث الأطفال» ، فتهز منكبيها هازئة قائلة : «لاعمل لزوجى رفاعة» فى هذه الدنيا إلا تخليص الفقراء من العفاريت .. وأنه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس .. فشخر الفتوة هازئا .. قائلا لعل الجبلاوى (الله) عفريتا .. ولعله ميت ! .. ومدت زوجة «رفاعة» يدها إلى فستانها لتنزعه رويدا .. و .. مع عشيقها» .

وبعد كل هذا الهراء تقول لها من يرمز لها بالعذراء مريم ، بكل مقامها عندما يفر المسيح لمن أدعت الرواية أنها زوجته : «رفاعة (أى المسيح) فى عهدتك !» (عهدة زوجة زانية !) .

ولكنها — زوجة رفاعة — تعود إلى عشيقها لأنها لا تجد الاطمئنان إلا بين يديه .. وتبوح له بسر زوجها المسيح وأنه سيهرب واتباعه .. وتدافع أمامه عن رفاعة بقولها : أنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت .. أنه انقذنى يوما من الهلاك .. فيرد عليها عشيقها ساخرا .. وها أنت تسلمينه للهلاك .. واحدة بواحدة ، والبادى أظلم !!

ولكى يؤكد الكاتب قول المسيح «من يصفعك على خدك الأيمن أدر له الأيسر» يصور لنا نفس المشهد باعتداء «بطيخة» على رفاعة «المسيح عليه السلام»

ثم تصور لنا الرواية العشاء الأخير ! .. وياسمينة تقول له : ستخلصنى غدا من عفريتى ان مد الله فى العمر ! .. وهكذا صورت الرواية أنها وإن كانت زوجته فإنه لم يخلصها من عفريتها .. الذى يخلص منه الفقراء !

لخبطة .. (طبعاً المسيح لم يقتل كما يقول القرآن : وما قتلوه وما صلبوه) ثم يصور الكاتب مقتل رفاعة وكيف أنهم وجدوا آثار دمائه ولم يجدوا جثته ، بينما زوجته ياسمينة فى بيت عشيقها ؛ حيث قتلها أحد الحواريين بعد ذلك .

الثابت تاريخيا فيصور ان السيدة خديجة اعترضت على الرسالة المحمدية ومن ذلك مثلا قولها : ما جدوى الانفراد .. كأنك تأمل فى لقيا الخادم «سيدنا جبريل عليه السلام» مرة أخرى . ولكن أى جديد عنده ترتقب .. سيطاردك السؤال .. وعن الله تقول له .. لا شخصه رأيت ، ولاصوت سمعت ، ولا شخصه رجع .. تقصد الله ..

إلى أن تقول : تهمل طفلتك الجميلة تبكى فلاترحمها (الذى سماه ربه رحمة للعالمين) وتلعب فلاتلاعبها ..

وهى التى قالت للرسول عندما نزلت عليه الرسالة : والله لن يخزيك الله ابدا .

ثم يوصى قاسم «النبى» اتباعه فى حى الجرابيع

«تجنبوا الظهور وانتم سكارى» !!

ثم شاع أن «الجرابيع» يهاجرون ..

وعلى لسان النبى «قاسم» تأتى الرواية بهذه الجملة (بدلا من أننى سأهاجر) : «سوف أهرب بدورى .. ثم يوضح لسيدنا على «حسن» : سأهر بالحيلة لا بالقوة !

وطبعاً لا ينسى الكاتب أن يردد الأغنية التى تعرف دائماً عن تعدد زوجان الرسول ﷺ .

ويوجه إليه هذه العبارة

ـــ لاعيب فيك إلا اهتمامك بالوقف «الدنيا» سوف يسوقك ذلك إلى متاعب لا حصر لها ..

ويقول لمحمد عليه الصلاة والسلام (قاسم) : ماذا ابقيت لمن يجيء بعدك ؟! فيرد : إذا نصرنى المولى فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى !

وفى السياق قرب ختام الرواية أصبحت كلمات موسى والمسيح ومحمد

ﷺ «احلاما ضائعة قد تصلح الحانا للرباب لا للمعاملة» .

ثم تبدأ الرواية تصور حال شكرون «الذين يحمدون الله على كل حال» وهو يصيح :

ياجبلاوى «ياالله» حتى متى تلازم الصمت والاختفاء .. وصاياك مهملة وأموالك مضيعة .. أنت فى الواقع تسرق كما يسرق أحفادك ..
وقهقه كثيرون ..

ـــ ياجبلاوى «ياالله» ألا تدرى بما حل بنا .. لماذا عاقبت ادريس «إبليس وكان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا ...

ثم تلاحظ التشبيهات الغريبة للأستاذ نجيب محفوظ ومنها : «فهبطت النبابيت التى يستخدمها البلطجية كرؤوس المصلين» .

وعن سيدنا رسول الله : «وهكذا كان قاسم الماكر الداهية !» .

وعن الله : «وهل سمعت عن واقف (الله) يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لايحرك ساكنا» .. «وما السبيل إلى تنفيذ شروطه (وصاياه) وجدنا قعيد الفراش ، ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن يكلف أحدا من احفاده بعمل !

وفى موضوع اخر من الرواية : أنه كان فى وسع موسى عليه السلام (جبل) أن يبقى فى وظيفته (لدى الفرعون) وكان بوسع المسيح عليه السلام (رفاعة) أن يصير النجار الأول ، وكان فى وسع محمد ﷺ (قاسم) أن يهنأ بقمز (السيدة خديجة) وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان .. ولكنهم اختاروا الطريق الاخر .

فيعلق حنش : ما أكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم ـــ (...)

ثم يجيىء الحفيد الشيوعى عرفه (لاحظ ما توحى به هذه التسمية من علاقة بالعلم) والذى يصر على مقابلة جبلاوى والاستيلاء على الكون فيذهب إلى

البيت الكبير وبعد أن دخل فيه وتوقع أن « يغمر الظلماء نور » وأن يرى الله (الجبلاوى) واقفا خياله سيسجد عند قدميه مستعطفا .. ولكنه يجد فراشا فخما ويجده نائما هناك غير دار بجريمته .. (...) واقتنع بأنه من الجنون أن يتصل بجده ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمنه من شروط وآيات السحر التى سيطر بها جده على الخلاء والناس فى زمانه الأول (يعنى الله سيطر على الكون بالسحر) . ان أحدا قبله لم يتصور ان الكتاب (كتاب المقدس) كتاب سحر لأن أحدا قبل الله لم يمارس السحر ...

ويتساءل لماذا ضن الله على ابنائه بسر كتابه .. حتى ضن به على أحبهم إلى قلبه آدم .. وأشعل الشيوعى شمعة فرأى عينين تنظران إليه ! .. ورغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغييوبة الفاصلة بين النوم واليقظة .. وانقض على رقبته . وضربه فى بطنه . وسقطت الشمعة وساد الظلام . وتحرك العجوز حركة أخيرة ثم همد .. (...) ولكنه لم يستطع أن يتخطى الجثة إلى الكتاب الأثرى .. كانت جريمة أدهم (آدم) هى العصيان .. أما جريمته هو فالقتل ...» .

(...) ويعود ويشعر بأن النوم بات أبعد عنه من الجبلاوى (الله) .. ويعترف عرفة قتلت عجوزا ومن يدرى فلعله الخادم الذى أرسله الجبلاوى (الله) إلى قاسم (محمد) .. يالها من رحلة شاقة وخاسرة .. ولكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن تعتمد على أى شئ سوى السحر .. فالسحر لا نهاية له .. هذه الحارة المغرورة الجاهلة (الكون) كانت فى البدء مرتعا قفرا للحشرات .. حتى حل بها أكبر قاطع طريق رهيب وهو جدكم (الجبلاوى / الله) فيقول عرفة : أنا عندى ما ليس عند أحد .. ولا الجبلاوى نفسه .. عندى السحر (أو العلم) .

وتسير الأحداث حتى تأتيه من عند (الله) خادمته وتعترف به أن الذى قتله هو جبريل وليس الجبلاوى ثم تعترف له أن الله مات بين يديها لأنه : «اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه (جبريل) .. بغتة أصفر ! .. وقال لها أذهبى إلى عرفة الساحر (الشيوعى) وابلغيه أن جده مات وهو راض عنه !! (هكذا) .

رأى علماء الإسلام فى رواية أولاد حارتنا

الدكتور عبد الجليل شلبى :

يقول الدكتور عبد الجليل شلبى[٧] : «فى الحوار الذى أجرته جريدة الأحرار مع صاحب جائزة نوبل الأستاذ نجيب محفوظ كثير من التهرب والالتواء الذى لم نكن نتوقعه من رجل بلغ القمة وأصبح فى مأمن ، وأقف فقط عند حديثه عن رواية «أولاد حارتنا» .

وخلاصة كلام الأستاذ نجيب محفوظ أنه توقف عن الكتابة حين فقد المجتمع المصرى شخصيته قبيل الثورة حتى فقد الكاتب أحلامه . ولم يجد ما يدفعه إلى نقد جسم ميت وبدءاً من سنة ١٩٥٧ بدأت أحلامه وأمانيه فى الثورة تهتز . إذا لم ينته عهد المنافقين والإنتهازيين بل زاد وانتشر الفساد الذى كان يحسبه قد قضى عليه فأخرج فى هذه الظروف «أولاد حارتنا» و «هذه الرواية فى شكلها الواقعى خطاب موجه لحكام مصر» هل كانوا يريدون أن يكونوا أطهاراً مكملين للرسل والعلم أم فتوات ؟ هذا لأن العالم كان دائماً نزاعاً بين أهل الخير ويمثلهم الأنبياء وأهل الشر ويمثلهم الفتوات وهو يريد بالرواية أن تكون سؤالا لحكام مصر فى هذا الوقت من أى النوعين يريدون أن يكونوا وهذا ما كان يريد أن يقوله «ولكن الكثيرين قد أزالوا الخطاب الجماعى . وأتوا بالتشبيه وظنوا أنه المقصود» .

وهذه فيما يبدو طريقة لبقة أراد القصاص الفيلسوف أن يتخلص بها ومع أن قصصه الأخرى وبها رمزيات أولاد حارتنا بعيدة عما يقول .

أشنع ما فى رواية أولاد حارتنا تمثيل رب العزة بشخص مستبد رهيب ينفذ ما يريد حقا أو باطلاً ثم تصوير الملائكة فى صورة زمرة متبطلة لا عمل لها إلا الشراب واللهو والعربدة وصور الأنبياء فيها واضحة جداً وقد جامل المؤلف فى حديثه عن موسى بنى اسرائيل كثيراً .

(٧) الجمهورية ثلاث مقالات متتالية ٢٢، ٢٣، ٢٤ أغسطس

وقد جعل عيسى عليه السلام ابنا شرعياً ليوسف النجار ثم جعله يموت قتيلا من خصومه فإذا كان حقا يريد بعرض الأنبياء فى هذه الصور تمثيل معركة الخير والشر فقد جعل الخير هنا ينهزم على عكس مايفعل كتاب القصة الكلاسيكيون ، ولم يلتفت إلى أن القرآن الكريم ينفى قتل المسيح وصلبه .

وأخيراً أمات الجبلاوى الذى هو رمز للذات العليا وكنا نفهم من ذلك إنه رمز لتغلب الشيوعية ونسيان حق الله – سبحانه – معبوداً ومشرعاً ، ومثيباً ومعاقباً ولكنه يقول إنه يرمز بالرواية كلها إلى معركة الخير والشر وفى هذا الموقف نصر الكفر على التدين .

وليس فى الرواية – فيما رأيت : شيء يمثل الرئيس جمال عبد الناصر ولا إستبداده ولا شيوع النفاق ولا فشو الفساد وكثرة المنافقين والإنتهازيين وكان فى إستطاعة القصاص التقدير أن يرسب فى أى موقف من مواقف الرواية وليس فيها على طولها نقد مجتمع أفسده الإستبداد حتى فشى فيه الفسا ولكنها كلها زراتن بالدين والخالق ورسله .

رأى الدكتور المرحوم محمود حسب الله أمين عام مجمع البحوث الإسلامية سابقا : يقول الدكتور عبد الجليل شلبى : وقصة أولاد حارتنا قرأها المرحوم محمود حسب الله بنفسه وطلب مصادرتها والدكتور حسب الله أمين عام لمجمع البحوث الإسلامية وأشهر وأكبر أمين ولى هذا المنصب وكانت له شخصيته وعقليته وكان أكبر من أن يملى عليه رأى ولم يكن على الأزهر أن يطلب مؤلف أى كتاب ليناقشه وكين يناقش نجيب محفوظ فى سطرين واضحة من الدين وعلى الأخص من القرآن وقد كان على المؤلف – لو كان واثقا من كلامه – أن يتقدم هو على الأزهر ليقول له بأى وجه صادرت هذه الرواية ثم يدافع عن وجهة نظره التى بنى عليا روايته – ولايزال باب الدفاع والمناقشة مفتوحاً فليتقدم هو إلى الأزهر لطلب المناقشة وإبداء دفاعه ، وما أظنه يجد دفاعاً ولا أن جائزة نوبل تجدى شيئاً فى هذا المجال .

رابطة العالم الإســلامى :

وصفت رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة الرواية بأنها : « كفر بواح وهرطقة وقحة .

مجمع البحوث الإسلامية الحالى بالأزهر الشريف :

خرج الأزهر الشريف ببيان تاريخى أعلنه فضيلة الشيخ عبد الفتاح بركة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الحالى أدان فيه الرواية وخروجها عن الإسلام .

موقف الأستاذ نجيب محفوظ من اليهود وموقف اليهود منه :

يقول الدكتور عبد الجليل شلبى : « لقد جامل المؤلف فى حديثه عن موسى بنى إسرائيل كثيراً .

ويقول الأستاذ مصطفى عدنان :

« يرى الاستاذ نجيب أن النظام الذى وضعه سيدنا موسى (عليه السلام) من تلقاء نفسه لا وحيا بسبب جبروته الشخصى هو الذى كان سيصلح العالم كله ، لولا أنه اختص به اليهود وحدهم ، على عكس تقيمه للنظام الإسلامى ومن قبله المسيحى حيث أدانهما بالفشل التام » أ. هـ .

والكل يعرف موقف الأستاذ نجيب محفوظ المؤيد لمعاهدة السلام وتطبيع العلاقات مع العدو الإسرائيلى وفى روايته (أمام العرش) يذهب إلى أن الرئيس السادات هو أعظم حكام مصر منذ عهد الفراعنه لأنه أعاد مصر كاملة إلى أبنائها الفراعنة – أما موقف اليهود منه فيذكر الدكتور عبد الحليم مندور أن أعضاء لجنة نوبل جميعهم من اليهود – وكان أول المهنئين للأستاذ نجيب بفوزه بالجائزة هم اليهود أنفسهم وعلى رأسهم كبار المسئولين فى الحكومة الإسرائيلية (من أمثال) أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل سابقا الذى كانت روايات الأستاذ محفوظ .

موضوع رســالته للدكتوراه .

رأى خاص :

وقبل أن ننهى كلامنا عن الأستاذ نجيب محفوظ أحب أن أسجل وعن قراءة متأنية لأغلب أعماله – أن روايته من حيث القيمة الفنية قد ترتقى عن الكثير من كتابات الكتاب الذين منحوا الجائزة ولذلك فإن الأمر لايستحق كل هذا التهليل الذى اندفع إليه العلمانيون تحت ضغط إنهزاميتهم أمام الحضارة الغربية التى منحت الجائزة (إلا إذا كان هناك دافع آخر هو الترويج للمضامين الفكرية المتغربة التى يطرحها الأستاذ نجيب فى رواياته) إلا أنه من حيث الرؤية الفكرية لأعمال الأستاذ نجيب الأدبية بوجه عام فإنها تتأرجح مابين الشيوعية والعبث فهو أميل إلى الشيوعية فى أعماله الأولى مثل (همس الجنون – بداية ونهاية – أولاد حارتنا) . أما العبث وإن كان يظهر مع بداياته الأولى فى بعض القصص القصيرة فى مجموعة همس الجنون إلا أنه يكاد يسيطر على أغلب أعماله فى الثلث الأخير من حياته ويبرز ذلك بوجه خاص فى رواياته (السمان والخريف – وثرثرة على النيل – والمرايا) وكذلك العمل الأدبى المسمى (رأيت فيما يرى النائم) .

ويجىء خطر هذه الروايات من كونها على عكس رواية أولاد حارتنا واضحة المرمى والمقصد فهى تتخللها الرؤية الفكرية للكاتب بشكل مطمور حيث تتسرب إلى وعى القارىء أو المشاهد – لأن أعماله سريعاً ماتتحول إلى أفلام أو مسلسلات تليفزيونية – المحدود الثقافة غالبا دون أن ينتبه إلى ذلك .

علاقة فكر الأستاذ نجيب محفوظ بسلمان رشدى

يذهب الباحثون إلى أن ماأتى به سلمان رشدى من أفكار قد تأثر كثيراً بما كتبه الأستاذ نجيب محفوظ فى روايته أولا حارتنا فالتشابه كبير بين الرؤية الفنية والجو الشعورى لكل من الروايتين وممن يذهبون إلى ذلك الدكتور عبد الجليل عيسى والأستاذ مصطفى عدنان .

ثانيـاً سـلمان رشــدى

رواية آيات شـيطانية :

تتكون هذه الرواية من خمسة فصول وأربعة أحلام يطفح فيها الكاتب مايعتمل فى نفسه من عبث يائس مرير ترسب فى نفس فاشلة يتقد فيها الصراع بين الإرتباط بعالم تعمق فيه الإنحطاط المادى والعقلانى وتشوهت معالمه الروحية نفسها والتشبث المذل بعالم مادى أصم خاوى من الروح تماماً يعامل غير المنتمين له بإزدراء مهين وكل المنتمين إلى العالم الإسلامى الذى أذله لأكثر من عشرة قرون بحقد ثأرى دفين لم تستطع كل الفلسفات العلمانية اللادينية أن تقتلع جذوره .

وكان الكاتب موفقاً فى إختيار الأحلام وسيلة للتعبير عما تطفح به تمزقات نفسه لما ترتبط به الأحلام سيكولوجياً من تداعيات لا عقلانية يعتذر بها فنياً عن عدم الترابط بين المرطقات الدينية التى يرمى إليها (والتى هى الهدف الحقيقى من تأليف الكتاب) وبين فصول الرواية التى لايحكمها هى الأخرى نسيج درامى منتظم .

وأغلب ماكتبه الكاتب من تهجم على الإسلام جاء فى هذه الأحلام وهذا ماجعل الباحثين يذهبون إلى أن الآراء التى جاءت فى هذه الأحلام كتبت أولاً ثم اختلق الكاتب قصة طويلة لكى يفرط بين أجزائها هذه الآراء وإن لم يكن قد وفق فى ربطه بين هذه الآراء وأجزاء تلك القصة الطويلة .

(٨) أعتبرنا فى هذا الموضوع على المعلومات التى وردت فى الكتب التالية : الغراب الأبيض سلمان رشدى : الأستاذ زهير على شاكر .
سلمان رشدى الظاهرة والتفسير : د. محمد يحى .
من يقف وراء سلمان رشدى : د. فهمى الشناوى وبعض المقالات التى وردت فى الجرائد .

والذى فعله الكاتب هو أن استخدم طريقة التعشيق بأن أدخل بين كل فصلين من فصول الرواية أحد أحلامه التى جعل أحد أبطال روايته الرئيسيين (جبريل فاريشتا) هو الذى يحلم بها ويتقمص فيها شخصية الملاك (جبريل) الذى يتفق معه فى نفس الإسم .

الفصل الأول :

يبدأ الفصل الأول بسقوط بطليها الرئيسين جبريل فاريشتا وسالا دين (أو صلاح الدين) من ارتفاع ٣٠ ألف قدم إثر انفجار الطائرة التى كانا يقلانها بالقرب من ساحل إنجلترا بعد أن نشبت داخلها معركة ناريه بين مختطفيها بسبب مواقفهم المتباينة من الرهائن المحتجزين .

يترك الكاتب بطليه الرئيسيين يهويان من هذا الإرتفاع الشاهق ويعود بنا بطريقة (الفلاش باك) إلى نشأة كل منهما منذ الطفولة – الأول فاريشتا نشأ فى عائلة فقيرة أبوه حمال بسيط وأمه صدمها أتوبيس وهو مازال صبيا ومات أبوه أيضاً بعد بلوغه العشرين أثناء قيامه بعمله الشاق فأشفق عليه السيد مهاترى أحد كبار موظفى الشركة التى يعمل فيها أبوه فرعاه هو وزوجته التى لم تنجب وكأنه ابن لهما . وبعد عام من ذلك قدمه إلى أحد أعلام السينما : السيد « درام » الذى قبل على الفور أن يقدمه أدوار سينمائية ثانوية تحت اسم (جبريل فاريشيا) وسرعان ماأصبح النجم الأول فى سماء السينما الهندية بعد أن إحترف تمثيل أدوار الآلهة أو الملائكة بوجه خاص .

ووقع مغشياً عليه إثر إصابته فى حادث أثناء تمثيله لأحد الأفلام وبعد أن أفاق من مرضه بطريقة لاتقل غموضاً عن الطريقة التى سقط بها صريعاً لاحظ فجأة أنه فقد إيمانه بالله تماماً فذهب على الفور إلى أقصر فندق فى المدينة ووقف أمام الناس فى وسط أكبر بهو فيه وتناول كميات كبيرة من الخمر ولحم الخنزير – وفى هذه اللحظات بالذات وقعت عيناه على فتاة أصبحت بعد ذلك أهم شخصية فى حياته وهى بطلة تسلق إنجليزية واسمها آلى طبقت شهرتها الأفاق

وكانت قد ذهبت إلى الهند لكى تتسلق قمة إيفرست . ويقع فاريشتا فى غرامها من أول نظرة ويقضى معها ثلاثة أيام ونصف لايفترقان لحظة ثم تسافر آلى عائدة إلى لندن بينما يعود فاريشتا إلى شقته وقد صح عزمه على اللحاق بها بأى ثمن .

أما صلاح (وهو فى الأربعين من عمره مثل فاريشتا لحظة سقوطهما من الطائرة)

فمنذ طفولته تؤرقه علاقته بأبيه الذى برغم إسمه الإسلامى — غير متدين لا يؤمن بشىء أنانى بخيل من ثرائه الواسع ليس له من هم إلا أن يتربص بإبنه صلاح لكى يباغته وهو يتهيأ لمتعه أو يمارس لذة خفية لكى يفضحه وثلب سعادته نكداً أو يتظاهر بالرغبة فى إسعاده وهو فى الحقيقة ينصب له الكمائن لكى يوقعه فيها . وتختلط عنده شخصية ذلك الأب بصورة الإله المهين القاسى الذى يعذب عباده ويلقى بهم فى الجحيم . ويسافر صلاح إلى لندن لإستكمال دراسته بها ويقوم بالإنفاق على نفسه من خلال حافظة نقود كان قد عثر بها وهو صغير وتمضى سنوات يكمل فيها صلاح دراسته معتمداً على نفسه بعد أن إمتهن التمثيل الإذاعى مستغلاً موهبته الفائقه فى تقليد الأصوات ويتعرف على حبه الأول ماميلا التى تيزوج منها ويفشل فى الإنجاب منها بسبب عيب فيه

وتفتر العلاقة بينهما بعد أن إقتنعت بأنهِ لم يكن يحبها هى (كما كانت تتصور بغرورها وقدرتها السطحية على الفهم) وإنما كان يبغى إرضاء رغبة ذاتية داخله وهى التعلق بإنجلترا نفسها كرمز للقوة التى يتطلع إليها وكانت هى مرحلة فى طريقه إلى تلك القوة .

ويسافر صلاح مع فرقته المسرحية إلى بومباى (وطنه الأصلى) لعرض إحدى المسرحيات بها ويلتقى بإحدى صديقات صباه (زينات وكيل) من الماركسيين التروتسكيين (نسبة إلى تروتسكى أحد المنظرين الشيوعيين فى الثورة الروسية ، وتتوثق العلاقة بينهما ثم يذهب معها إلى أبيه فى البيت القديم ليفاجأ صلاح بوجود امرأة هى صورة طبق الأصل من أمه المتوفاه ويتضح أنها خادم قديم إتخذها والده عشيق لها فى حضور زوجها الخادم ويهزأ الأب بغضب إبنه لذكرى أمه وتنضم زينات إلى جانب الأب لتصير عشيقة ثانية له (أنظر مدى بشاعة الإنحلال) . ويخرج صلاح غاضباً من إهانات أبيه وخيانة صديقته بعد أن قرر أن يغادر الهند نهائياً ويركب صلاح تلك الطائرة المنكوبة والتى يتعرف داخلها على فاريشتا وإثر إنفجار الطائرة يجد فاريشتا نفسه بين الإغماء والإفاقة فى صورة الملاك جبريل ويبدأ الحلم الأول الذى يسميه المؤلف ماهوند .

الحلم الأول :

تدور أحداث هذا الحلم كما يرويها – فى مكة المكرمة التى اختار لها إسماً تذكريا هو (جاهلية) ويصور فيها النبى وهو يدخل فى حوار مع زعيم المشركين يساومه فيها الأخير على تحويل موقفه الهجومى من الأوثان إلى المدح فى مقابل إن تخفف قريش من إضطهاد هاله ولأتباعه فيعده بأن يفكر فى الأمر ثم يعرض هذه الصفق على بعض أصحابه فيحذرونه من الوقوع فى هذا الكمين

ولكنه لايقتنع برأيهم فيصعد إلى الغار وينزل بعد فترة ليقول لهم إن جبريل قد أوحى إليه بآيات جديدة سيقرأها عليهم . ثم يقرأ تلك العبارات الدخيله على جمع يضم أتباعه وعبدة الأصنام معاً فيسجد عبدة الأصنام حين يسمعون مدح آلهتهم . وبعد فترة من إحتجاج أصحابه على ذلك يدرك أن أباسفيان قد خدعه فيغيب ثم يأتى مرة أخرى ليقول إن جبريل قد أمره بحذف تلك العبارات ، وإحلال عبارات أخرى محلها . وهى الآيات المعروفة من سورة النجم — وحكاية الغرانيق هذه (وهو الإسم الذى يطلق على هذه القصة) فضلا عن كونها ليس لها أى سند تاريخى إلا فى بعض الإسرائيليات المدسوسة)إلا أنها تتناقض مع العقل تناقضاً تاماً بينا فليس من المعقول أن يتراجع الرسول ﷺ — حتى على فرض كونه زعيماً بشرياً عادياً — من المنظور العلمانى — عن المبدأ الأساسى الذى قامت عليه دعوته والمصدر الوحيد لباقى مبادئها الأخرى وهو التوحيد لكى يحافظ على هذه الدعوة ولا نعرف أى دعوة ستبقى له بعد ذلك) إن المساومة كما هو بديهى عند كل البشر تتم فى أمور تبعية وليس فى أمور أصولية وحتى إذا بلغ الهوان بأحد القادة أن يساوم فى أمور أصولية فإنه يساوم فى أصول متأخرة فى الترتيب وليس من المعقول أن يساوم فى الأصل الأول الذى هو أصل كل الأصول لأنه لو فعل ذلك فلن تكون هذه مساومة بل خيانة وتنازل تام عن دعوته لن تقوم له بعدها قائمة ويكون من المستحيل بعدها أن يجد أحداً من الأتباع ممن الممكن أن ينصت إليه فى أى أمر من الأمور .

ولو حدث هذا مع مبدأ دنيوى مثل (الدفاع عن حقوق الملونين) وخان القائد هذا المبدأ بالتواطوء مع البيض لفقد مصداقيته تماماً ولم تقم له قائمة بعدها . ولأصبح كلامه عند أعدائه — حتى ولو عاد إلى موقفه الأول — أهون عليهم من طنين الذباب . وهذا ماجعل القاضى بن عياض يعلق على هذه القصة بقوله أنها : « لو كانت صحت لوجدت فيها قريش واليهود فرصة لاتعوض لإقامة الحجة على المسلمين ولكانت سبباً لفتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم وهو مالم يحدث ولم يقل به أحد .

لاتعوض لإقامة الحجة على المسلمين ولكانت سبباً لفتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم وهو مالم يحدث ولم يقل به أحد .

ومن وجه فإننا لو أدخلنا تلك العبارات المفتراة التى تذكرها القصة فى الموضع الذى يشيرون إليه بين آيات القرآن لوجدنا الكلام غاية فى التناقض لمتزج فيه المرح بالذم وتصترع فيه المعانى فيما بينها وكأننا نقرأه أن ٤ = – ٢ + (–٢) = ٢ + ٢ وخلاصة القول فى هذه القصة هى كما يقول إبن إسحق إنها من وضع الزنادقة .

وموقف المؤلف بسرده لهذه القصة لايعنى إلا شيئاً واحداً هو أنه ينعت الرسول ﷺ – الذى خاطبه الله بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » – بأنه مجرد دجال يؤلف أقواله كما يشاء تنزه الرسول عن ذلك وكذب المفترون .

وكيف لا وقد بلغ بسلمان الكفر والوقاحة أن يسمى الرسول ﷺ .

ماهوند و"ما"تعنى بالإنجليزية ضمير للملكية و"هوند" تعنى بالألمانية : كلب وبالإنجليزية كلب الصيد على الخصوص . لعنهم الله وعلى رأسهم سلمان .

الفصل الثانى/

تعثر إمرأة إنجليزية عجوز على الشخصين راقدين فوق الثلوج أمام منزلها الصغير فتأخذهما إلى بيتها وأول شىء يفعله صلاح هو أن يتصل بزوجته فى لندن فيسمع صوت رجل هندى أخر يرد علمه فيعرف أنها تخونه . وقد حدث إثر الحادث تحولات غريبة فى ملامح الإثنين فتظهر حول رأس فارديشتا هالة من نور وأما صلاح فتتغير ملامحه إلى ملامح قاسية جامدة ثم تظهر اختلافات أخرى بحد تأثير إضطهاد الشرطه له فى موقف تخلى عنه فاريشتا فيه فيثبت له قرنان على رأسه ويكتسى جسمه بشعر كثيف ويتحول صوته إلى نغمة واحدة كمأمأة الماعز (وهى الصورة المتعارف عليها للشيطان فى الأساطير الغربية) ولا أعرف كيف تجرأ المؤلف وأمحمهما وهما على هذه الصورة فى علاقات مع البشر . ويحاول صلاح وهو على هذه الصورة أن يعود إلى المنزل فتصرخ فيه زوجته الخائنة مؤكدة أن زوجها قد مات . أما فاريشتا فيصل إلى لندن ويلتقى بحبيبته

آلى بينما يؤرقه بأن الله يعاقبه بالجنون جزاء كفره . وفى هذا الموضع يدخل فريشتا فى حلمه الثانى الذى يسميه المؤلف : عائشة .

الحلم الثانى : يصور الكاتب الإمام الخمينى فى منفاه وهو يحتفظ بصورة لعدوته اللدود الإمبراطورة عائشة وهى تحمل فى يديها جمجمة بشريه مملوءة بالدم الذى تشربه كالخمر . وتذيع إذاعة الإمام بيانات تعلن فيها عن حركته الثورية لاضد الإمبراطورة عائشة وإنما لتوقف التاريخ والزمن . ثم تأتى ساعة الصفر المحددة لقيام الثورة ويلتقى الإمام بفاريشتا فى صورة الملاك جبريل – كما يصوره الكاتب ويمتطى ظهره ليطير به إلى قصر الإمبراطورة التى يصفها بالبغى البابلية وتنضم إليه جموع الثوار الزاحفة نحو القصر فتحصدهم مدافع الحرس حتى تصل الصفوف الزاحفة عبر جثث إخوانهم إلى أبواب القصر ويسكتون المدافع . ويتم إنتصار الإمام ليبدأ عصر جديد عصر بلا زمن .

الفصل الثالث : يأخذ جمبى (عشيق زوجته) رفيق عمره صلاح بعد أن رفضت زوجته بقاءه فى المنزل ، إلى فندق صغير أسمه « فندق شامندار » وبرغم أهل الفندق المثالية معه فى ظروفه تلك ولكنه بمجرد خروجهم من غرفته يغمغم لنفسه : « لست منكم ولستم قومى لقد عشت حياتى كلها أحاول الإبتعاد عنكم » مشيراً بذلك إلى إنسلاخه عن أهل جنسه وتنشر الصحف أبنا عن سفاح مجهول يقتل النساء ويمثل بجثتهن وتحاصر الكراهية الفندق الذى يستقل فيه صلاح الذى ينظر إليه البيعفى على أنه الشيطان نفسه . ثم تسمح زوجه صلاح له – على مضض بالإقامة في غرفة منعزلة بسطح المنزل بعد أن أخذ يعود إلى هيأته بالتدريج ليعبث بالإشتراك مع العشيق تحت سقف واحد . أما فريشتا فكان يخرج هائماً فى الشوارع بصورة غامضة ، وقد سيطرت عليه فكرة تطهير هذه المدينة من الدنس . حالة الشيزوفرانيا (انفصام الشخصية) يعود بعدها فى كل مرة إلى البيت فى حالة يرثى لها من الإرهاق مما يوحى بشكل غامض أن فاريشتا وليس صلاح – هو ذلك القاتل الذى يقتل النساء ليلاً ويتفق فاريشتا بالإشتراك مع صديقه بطوطه وصديقتة ميمى على إنتاج ثلاثة

أفلام مبنية على رؤاه الثلاثه (الجاهلية - الإمام - فتاة الفراشات) ليقوم فيها بدور الملاك جبريل . ويهرب فجأة فى ليلة الإفتتاح وفى هذا الموضع يدخل فى رؤياه الثالثة (العودة إلى الجاهلية) .

الحلم الثالث : يردد الكاتب فى ذلك الحلم تلك النغمة المفضلة لدى الغرب والتى لايمل من تكرارها وهى الحديث عن تعدد الزوجات ولكن الكاتب لايكتفى بما يقوله الغرب فى ذلك وإنما يتهجم فأقصى مايملك من سباب ووقاحة وحقد على زوجات الرسول الطاهرات ﷺ وعلى آله وسلم . فهو يتحدث فيه عن فتح الرسول لمكة وعدم عفوه عن شاعر فهو إختلف قصته وسماه بعل بسبب هجاء للرسول ﷺ ، فلجأ ذلك الشاعر إلى عصابة من القوادين إختلف قصتهم أيضا وجعلهم يمارسون نشاطهم مدة ثلاث سنين بعد الفتح . وتقوم هذه العصابة - كما اخترع - بالتشهير بأزواج الرسول ﷺ ويشهر هذا الشاعر بأمهات المؤمنين وخصوصا (عائشة وحفصة) إلى الدرجة التى يسمى فيها غرف البغايا بأسمائهن ولا يفوقه بالطبع أن يورد حديث الإفك الذى أشاعه المنافقون . ويختلف أيضا قصة هى غاية فى ذاتها فى تكذيب القرآن وإنكار نبوة الرسول ﷺ ورميه بالكذب والبهتان والدجل وهو أشرف الخلف أجمعين تحكى تلك القصة المختلفة أن سلمان كان يحرف فى الآيات التى يمليها عليه الرسول دون أن ينتبه الرسول ﷺ لذلك : مما جعل سلمان ينضم إلى صديقه بعل . ويتذمر رشدى فى هذا الحلم من كثرة التكاليف الشرعية وهو مايعبر عما يعمل فى نفسه من تمرد إباحى على قواعد الإسلام وأسسه الأخلاقيه . أما إتهاماته التى اتهم بها الرسول ﷺ فهى مجرد ترديد للتهم التى توجهها المنظمات الصليلية العالمية التى تعتبر الإسلام دين الشيطان مما جعل بعض المحللين يذهبون إلى أن هذه المنظمات هى التى كانت وراء فعله سلمان رشدى .

الفصل الرابع : يبلغ حقد صلاح على فاريشتا حداً إنتقامياً لأنه (قاهر لندن) الذى نجح فى كل مافشل فيه صلاح . فيلاحق كلا من فاريشيا وآلى كوهين

بمكالمات هاتفية لمجهول مستغلاً فى مقدرته الفائقة على تقليد الأصوات ومستغلا أيضاً المعلومات التى علمها من فارشتا عن آلى وعلاقتهما ببعض . فيحطم أعصابهما وتتصاعد حمى الكراهية بين البيض والملونين حتى تتوجه مجموعة من الغوغاء إلى الفندق وتضرم النار فية وبلا قصد يتواجد فاريشتا وصلاح فى الفندق فى ذلك الوقت حيث تلتقى عيونهما المذعورة لحظة خاطفه تكون كافية لكى يدرك فاريشتا فجأة أن صلاح هو صاحب الألف صوت فيطارده لينتقم منه فتسقط على صلاح فجأة قطعة كبيرة من الخشب المشتعل فيتعرض بذلك للموت فيتقدم فأرتشتا لا ليجهز عليه ولكن لإنقاذه . ويقتل الغوغاء زوجة صلاح وعشيقها جمبنى ويدخل فاريشتا فى حلمه الرابع الذى يسميه المؤلف : إنشقاق البحر العربى .

الحلم الرابع : إختار لبطلة هذا الحلم نفس الإسم الذى إختاره لربه الشر الإمبراطورى (غائشة) فى الحلم الثانى فيتحدث عن فتاة قروية فقيرة يتيمه تظهر عليها أعراض غريبة فهى كلما مشت تبعتها الفراشات الملونة بالألاف تظللها من حرازة الشمس وتستر جسدها العارى من الثياب وتجعل من نفسها طعاماً لها . ثم تتحول هذه الفتاة إلى كاهنة تزعم أن الوحى أمرها أن تخرج هى وأهل قريتها فى مسيرة إلى مكة سيرا على الأقدام ويبشرها بأن البحر العربى سينشف لهم بمجرد وصولهم إليه فيتبعها أهل القرية وتستمر المسيرة بالفعل ويشهد الجميع بإنشقاق البحر لهم إلا العمدة المؤمن بالعلم . والمسألة كلها ليست إلا إضفاء جو من الطقوس السحرية الأسطورية على الشرق بوجه عام تلبية لرغبة الأوربيين الذين يحبون دائماً أن ينظروا إليه فى تلك الصورة .

الفصل الخامس : يعود صلاح إلى أبيه فى إنقلاب شعورى مفاجىء وكان مشرفاً على الموت بل ويموت بالفعل بعد أن يؤكد له أنه لم يكن قط مؤمناً بشىء وأنه ليست لديه أوهام عن العالم الاخر . ويرث صلاح ضمن ميراثه عن أبيه مصباحه العجيب الذى يشبه مصباح علاء الدين ويحكه وهو يطلب أمنية واحدة هى أن يرى صديقته الشيوعية زينات (التى خانته قبل ذلك مع أبيه !) فتظهر فجأة وكأنها خرجت من المصباح ويعاودان علاقتهما القديمة محاولة إقناعه بالإشتراك في نشاطها السياسي. أما فاريشتا فإنه هو الآخر يذهب إلى الهند بعد فشل فيلميه الآخيرين وأفول نجمه فى عالم السينما . وتذهب عشيقته إلى الهند فى مغامرة تسلق جديدة يصاحبها فيها المنتج السينمائى . وتنتهى القصة بقتل فاريشتا لعشيقته وصاحبها وإنتحاره أمام صلاح وعشيقته زينات . وللننتهى نحن من عرض كل هذا (العلك) الذى أراد صاحبه ومن وراءه التهجم والإفتراء على الإسلام من خلاله .

الباب السابع
منهج جديد مقترح للحوار مع العلمانيين
رأى علماء الإسلام فى العلمانية
من الناحية الشرعية

خلاصة الدعوة العلمانية كما يطرحها أهلها (أى حتى فى شكلها المعلن) هى عزل الدين عن شئون الحياة والحكم وحصره فى حدود العلاقة بين الإنسان وربه . أى أنها محاولة لتجزىء الإسلام وذلك بقبولهم بعضه ورفضهم للبعض الأخر . فما هو رأى علماء الإسلام فى ذلك .

يقول العلامة المودوى[1] عن شمولية الإسلام وعدم قابليته للتجزئة : (الإسلام هو عبارة عن الصورة المتكاملة المتشابكة التى تقررها الشريعة للحياة الإنسانية ، وما هو بعبارة عن أجزائها وفروعها المختلفة ، فلا يصح أن نقطع أجزاءه ونجعل كل جزء منه مستقلاً عن غيره ثم نحكم عليه بشىء ونرى فيه رأياً كما أنه ليس لأحد أن يقول إذا أقام بعض أجزائه أنه قد أقام نصف الإسلام أو ربعه هذا أو سدسه ، ولا أن يحسب إذا ربط جزءاً أو بعض أجزاء منه فى نظام آخر للحياة أنه قد أدخل فيه الإسلام بقدر هذا الجزء أو هذه الأجزاء . إن الشارع إنما شرع هذا ورسم صورته لإقامتها كاملة متعانقة ولم يرسمها ليأخذ الآخذ الجزء الذى أعجبه من أجزائها ويقيمه حيث أراد سواء كان معه بقية الأجزاء أو لم يكن) .

أى أنه لو كانت المسألة كما يدعون هى أخذ بعض الإسلام وترك بعضه الآخر الذى لا يتناسب — من وجهة نظرهم — مع التطور المعاصر فهى كما يقول القرآن نفسه : كفر صراح ، يقول الله تعالى فى سورة البقرة : «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون» ، ويقول جل شأنه فى سورة النساء : **﴿إن الذين يكفرون بالله**

(١) القانون الإسلامى ومشاكل تطبيقه .

ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ راجع سورة النساء ١٥٠ ، ١٥١

أى أن العلمانية التى يطرحها أهلها الآن هى ــ على فرض غير موضوعى بصدق نواياهم ــ محاولة لتجزىء الإسلام وذلك بقبولهم لبعضه ورفضهم لبعضه الآخر . وهذا إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة وهذا ما حذا بعالم جليل (معروف بالإعتدال) كالشيخ محمد الغزالى أن يفتى بأن كل من يدعو إلى العلمانية يعتبر مرتداً .

وألف الدكتور محمد البهي(وزير الأوقاف السابق) كتابا عن العلمانية سماه : العلمانية ، وتطبيقها فى الإسلام .. إيمان ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر .

ويقول الدكتور عدنان النحوى فى كتابه « الشورى لا الديموقراطية » : « العلمانية فصل للدين عن الدولة : كفر صراح » .

ويقول الدكتور يحيى هاشم فرغل[٢] (رئيس قسم العقيد والفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر سابقاً) : أن العلمانية بمفهومها «المتسامح» والذى يكتفى بالفصل بين الدين والحياة ، قد لا تعنى الإلحاد فى العقيدة المسيحية ، ولكنها تتطابق معه فيما يتصل بالعقيدة الإسلامية سواء أخذناها بمفهومها المتسامح أو بمفهومها المتشدد ــ الذى يصر على القضاء على الدين ــ غاية ما فى الأمر أنا لا نحكم به ــ أى الإلحاد ــ على معتنق العلمانية مطلقا ولكننا نحكم به على أولئك الذين يصرون عليها بعد تعريفهم بهذا التطابق .

وهذا أيضاً ما صرحت به رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة السعودية حيث جاء فى بيان لها عن نواقض الإيمان فى فقرة خاصة موجهة إلى العلمانيين :

(٢) حقيقة العلمانية بين التخريب والخرافة .

من اعتقد أن هدى غير النبى ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غيره عنده أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه ، فهو كافر ومن ذلك :

إعتقاد أن الأنظمة والقوانين التى يسنها الناس أفضل من شريعة الله .

أو أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه فى القرن العشرين .

أو أن الإسلام كان سبباً فى تخلف المسلمين .

أو أنه يحصر فى علاقة المرء بربه دون أن يتدخل فى شئون الحياة الأخرى .

القول بأن إنقاذ حكم الله فى قطع يد السارق أو رجم الزانى المحصن لا يناسب العصر الحاضر .

إعتقاد أنه يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فى المعاملات الشرعية أو الحدود أو غيرها وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرم الله إجماعاً ، وكل من إستباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمور والربا والحكم بغير شريعة الله فهو كافر بإجماع المسلمين .

حقيقة العلمانية من الناحية الفكرية
وموقفها من الإلحــاد

اصطلح الكتاب والمفكرون إطلاق لفظ الإلحاد على كل من ينكر مبدأ الألوهية . وعلى ذلك فإن الإلحاد هو أمر أبعد شططاً من الكفر ذاته .

فلفظ الكفر فى الإسلام يتسع ليشمل كل الذين لا يؤمنون بالدين الإسلامى وبرسوله الكريم ﷺ . سواء كانوا يؤمنون بدين آخر سماوى أو غير سماوى أو لا يؤمنون بأى دين أو لا يؤمنون بمبدأ الألوهية ذاته ولكن هؤلاء المشار إليهم أخيراً هم أبعد شططاً فى الكفر من كل الذين سبقوهم .

وأنت إذا أردت أن تعد نفسك إعداداً سليما لمواجهة عدوك فلابد أن تعلم

جيداً أين يقف وكيف يفكر وما هى القواعد الأساسية التى يستند عليها وتنطلق منها هجماته ، ولذلك كان لابد لنا أن نحدد موقف الفلسفات العلمانية التى تسود الآن من قضية الألوهية ذاتها .

أما الفلسفة الماركسية أو ما يطلق عليها بالمذهب الشيوعى فإن موقفها واضح من هذه القضية حيث أن الموقف المعلن لهذا المذهب يمثله قول ماركس : «إن الدين هى وسيلة الأغنياء لتخدير الفقراء وإلهائهم عن حقوقهم وإنه يجب القضاء على الدين لإنقاذ هذا العالم الغارق فى الدموع» .

وكذلك القول الشهير للينين : «الدين أفيون الشعوب» .

فهذه هى نظرة الشيوعية للأديان كلها وكذلك للعقيدة الألوهية ذاتها حيث لا ينظرون إليها إلا على أنها مجرد اختراع خادع القصد منه تلهية الفقراء عن حقوقهم بنشدانهم العدل عند الله بدلا من تحقيقه فى هذا العالم .

وتنقسم الفلسفة الوجودية إلى وجودية ملحدة ووجودية مؤمنة . وأما الوجوذية الملحدة وينتمى إليها أغلب الوجودين من أتباع هيدجر وسارتر والبيركامو وسيمون دى بوفوار فهم لا يؤمنون إطلاقاً بوجود الله بل وتنطلق فلسفتهم من ذلك القول الذى جاء على لسان أحد أبطال رواية (الأخوة كارامازوف) لديستويفسكى وظل يردد أنه المبدأ الأساسى الذى تنطلق منه فلسفته : (إذا لم يكن الله موجوداً فكل شئ مباح) .

أما أتباع الوجودية المؤمنة (وكان كيركجارد هو أول من قال بها) فهم قلة قليلة عندنا ويحاول بعضهم أن يوفق بينها وبين الإيمان الإسلامى وهى محاولة مستحيلة تماما لأن الإسلام كما رددنا مراراً لا يقبل التوفيق أو التلفيق مع أى فلسفة أو مذهب آخر فضلا عن كونه لا يحتاج لأى شئ من خارجه لكى يستكمل به إنسجامه مع من يريد الإيمان به .

ولكن أغرب الوجوديين جميعاً وأخطرهم فى التأثير هم الوجوديون العبثيون فهم ليس لهم أى موقف فلسفى محدد فقد يؤمنون بالله بعض الوقت ثم قد

يكفرون به فى وقت آخر بحسب ما يملى عليهم عبثهم وهؤلاء لهم من يمثلهم عندنا .

أما فلاسفة الوضعية المنطقية من أمثال «رودلف كارناب» أو «الفريد . ج . آيد» فهم لا يؤمنون إلا بالقضايا العلمية التى تربط بالتجربة وفى هذا النطاق فقط يقيمون فلسفتهم ، أما إذا كان ثمة شيء فيما وراء الطبيعة فإن هذا الشيء — من وجهة نظرهم — لن يكون قابلاً للصياغة أو التعقل ولذلك فهم ينظرون إلى القضايا الدينية على أنها قضايا زائفة لا تقبل التحقق التجريبى . وعلى ذلك فإن «ايد» يعتبر أن قولنا «الله موجود» مجرد لغو فارغ لا معنى له على الاطلاق[٣]

وقد يشتبه الأمر فى فلسفة مثل الفلسفة البراجماتية ونقصد بذلك الفلسفة البراجماتية عند وليم جيمس بالتحديد لأن البراجماتيين الآخرين من أمثال جون ديوى فموقفهم المنكر للدين والألوهية واضح تماماً أما وليم جيمس فإنه لا يقول : إن الله موجود ، ولكنه يقول : إن الإعتقاد فى الله مفيد وذلك لأنه «لابد أن نتمتع بإلهنا لو كان لدينا إله» أى أنه أراد أن يستعيض بالإعتقاد فى الله عن الإيمان بالله أو بقول آخر فإنه لا يؤمن بالله على الإطلاق ولكنه يرى أنه من الفائدة للبشر يعتقدوا أنه موجود حتى ولو لم يكن موجوداً فى الحقيقة . وكما نرى فإن المحصلة من ذلك أن جيمس أيضا لا يؤمن بوجود الله إيماناً حاسماً وإنما هو يصطنع الإيمان به وعلى ذلك فإن موقف الفلسفة البراجماتية من قضية الألوهية لا يختلف — من حيث المضمون — عن غيرها من الفلسفات الملحدة .

وأخيراً فإننا لابد أن نشير إلى أن هناك بعض الجهلاء والسطحيين الذين يرددون مقولات هؤلاء العلمانيين وهم فى غفلة تماماً عن تناقض هذه المقولات مع حقائق الإسلام وكذلك عما تنطوى عليه من كفر وإلحاد ولذلك فإنه ليس من الجائز وصف هؤلاء المنخدعين — وأغلبهم الشباب — بالكفر والإلحاد ،

بل إن بعضهم قد يكون على حالة فطرية من الحب والإخلاص الشديد للإسلام . وإنما نقصد بهذه الأوصاف هؤلاء العلمانيين المصريين على مواقفهم الداعين إليها المعلنين إنتمائهم إلى هذه المذاهب والفلسفات الملحدة .

ولكن هناك سؤال ينبغى طرحه الآن وهو : لماذا اتفق أتباع هذه المذاهب على التكاتف والتوحد وراء شعار الدعوة إلى العلمانية .

أجيب على ذلك فأقول : لقد فعلوا ذلك للأسباب التالية :

أولاً : لأنها الفكرة الأم التى انبثقت عنها كل هذه المذاهب والفلسفات ولذلك فهى تمثل الحد الفلسفى الأدنى الذى يثقف عليه كل هؤلاء الأخوة الاعداء .

ثانياً : لأن مفهوم العلمانية مازال غامضاً وملتبساً عند الكثير من الناس وذلك بخلاف تلك المذاهب المختلفة التى تعنى عندهم الكفر الصريح والعداء الواضح للإسلام ولذلك فلقد اختاروا العلمانية كواجهة مزيفة يخفون ورائها وجوههم القبيحة المعادية للإسلام .

ثالثاً : لأنها الخطوة الأولى مبدئياً التى ارتضاها اتباع هذه المذاهب لأقصاء الإسلام عن دوره الحضارى فى قيادة المسلمين لتكون الخطوة التالية بعد أن يتوطد لهم الأمر هى الصراع بين اتباع هذه المذاهب المختلفة على من يرث القيام بالدور الحضارى والقيادى الذى كان يقوم به الإسلام .

الواقع الفكرى والمنهج المقترح للحوار مع العلمانيين

الواقع الفكرى :

لقد إلتجأ العلمانيون إلى كل وسائل الإحتيال الفكرى لخدمة أهدافهم الإلحادية فبدلا من أن يعلنوا موقفهم الإلحادى من الإسلام وكل الأديان على السواء كما تقتضى تلك الفلسفات والمذاهب التى ينتمون إليها قالوا إننا نقبل

الإسلام دينا ولا نقبله شريعة ثم رددوا إدعاءاتهم الكاذبة المدسوسة التى أصابها الجمود والبلادة من كثرة تكرارها بعد أن نقولها نقلاً عن أساتذتهم المستشرقين مثل عدم صلاحية الشريعة للتطور ومعارضتها للوحدة الوطنية واحتوائها للكليات دون التفصيلات وظلمها للمرأة ودورها فى الحياة .

ويكتبون فى ذلك تلالاً من المقالات والكتب يؤكدون فيها مدى إيمانهم بالإسلام السمح الحنيف الذين هم أعلم الناس به حتى من المتخصصين الذين أفنوا أعمارهم فى دراسته بل وأئمة الأزهر أنفسهم .

وكونك ترضى لنفسك أن تكتب الصفحات الطوال فى كلام لا تؤمن به وتحدد لنفسك المواقف الفكرية التى تقوم على أساسها محاوراتك ومساجلاتك مع الآخرين وأنت أعلم الناس بمدى كذب وادعاء هذه المواقف فأنت بذلك تقوم بدور وضيع من الإحتيال الفكرى . وأما كتاباتك ومحاوراتك وكل نشاطك فى هذا الإتجاه فما هى إلا تعبير دقيق عن إنحطاط الفكر وفراغ محتواه لأنك إذا بدأت بموقف كاذب وهو هنا إيمانهم بالإسلام كدين وعدم إيمانهم به كشريعة وهم فى الحقيقة لا يؤمنون به لا دين ولا شريعة . أقول انك لو بدأت بموقف كاذب كهذا فإن كل ما تقول به من اراء بناء على هذا الموقف فهى أراء كاذبة أيضاً كما أن محاوراتك الفكرية التى تقوم على هذا الغرض والتى كرست من أجلها مجهودك الفكرى ما هى إلا تبديد وضيع لذلك المجهود فى الإحتيال والنصب والإدعاء وتشارك بعملك هذا بدور نشيط للغاية فى مرحلة تاريخية هامة من الإنحطاط الفكرى .

وهذا الذى شرحناه هو غاية ما يفعله العلمانيون الذين يقال عنهم رواد الفكر العربى .

وأنّى لنا أن نصدق أن الغوغائيين من الماركسيين الملحدين الذين يكنون العداء للدين الإسلامى بالذات بسبب عقدهم الخاصة أنّى لنا أن نصدق أن هؤلاء يؤمنون بالإسلام كدين تعبدى ولكنهم لا يؤمنون به كشريعة تتناسب مع تطورات العصر .

وأنّى لنا أن نصدق أن أحد أساتذة الفلسفة الطبيعية التى تسفه من الإعتقاد بأى وجود لا يمكن إدراكه بالحواس أنّى لنا أن نصدق أنه يؤمن بالإسلام كدين ولكنه يعتقد أن الشريعة الإسلامية أتت بالكليات ولم تأت بالفروع ولذلك يجب الإعتماد على أنفسنا فقط (وهو ما يعنى عنده الإعتماد على ما يمكن من تشريعات الغرب) فى التشريع .

وأنّى لنا أن نصدق أن أحد أساتذة الفلسفة الوضعية التى لا تعترف إلا بالقضايا العلمية التى يمكن تحقيقها تجريبياً والتى تعتبر قولنا : «الله موجود» مجرد لغو فارغ لا معنى له أنّى لنا أن نصدق أنه يؤمن بالعقائد الإسلامية بحيث لا تخرج عن نطاق الإعتقاد القلبى ولكنه لا يؤمن بأن تطبيق التشريعات الإسلامية المنزلة على العصر الراهن من مقتضيات ذلك الإيمان .

وأنت لا تفهم ما هى المبررات الفكرية التى يستند عليها هؤلاء العلمانيون فى إلتجائهم لمثل هذا الزيف لأن الحالة الراهنة هى خير فرصة للحوارات الفكرية الحرة وهناك من يكتبون كل ما يمكن أن يقال عن أى شىء بشكل سافر دون رهبة من أحد فلماذا لا يعلنون مواقفهم الحقيقية لكى تقوم محاوراتهم على أساس سليم ؟ إلا أن يكونوا خائفين من غضب الجماهير من هذه الآراء وهو مبرر يفقد مصداقيتهم تماماً لأنهم ماداموا يعلمون رغبة هذه الجماهير الكبيرة فى تطبيق الإسلام فلماذا يقفون فى وجهها وهم الذين يرددون دائما أنهم ينطلقون فى كل مواقفهم من المنطلق الديمقراطى .

ومع هذا الواقع فإننا نتسائل : ما الجدوى من الحوار مع شخص لا يؤمن بالإسلام أصلاً حول صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان مثلاً أو محاولة إقناعه أن حجاب المرأة المسلمة هو فرض من الله سبحانه وتعالى بينما هو يدعى أنه ليس بفرض وأنه أعلم من علماء المسلمين بذلك أو .

إن هؤلاء العلمانيين أعلم الناس بأن أى مقولة من هذه المقولات التى يرددونها كافية جدا لخروجهم من الدائرة الإسلامية تماماً ونحن إذا حاولنا

إقناعهم بأن الرؤية الإسلامية السليمة تقول غير ذلك نكون قد شاركناهم مشاركة فعلية فى النشاط الفكرى المزيف الذى يروجون له لأننا سنساعدهم بذلك على الحصول على المسوغ الأدبى لمد نشاطهم الإعلامى المضلل الذى يعمل على ترسيخ مثل هذه الأفكار فى نفوس الناشئة والجهلاء . وبالإضافة إلى ما سبق فإنهم يكتسبون ثلاثة أشياء أخرى غاية فى الأهمية .

أولاً : أننا نمنحهم مشروعية الخوض فى الإسلام يمثل هذا الكلام والتشكك فيه بإدعاء مثل تلك المقولات : بدلاً من أن نناقشهم على أساس موقفهم الإلحادى الحقيقى حول الإسلام أو اللاإسلام .

ثانياً : أننا نمنحهم فرصة المحاورة والمناورة داخل ملعبنا وبذلك يحتفظون بملعبهم (الإلحادى) بمنأى عن أى هجوم . بمعنى أن أفكارهم الحقيقيه والفلسفات والمذاهب التى ينتمون إليها تظل بعيدة عن الحوار فلا تتعرض للنقد ولا يوجه إليها الانتباه فتظل تعمل فى الخفاء .

ثالثاً : أننا بذلك نمنحهم فرصة الإحتفاظ بالموقف الهجومى على الدوام بينما نحن نحتفظ بالموقف الدفاعى على الدوام . فهم يرددون إحدى المقولات ونحن نرد عليهم ببطلانها ثم يرددون غيرها ونحن نرد عليهم ببطلانها ... وهكذا على الدوام وبذلك يظلون محتفظين بعقدة الخيط فى أيديهم .

هذا فضلا على أننا نشاركهم بهذه الطريقة فى الإنحطاط الفكرى الذى أشرت إليه آنفاً والذى يبدد المجهود سدى ولا يثمر عنه أى إبداع ويصرف النظر عن الكثير من القضايا الهامة التى يجب علينا تناولها . لأن غاية ما يدور فى هذه الحوارات هو ترديد لما سبق أن دار بين المستشرقين وبين المفكرين الإسلاميين الكبار الذين واجهوهم واثبتوا بطلان إدعاءاتهم . فهم ينقلون عن أمثال ماكدونالد ومرجليوث وجيب ونحن ننقل عن أمثال محمد عبده والعقاد والمودودى وإقبال مع بعض التطوير الطفيف فى الحوار هنا وهناك .

والخلاصة من كل ما سبق : أننا إذا عملنا على تركيز جهودنا على تفنيد

الإدعاءات والدعاوى التى يرددها العلمانيون فإننا بذلك نترك جيوش الغزو الفكرى الحقيقية من ماركسية وبراجماتية ووجودية ومنطقية ووضعية تصنع بمعطياتنا الإسلامية العقائدية والتشريعية والحضارية الأفاعيل بينما نحن نبدد وجودنا عبثاً فى الصراع مع جيوش ورقية مصطنعة تسمى الأفكار العلمانية ولكى نكون موضعيين مع أنفسنا فلابد أن نعترف أن هناك سببين وجيهين ألجئا المفكرين الإسلاميين المعاصرين إلى الوقوف إلى هذا الموقف الدفاعى

أولهما يتعلق بمدى الجرأة الفكرية التى نملكها فى تلك الظروف السياسية الراهنة والتى لا تسمح بتكفير أحد حتى لو قال هو عن نفسه : إنى كافر ، وهو ما استغله العلمانيون برفع عصا الإتهام بالعمل على تكفير المسلمين فى وجه كل من يحاول كشف حقيقتهم الملحدة ومناقشتهم على أساس هذا المنطلق السليم .

أما السبب الثانى فهو الخوف على جماهير المسلمين البسيطة وخصوصاً النشأ من الشباب من التأثر بمثل هذه الأفكار .

المنهج المقترح :

فى الغالب ما تنقسم كتابات العلمانيين إلى نوعين من الكتابات أولهما : الكتابات المتخصصة (خصوصاً فى الميدان الفلسفى) أو الموجهة إلى أتباعهم ومريديهم . أما الثانى فهو الكتابات الموجهة إلى الجمهور بوجه خاص والتى يرددون فيها الأفكار العلمانية التى تحدثنا عنها .

وعلى ذلك وللأسباب الأخرى التى سبق الإشارة إليها فإننا نقترح المنهج الآتى فى المناقشة والحوار مع العلمانيين .

● يجب دراسة المذاهب والفلسفات الحقيقية التى ينتمى إليها العلمانيون ودحضها منن الناحية الفلسفية وإظهار مدى تناقضها مع الإسلام .

● يجب دراسة كتاباتهم المتخصصة أو الموجهة إلى اتباعهم ومريديهم وإظهار مدى إتفاق المقولات التى جاءت فيها مع مقولات هذه المذاهب والفلسفات

ومن هنا يمكن مناقشتهم على أساس إنتمائهم إليها هذا فضلا عن وضوح التناقض بين مقولاتهم (حتى بوضعها المجرد) عن المقولات الإسلامية .

● إظهار مدى تباين مواقفهم الفكرية بين كتبهم المتخصصة وكتبهم الموجهة للجمهور تحت شعار العلمانية .

● إظهار مدى التناقض بين مقولاتهم العلمانية ذاتها .

● إظهار مدى التطابق بين مقولاتهم والمقولات التي يرددها المست[illegible]رون فى كتبهم وكيف أن ذلك يعنى أن جهودهم الفكرية تقف عند حد النقل والتقليد .

● إظهار مدى تطابق مواقفهم مع المخططات الإستعمارية وكيف أن ذلك يعنى أن جهودهم الإصلاحية تقف عند حد العمالة .

● الإهتمام بتوعية الجماهير والنشأ بوجه خاص بالحقائق الإسلامية التى كثيرا ما تثار عليها الشبهات من جهة أعداء الإسلام . ويجب تنمية هذا الوعى لديهم ومعالجته بشكل مدروس ومتعمق ومستقل دون الانتظار حتى يطرح العلمانيون إدعاءتهم وشكوكهم ثم يأتى الإسلاميون فى مرحلة متأخرة قد لا تستطيع إزالة الآثار السلبية والتشوهات التى تركتها هذه الإدعاءات والشكوك فى النفوس هذا فضلا عن أن الظروف الإعلامية قد لا تسمح بنشر هذه الردود إلا بشكل مقتضب .

● كل ما سبق لا يعنى إهمال الرد على مقولات العلمانيين وإدعاءاتهم وشبهاتهم ولكن المقصود به هو توجيه الجهود الأكبر إلى دحض أفكارهم الحقيقية والمذاهب والفلسفات التى ينتمون إليها ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الردود على المزاعم لأنه يكون من العبث أن نبدد جهودنا كلها فى الصراع مع جيوش ورقية تسمى الأفكار العلمانية بينما جيوش الغزو الفكرى الحقيقية التى ينتمون إليها تنخر فى عقول شبابنا المسكين .

الباب الثامن
دراسة نقدية لأهم الفلسفات العلمانية المعاصرة
أولا : الفلسفة البراجماتية

● **مدخل :**

بالرغم من أن الفلسفة البراجماتية (أى العملية النفعية) لا تمثل خطراً أيديولوجياً يطرح فى مواجهة الفكر الإسلامى فإنها أهم الفلسفات الحديثة التى تستحق الدراسة والتحذير من خطرها . إنها فلسفة الإختراق والإختزال والتأويل . إنها فلسفة لن تجادلك كثيراً وتقول لك أن ما تؤمن به من عقائد هو وهم وخداع ولكنها تستطيع بطريقتها فى الإختراق والتمويه والتمرير أن تختزل كل الأفكار التي تؤمن بها وتحيلها إلى مجرد البحث عن المنافع بل وتستطيع أن تحيل الحقيقى الإيمان بالعقائد إلى الإيمان بالوهم والخداع ذاته ، هذا مثل كل ما هو أمريكى .

ولأننا نقع فى ظل هيمنة أمريكية فرضتها علينا ظروف سياسية بالغة التعقيد نخص منها بالذكر ما أدت إليه الحقبة الساداتية من تغلغل للنفوذ الأمريكى فى المنطقة فإن ذلك قد أدى بدوره إلى تغلغل الافكار النفعية فى أعماق مجتمعنا المصرى ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولقد انزلقت البلاد فى الحقبة الساداتية إلى هاوية من الفقر والجوع والتبعية الذليلة وفقدان الهدف وضياع الهوية وانهيار القيم فكان ذلك خير بيئة لأن تنمو وتترعرع فيها المفاهيم النفعية التى علمت الناس أن المنقذ الوحيد من هذا الضياع هو الأنانية وأن الحق الوحيد فى هذا الجحيم هو الانتهازية .

ولقد استطاعت هذه الفلسفة فى تلك الظروف السابقة أن تغزو مجتمعنا من خلال محاور ثلاثة (السياسى والاقتصادى والإعلامى) .

ووقع الشعب المصرى بين شقى الرحى بين فقر طاحن لا يرحم يذهل الإنسان عن نفسه ومن حوله من جهة وبين أفكار نفعية غازية تدفعه إلى الحصول على المنافع بأية طريقة وتقول له إن ذلك هو الحق الوحيد فى هذا العالم . فالفلسفة البراجماتية هى الفلسفة التى تجعل من المنفعة العملية المعيار الوحيد للحكم على الأشياء أو الأفكار فالحقيقى هو كل ما يأتى عن تجريبه أو تطبيقه منفعة عملية أما كل ما هو غير ذلك فهو لاشيء[1] .

● **الطريقة البراجماتية :**

يقول وليم عن الاتجاه البراجماتى : «إنه اتجاه تحويل النظر بعيداً عن الأشياء الأولية ، المبادىء ، النواميس ، الفئات ، الحتميات المسلم بها ، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة ، الثمرات ، النتائج ، الآثار ، الوقائع ، الحقائق[2]

والبراجماتية ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية أو أية مذاهب أو مبادىء اللهم إلا طريقتها ومناهجها ، وأسماء مثل الإله ، المادة ، العقل ، المطلق لا نستطيع اعتبارها نهاية مطاف سعينا نحو الحقيقة ، إذ يتعين على الإنسان من وجهة نظره أن يخرج من كل كلمة قيمتها النقدية الفورية العملية وأن يمرسها على العمل بإظهار كيفيتها فى نطاق مجرى خبرته وعندئذ فهى لا تبدو حلاً بقدر ما تبدو برنامجاً أو منهاجاً للمزيد من العمل ، ومن ثم فإن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا حلولاً لألغاز ولا إجابات عن أحجبة نستطيع أن نسكن إليها[3] فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتى وسنفوز بالنجاة من الجدل الباطل العقيم فإذا لم يكن ثمة فرق بحيث بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك ، فإذن فالاثنان حقاً عبارة واحدة فى شكلين كلاميين . إذا لم يكن ثمة فرق عملي يحدث سواء كانت عبارة معينة

(١) راجع بتوسع فى موضوع البراجماتية كتاب (إحذروا الإسلام النفعى) للمؤلف .

(٢) ، (٣)، (٥)، (٦)، البراجماتية .

صحيحة أم باطلة ، إذن فالعبارة ليس لها معنى حقيقى وفى كلتا الحالتين فليس هناك شئ يستحق أن نتنازع من أجله ، وأولى بنا أن نوفر جهدنا ونمضى إلى أمور أكثر جدوى وأهمية »(٤) .

وإن الحقائق ينبغى أن يكون لها نتائج عملية ، ولكن ما هى النتائج العملية التى تهمنا ؟ يجيب على ذلك بأنها النتائج النافعة فقط .

● **المفهوم البراجماتى للحقيقة :**

إن الحقيقى فى أوجز عبارة «ليس سوى النافع الموافق المطلوب فى سبيل تفكيرنا تماماً ، كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب فى سبيل مسلكنا »(٥)

والبراجماتية لا تمثل ولا تناصر أى نتائج معينة من طريقتها كما أن حيازة الحقيقة عندها بعيدة كل البعد عن أن تكون غاية فى ذاتها فهى لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الاشباع والرضا والسرور والحق يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف (أى البحث عن أيهما أنفع إما إذا لم يرتبط بذلك فإن الحق يتساوى مع الباطل ولأن الحقيقة ترتبط بالنتائج البراجماتية فهى نفسها فى حالة تغير وتبدل وإنتقال(٦) ولابد لنا الآن أن نتسائل :

إنه حتى لو كانت المنفعة هى الهدف الوحيد فكيف يمكننا بغير الحق أن ندرك ماهى هذه المنفعة ولكن جيمس يقلب الأمور كلها رأساً على عقب باستهتار ولا مبالاة شديدين ، فهو لا يبحث عن الحق كفاية أو كهدف فى ذاته ومادامت الفكرة نافعة فليس مهماً عنده كونها حقاً أو باطلاً بل ليس مهماً الموضوع الذى تؤدى إليه أيا كان «لاحظ مدى اللا مبالاة فى هذا الكلام ــ

وهو لجيمس — بمصالح الآخرين لا تكون الفكرة نافعة لهم» ومادامت المنافع تتغير وتتبدل بتغيير الظروف والأحوال فلابد أن يلازمها الحق فى تبدلها وتغيرها . وهكذا نستطيع أن نفهم جيمس جيداً .

فالفكرة عنده تكون حقاً إذا أدى تحقيقها إلى مايريد ومادامت فكرة المنفعة العامة لم تكن هدفاً حقيقياً لجيمس ومادامت هى نفسها من المستحيل الاحتكام إليها كمقياس للحقائق ، فإن الذى يترسب لدينا هو الآتى :

أن الفكرة لدى البراجماتى تكون حقاً إذا كان تحقيقتها يؤدى إلى مايريد هو نفسه ، أياً كان هذا الذى يريده ، وبلا مبالاه فى النتائج التى قد تصيب الآخرين الذين لا يرون النفع فى تحقيق تلك الفكرة ، المهم أن يصير الأمر بالنسبة لصاحبه — بتعبير جيمس نفسه — على مايرام .

لقد كان الحق هو الغاية لكل الفكر الإنسانى لكن الرجل جعل الحق هو مجرد وسيلة إلى الفوائد والمنافع الشخصية بإضفاء صفة الحق عليها ، ولكن الأهم من ذلك كله أنه يخلط بين الحقائق والوسائل بطريقة تؤدى إلى تذويب الحقائق بشكل مطلق ونهائى .

والرجل يعنى جيداً مدى ضعف نظريته منطقياً ، وأنه لايقدم أى مفهوم يقينى للحقيقة أو حتى راجح الصحة ، وهو حتى لايطالبنا أن نعتقد بذلك ، إنما هو يقول لنا إنه مادامت كل الوسائل المعرفية التى لديكم ضعيفة ، فينبغى لكم أن تأخذوا كلامى ولو على سبيل الظن أو الفرض أو حتى الاحتمال .

فالانماط المتعددة من التفكير كما يقول وليم جيمس — « كلها متعارضة وليس فيها واحد على سبيل الحصر يستطيع أن يقيم الحجة على دعوى الصحة المطلقة ، أفلا ينبغى أن يثير ذلك احتمالاً أو فرضاً أو ظناً أو حدساً مناصراً لوجهة النظر البراجماتية ».. ومادامت هذه الانماط المتعددة من التفكير غير صحيحة ولكنها خدمت أغراضاً معينة لكم ، فلماذا لايثير ذلك ولو حتى احتمالاً مناصراً لمقولتنا : إن الحقائق ينبغى أن تكون هى الوسائل التى تستطيع بها أن نصل إلى مانريد » .

أى أن الرجل – كا قلت سابقاً – يبدأ بموقف عبثى من الكون وينتهى بنا إلى موقف عبثى أيضاً ، ثم يقول لنا : إنه مادام الأمر كذلك فبدلاً من اليأس والمرارة والسأم على كل منا أن ينتفع بما يريح نفسه ويجد فيه اللذة ، ولو بشكل مؤقت ومتغير وعليه لكى يستيح تماماً – كما يظن جيمس – أن يعتقد٨أن ذلك الذى يفعله هو الحقيقة .

أعتقد أن اه اللذة ، ولو بشكل مؤقت ومتغير وعليه لكى يستريح تماماً – كما يظن جيمس – أن يعتقد أن ذلك الذى يفعله هو الحقيقة .

أعتقد أن الصورة قد صارت واضحة إلى حد كبير لنر ماتنطوى عليه هذه الفلسفة من شرور .

إن كون جيمس يعتبر النافع حقاً حتى ولو كان لحظياً ، بل ولو كان باطلاً فإن ذلك يعنى – وكما يظهر فى كلام الرجل نفسه – أنه لا يؤمن بالحق أو الحقيقة أصلاً ، ولا يبحث عنها . إنما هو يحاول فقط أن يقدم تبريراً فلسفياً لكل من يعمل على تحقيق مايستهدفه من منفعه ولكى يرضينا فقط ، ويقوى من عزيمة من يتفق معه فى ذلك ، فقد أطلق على هذه التبريرات لفظ الحقائق ، أى أن الهدف من وراء هذه الفلسفة هو تبرير المنافع كما يراها أصحابها فقط ، ولنسم نحن ذلك مانشاء من المسميات ، أما هو ففى محاوله من النصب الفلسفى – يسمى هذا التبرير الحق أو الحقيقة .

فالرجل لم يبحث إلا عن التبرير فقط ، لأن المعنى العام الذى تتضمنه فلسفته ، أنه لا يؤمن بشيء يسمى حقاً أو حقيقة وبذلك تكون خلاصة المذهب هى (البحث عن تبرير المنافع كما يراها أصحابها فى عالم يخلو من الحقائق وقد أرهقه البحث عنها) .

حسن . أن الرؤية الآن تتضح أمامنا لكى نستطيع أن نرى نظرة العبث الكامنة وراء تلك الفلسفة ، وكما قلت سابقاً فإنه ليس كأى عبث ، فهو مثلاً ليس كالعبث الذى نجده عند البير كامو أو عند صمويل بيكيت أو حتى عند

كفكى ، ولكنه شىء خطير جداً ، إنه عبث يحاول أن يكون منتفعاً ومستغلاً .

وبعد أن وضحنا المفهوم الانتهازى الذى لايمكن أن ينتهى إلا إليه المراد بمعنى النفع فى هذه الفلسفة ، استطعنا أن ندرك مدى ماينطوى عليه من شرور يحاول إكسابها ثوباً فلسفياً وأخلاقياً سفسطائى الألوان ، مما يجعله أكثر شراً .

لا يبقى الآن سوى معنى واحد للمنعفة فى المفهوم البراجماتى لها وهو المنفعة الخاصة لكل شخصى على حده ، وهو لا يتفق مع عبارات لجيمس مثل :

(إن الحقيقى ليس سوى النافع الموافق المطلوب فى سبيل تفكيرنا ، تماماً ، كما أن الصواب ليس سوى مايوافق المطلوب والذى لايملك أى شىء فى الوجود تحديد ماهو إلا كل منا على حده . وسواء قصد جيمس ذلك أو لم يقصد فإن ذلك لا يهمنا كثيراً ، ولكن المهم فى الأمر أن هذا هو المترسب من هذه الفلسفة .

لقد بدأ المحك البراجماتى من موقف عبثى لا يملك القدرة على الإتيان بحقائق بل ومشككاً فى كل الحقائق التى اطمأن إليها الآخرون ، بل ومنكراً لكل الوسائل المعرفية التى تعارف عليها البشر ، وانتهى إلى موقف عبثى لا يملك القدرة على الإتيان بحقائق ، ولكن من خلال اعمال هذا المحك البراجماتى يكون قد ترسب فى وعى القائمين بذلك أنه مادام لايستطيع أحد الإتيان بالحقائق المؤكدة فعلى كل منا أن يعتبر ماينفعه – بحسب اعتقاده هو عن المنعفة – هو الشىء الصحيح أو الحقيقى أو أى اسم آخر يريد أن يسميه المهتمون بذلك كما يشاءون .

يقول الإمام محمد باقر الصدر(٦) عن ذلك : « إن إعطاء المعنى العلمى

البحث للحقيقة وتجريدها من خاصة الكشف عما هو موجود وسابق استسلام مطلق للشك الفلسفي .. إن من حقنا التساؤل عن هذه المنفعة العملية التى اعتبرت مقياساً للحق والباطل فى « البراجماتيزم » أهى منفعة الفرد الخاص الذى يفكر ؟ أو منفعة الجماعة ؟ ومن هى هذه الجماعة وماهى حدودها وهل يقصد بها النوع الإنسانى بصورة عامة أم جزء خاص منه ؟ وكل من هذه الافتراضات لاتعطى تفسيراً معقولاً لهذا المذهب الجديد .

فالمنفعة الشخصية إذا كانت هى المعيار الصحيح للحقيقة وجب أن تختلف الحقائق وبإختلاف مصالح الأفراد فتحدث بسبب ذلك فوضى إجتماعية مريعة حين يختار كل فرد حقائقه الخاصة دون أى اعتناء بحقائق الآخرين المنبعثة عن مصالحهم وفى هذه الفوضى ضرر خطير عليهم جميعاً . وأما إذا كانت المنفعة الإنسانية العامة هى المقياس فسوف يبقى هذا المقياس معلقاً فى عدة من البحوث والمجالات لتضارب المصالح البشرية وإختلافها فى كثير من الأحايين » .

يقول الدكتور توفيق الطويل(٧) : « ويكفى أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة فى الأسواق قيمتها لاتقوم فى ذاتها بل فى الثمن الذى يدفع فيها فعلاً فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها ! ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة فى النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التى تطرح فى الأسواق وهذه هى العقلية الأمريكية فى الفلسفة وفى الأخلاق وفى السياسة وفى كل مجال .

والعبث فى هذه الفلسفة يكمن وراء نظرتها العامة المتشككة واللا مبالية فى كل الوسائل المعرفية ، بما فيها نظريتها هى ذاتها فى المعرفة .

ولكن الجديد فى الموضوع أن العبث هنا عبث ذو طبيعة خاصة ، عبث بالبرغم من إدراكه لذاته أنه عبث إلا أنه يريد أن يستفيد ، أن ينتفع فى كل لحظة يشعر فيها انه سينتفع أياً كان نوع ذلك الانتفاع فربما يخفف ذلك من

(٧) الفلسفة الاخلاقية نقلا عن مصطفى حلمى الإسلام والفلسفات المعاصرة .

وطأة عذاب الشعور بالعبث على النفس ، فبدلاً من أن يتقدم بها إلى السأم والموت مثل العبثيين بوجه عام والوجود بين العبثيين بوجه خاص – فإنه يريدها « أى يريد البراجماتى من نفسه » أن تعمل عملاً دءوباً على مايريحها دون أن يهتم بالتفكير فى انعكاس ذلك على شقاء الآخرين ، لأن العبث لايفهم هذه المعانى بل ينكر وجودها أصلاً ، وكل مايطلبه منا جيمس هو أن ندع تلك الأفكار البراجماتية التى يكمن وراءها تلك النظرة العبثية إلى الوجود – تمر ! فهل من الممكن أن نتركها تمر ... ؟!؟!

أو تطبيق منفعة عملية أما كل ماهو غير ذلك فهو لاشىء .

يذهب وليم جيمس أن هناك أفكاراً ليس فى استطاعتنا أن نحكم عليها بأنها صحيحة أو كاذبة لأن المعرفة العلمية الصحيحة مستحيلة تماماً فى دائرتها ، فماذا يكون موقفنا إذن من هذه الأفكار ؟ هل ينبغى علينا أن نتوقف عن الحكم عليها ؟ أم هل يحسن بنا أن تفترض عدة فروض من أجل تفسيرها ؟

الواقع أننا لانستطيع أن نحيا أو نفكر دون قدر من الإيمان أو الإعتقاد ، وليس الاعتقاد – من وجهة نظره – إلا فرضاً ناجحاً ، فلماذا لا نلتجىء إلى إرادة الاعتقاد حيث يعتر الوصول بداهة عقلية يقينية ؟ ألايحدث أحيانا أن يكون « الاعتقاد » نفسه عاملاً فعالاً من عوامل تحقق مانؤمن به أو مانعتقده ؟ .

إننا بدلاً من أن نتسائل عما يسير الأشياء هل هى المادة أو الله يجب أن يكون تساؤلنا كالتالى : ماهو الفرق العملى الذى يمكن أن يحدث الآن إذا قدر للعالم أن تسير دفته بواسطة المادة أو بواسطة الله ؟ .

وبالنسبة لماضى العالم ليس ثمة فرق سواء اعتبرناه من عمل المادة أم حسبنا أن روحاً قدساً هو خالقه ومنشئه . أما بالنسبة للمستقبل فإن المادة لاتبشر بشىء من النجاح الذى نسعى إليه ، بل تبشر بالتحطيم النهائى المطلق للكون وتحوله إلى مأساة فى نهاية المطاف لذلك فإنه يجب أن يكون اعتراضنا الحقيقى على المادة – فى زعمه – هو قنوط نتائجها العملية .

هذا فى حين أن فكرة الله مهما تكن أقل وضوحاً من تلك الأفكار الحسابية التى أصبحت سارية رائجة فى الفلسفة الميكانيكية لها على الأقل الميزة العملية المتفوقة عليها من حيث نتائجها النفعية التى تمنح الأمل فى المستقبل .

والإله الذى يحتاجه كل منا – على حد قوله – يتصوره البعض معزياً مقوياً ، والبعض منذراً معاقباً تبعاً لحالتهم وحاجاتهم ، وهوإله متناه نحن أجزاء منه باطنه وهو نفسه جزء من العالم .

يجب أن نغفل عن صفات ذلك الإله النظرية المعروفة من وجود بالذات وروحانية وبساطه وما أشبهها لأنها عديمة الفائدة ومن ثم عديمة المعنى أن نقتصر على الصفات المفيدة لنا مثل القدرة والخيرية لانهما تبعثان فينا الرجاء .

ولكن ياترى ماهذه المنافع التى يريدها جيمس من الدين ؟

إنها الراحة والهدوء والسكينة والطمأنينة والسلام والاغتباط والمشاعر المتدفقة التى تلهب الصدور وتبعث الحركة فى الحياة .

أى أن جيمس يريد من الدين أن يكون مجرد مسكن أو مخدر يستطيع الانسان باعتياده أن يواصل حياته بقوة وحماس أكبر ، والراصد للمذهب يستطيع أن يتبين ، السلوك الذى يمكن أن يكون عليه اتباعه ولهذا لزمت الحاجة إلى الدين . كمخدر لسلوكهم النفعى الانتهازى – يساعدهم على مواصلة أفعالهم اللا إنسانية بنشاط أكبر .

وعلى هذا الأساس فإن جيمس لم يهتم كثيراً بالتفرقه بين كون الخالق هو الله جلا شأنه – أو المادة أو البحث عن كون الله موجوداً أو غير موجود بل إنه يحدد صفات الإله الذى يقبله ويرفض الصفات التى لا يعتقد هواه بكونها نافعة ، أى أنه لا يؤمن بإله خالق بل هو يخلق من عنده إلهاً محدد الصفات يعمل على خدمة وإرضاء من يؤمن به .

إن الإله المطلوب لدى جيمس يجب أن يكون – على حد تعبيره – صديقاً ومعيناً ووفياً وخادماً وقد يكون معزياً قوياً وقد يكون منذراً معاقباً تبعاً لحالتنا وحاجتنا وكما انه هو خادم لنا فهو رفيق كثير المطالب دائب الحاجات لأن ذلك يفرض علينا واجبات جديدة ومهمات كثيرة تبعث فيما حولنا جواً من العواصف والمخاطر من شأنه دائماً أن يشحذ هممنا وأن يوقظ فينا أعلى الامكانيات ، وهو نفسه يستمد من ولائنا وإخلاصنا عظمة وجوده ومقدمات بقائه لإنه إله متناه هو نفسه جزء من العالم .

لقد اعتقد جيمس أن مذهبه يبيح له كل شيء مادام يراه مفيداً حتى خلقه للآلهة ذاتها بالأوصاف التي يهواها وذلك فقط لمحض المنفعة وذلك على أساس قوله : « في مقدورنا أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله » .

لقد إستعاض جمس بالاعتقاد فى إله من خلقه عن الله نفسه واعتقد أن ذلك سيحقق له المنافع التى يبغيها فهل من الممكن أن يتحقق شيء من ذلك . إن هذه المنافع وغيرها أشبه ماتكون برجل يدرب نفسه على الاعتقاد بأنه غنى ثم يحاول أن يستمد من هذا الغنى الوهمى المال الكثير الذى يبغيه
لقد استعاض جيمس بالاعتقاد فى إله من خلقه عن الله نفسه واعتقد أن ذلك سيحقق له المنافع التى يبغيها فهل من الممكن أن يتحقق شيء من ذلك ؟

إن هذه المنافع وغيرها لاتتحقق إلا بشرط واحد هو أن يكون الانسان مقتنعاً بوجود الله فعلاً ، أما إذا لم يكن مقتنعاً بذلك فإنه من المستحيل أن يجد هذا العون من إله هو الذى خلقه أو حتى اعتقد فى وجوده من أجل هذا العون .

إن ذلك اشبه مايكون برجل يدرب نفسه على الاعتقاد بإنه غنى ثم يحاول أن يستمد من هذا الغنى الوهمى المال الذى يبتغيه ! وواضح مدى مافى هذا المثال من خبل .

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى(٨) عن ذلك : « حسبك لكى تعتقد بأمر مااعتقاداً جازماً ، أن تتجه منك الإرادة إلى ذلك وان تشعر بمجرد الحاجة إليه فسوف لاتعجز إرادتك أو حاجتك إذ ذاك عن أن تستخرج لك الدليل تلو الآخر على ماتفضل الاعتقاد به .. إنهم يكونون نسيج العقيدة الدينية فى أفكارهم من خيوط المصالح الدنيوية التى افكارهم من خيوط المصالح .

ويقول برتر اندرسل(٩) : ان جيمس يريد أن يستعيض بالإيمان بالله عن الله ويزعم أن هذا سيجعل كل شىء على مايرام . ولكن هذا لايعدو كونه شكلاً من أشكال جنون النزعة الذاتية ، الذى هو الطابع المميز لمعظم الفلسفة الحديثة » .

والإسلام البراجماتى يعنى بإيجاز شديد : التعامل بالمنظور النفعى مع الإسلام أى استغلال الإسلام للمنفعة « كما يراها البراجماتيون » دون التقيد بإطاراته أو شروطه أو تعاليمه . هذا بالإضافة إلى التوفيق أو بقول أدق التلفيق المستمر بين مفاهيم البراجماتية الدينية التى تتعامل مع الدين بوجه عام على أنه مخدر ذو مفعول متجدد دائماً وعلى أنه أحد الوسائل الإحتياجية لاكتساب المظهرية الإجتماعية وبين بعض المظاهر والشكليات الإسلامية التى يمكن استغلالها لصالح تلك المفاهيم ، ومع أن استغلال الدين بشكل نفعى أمر قديم قدم الزمن إلا أنه منذ أواسط السبعينات ومع سقوط بلد إسلامى كمصر فى أسد الهيمنة الأمريكية وغزو الأفكار البراجماتية لمجتمعنا فقد أدى ذلك إلى وجود البيئة المناسبة التى عملت على ترويج نمط التعامل مع الدين بشكل نفعى وإيجاد المبررات الفلسفية لتسويغ ذلك النمط وإضفاء الشرعية عليه .

كما أن المفاهيم الجديدة أدت إلى تطوير الأساليب التقليدية لإستغلال الدين للمصالح الشخصية وكذلك استحداث أساليب أخرى جديدة على تلك الأساليب القديمة ففى مجتمع تكون السيادة فيه للقيم النفعية بوجه عام يكون من الطبيعى جداً أن يسود فيه نمط التعامل النفعى مع الدين بوجه خاص .

(٨) كبرى التقينات الكونية .
(٩) تاريخ الفلسفة الغربية : الفلسفة الحديثة .

● بعض آثار الأفكار الأمريكية على المجتمع المصرى

لقد إستطاعت هذه الأفكار أن تجعل من المال إلهاً يعبد من دون الله كما استطاعت أن تسقط القيم والمبادىء وتحيلها إلى الفاظ منفرة ممجوجة كما إستطاعت تسطيح الكثير من المفاهيم الدينية وإحالتها بالتأويل والتبرير إلى مجرد شعارات شكلية وأسقطت المجتمع المصرى فى هوة التطاحن الإجتماعى من أجل الحصول على المال والثروة وسقط فى هذا الصراع الأغلبية من الفقراء والمحرومين بعد أن هرستهم ميكنة الحياة البراجماتية وعاد عصر الرقيق بصورته الجديدة حيث سقطت كثير من الفتيات (والجميلات منهن على وجة الخصوص) ضحايا تعيسات يحن كالجوارى لمن يملك أكثر أو يدفع أكثر . ووقع الشباب فى مستنقع العجز والفشل والإحباط والركود المدمر لنفسيتهم وبنيتهم الداخلية . وتراجعت قيم العلم والأخلاق والعمل بل وصارت أشياء مثيرة للإزدراء . الخلاصة بإستثناء ماحفظ الله فإنه لم يعد هناك عند الناس إلا أمر واحد هو البحث عن المال والنفوذ بأية وسيلة .

ثانياً : الفلسفة الوجودية

نشأت الوجودية على يد كير كجورد كرد فعل على موضوعية هيجل فقال بالذاتية وأن الحقيقة فى الذاتية وأن الوجود الحقيقى لايمكن أن يتخفف إلا بتكثيف الإنفعال فرفض أن يكون الإنسان مجرد جزء من كل يلاشيه ويلغى وجوده .

يقول كيركجاورد(١٠) : « أستطيع أن أقول أننى اللحظة التى أعيشها وأرفض أن أكون فقرة فى نظام » ووضع كيركجورد الأسس الأولى للوجودية فالإنسان بوصفه الذات المفردة هو مركز البحث وأحواله الوجودية الكبرى

(١٠) نقلا عن جان فال : ماهى الوجودية .

مثل الموت والخطيئة والقلق والمخاطرة .. إلخ . هى المقومات الجوهرية لوجوده والحرية والمسئولية والاختيار هى المعانى الكبرى فى حياته[11] ثم إنقسمت الوجودية من بعده إلى وجودية إيمانية ووجودية إلحادية وتلك الأخيرة هى التى يدور عليها موضوعنا .

الوجودية الإلحادية : تزعم الفيلسوف الألمانى هيدجر هذه الفلسفة بعد مرور العالم بمحنة الحرب العالمية الأولى وتكلم عن علم الوجود وأراد أن يفهم الوجود بصفة عامة فى الموجود البشرى فهو يرى فى كينونه الموجود البشرى سبيلا مشروعاً لفهم حقيقة الوجود. والإنسان يجب ألا ينسى أن وجوده هو وجود مع الأخرين بيد أن إنسان العصر الحديث على حد قول هيدجر – قد أصبح يعيش فى حالة جماعية زائفة لأنه قد اتخذ من (الوجود مع الأخرين) ذريعة للتنازل عن وجوده الخاص فلم يعد وجوده سوى مجرد إنغماس فى عالم الجمهور وهكذا فقد إنسان العصر الحديث – فى زعمه – إنسانيته وحريته وصار مجرد موضوع ينطق بلسان الآخرين . ويفرق هيدجر بين ضربين من الوجود البشرى هما الوجود الأصيل والوجود الزائف فالوجود الأصيل فى نظره هو ذلك الوجود الحقيقى الذى تشعر معه الذات أنها قائمة بنفسها مسئوله عن ذاتها وأنه قد خلى بينها وبين حريتها وأنه لابد أن تأخذ على عاتقها تبعه وجودها أما الوجود الزائف فهو ذلك الوجود الذى تهبط فيه الذات بنفسها وتميل إلى الإنغماس فى المجموع آملة من وراء ذلك التهرب من حريتها والتنصل من مسئوليتها والتخلص من شعورها بالقلق ومن خلال القلق يتضح للموجود البشرى عدم جذوى الموضوعات العالمية وتفاهة شتى الأشياء الكامنة فى هذا العالم واتسام كل مافى الوجود بصبغة العدم والوجود البشرى عنده هو فى صميمه (وجود نحو الموت) وكل محاولة للهروب من ذلك القلق الذى يسببه لنا التفكير فى الموت هو انحدار لمستوى الوجود الزائف الذى يعيشه

(١١) د. عبد الرحمن بدوى : دراسات فى الفلسفة الوجودية .

الآخرون[١٢] وهذا الكلام الذى قال به هيدجر عن الموت والعدم والقلق لايعتبر خطراً من وجهة النظر الإسلامية فقط بل إنه جعل بعض المفكرين الغربيين أنفسهم يعتبرونه خطراً دولياً على الفكر والإنسانية[١٣] وبعد أن قاسى العالم ويلات الحرب العالمية الثانية وعانى من الدمار الجماعى والخوف من الفناء البشرى ودب فى النفوس الشعور بالقلق والرعب من المجهول فكان الإلتجاء إلى الفلسفة الوجودية هو الأمر الطبيعى والمناسب للتعبير عن ذلك عند الغربيين ولقد بدا ذلك واضحاً فى كتابات الفيلسوفين الأديبين جان بول سارتر وألبير كامو .

أما سارتر[١٤] فيقول : « إن الوجودية تقول إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك وعدم وجود الخير بصورة مسبقة قبلية .. وهكذا يصبح القول بوجود الخير أو بوجوب الصدق والتزامه قولا لا معنى له . وقد كتب ديستويفسكى مرة « إن الله إذا لم يكن موجوداً فكل شىء مباح » وماكتبه ديستويفسكى هو النقطة التى تنطلق منها الوجودية والتى نعتقد معها أن إنكار وجود الله يعنى أن كل شىء يصير فعلاً مباحاً » .

ويقول سارتر فى مسرحيته الأبواب الموصدة : « إن الآخر هو الجحيم لأنه ينظر إلى بإعتبارى شيئاً وفى هذا هدم لذاتيتى .. فلا يمكن أن يكون هناك حب يجعل الإتحاد بالآخر ممكناً لأن الذات المستقلة ترفض أى تنازلات عن حريتها وذاتيتها .. والآخر هو الصخرة التى تتحطم عليها إرادتى » وفى هذه المسرحية يصور ثلاث شخصيات رجلاً وامرأتين يتلاقون بعد الموت فى حجرة موصدة الأبواب من حجرات الجحيم ويكتشف الثلاثة أن كلاً منهم فى الواقع هو الجحيم بالنسبة للآخر . ومسرحيات سارتر بوجه عام تعكس الإحساس بالعدم والإحساس بالغثيان والسأم والقلق والعبث واللا معقول وشتى المشاعر

(١٢) د. زكريا إبراهيم : دراسات فى الفلسفة المعاصرة .
(١٣) جان فال : ماهى الوجودية .
(١٤) الوجودية مذهب إنسانى .

الوجودية أى المشاعر التى يعتبرها سارتر ملازمة للوجود الإنسانى[١٥] .

وفى هذا العالم الرهيب الذى يتكلم عنه سارتر لايصير القتل والإجرام أمراً مفزعاً . ومع هذا التحرر الإباحى تسقط كل الحواجز التى تقف بين الإنسان ومايريد أن يفعله مهما انطوى هذا الفعل على البشاعة والدناءة فلا يصير غريباً مثلاً أن يعاشر الشخص الذى يؤمن بهذه الأفكار أقرب القريبات له (المحرمات) معاشرة الأزواج ولقد حاول سارتر الخروج من هذا المأزق والتراجع عن كلامه السابق بقوله : « إن حريتى تتوقف تماماً على حرية الغير ، وحرية الغير تتوقف على حريتنا » لأنه بعد اسقاطه للقيم وإنكاره لوجود الخير قد هدم كل الحواجز التى تحول بين حرية الشخص وحرية الآخرين ويصير كلامه ذلك هو نوع من التستر الفلسفى على تحرره الإباحى إلتجأ إليه .. تحت ضغط الإنتقادات الحادة للإشتراكيين عليه .

أما البيركامى ففى كتابه أسطورة سيزين فهو يكتب فصوله بتلك العناوين اللا جدوى والانتحار – الأسوار اللا مجدية – الإنتحار الفلسفى – الحرية اللامجدية – الإنسان اللا مجدى – الخلق اللا مجدى – الأمل واللا جدوى » وهكذا تظل فكرة اللا جدوى فى كل شىء داخل وخارج الإنسان متمثلة فى كل سطور الكتاب الذى يشبه فيه حياة الإنسان بحياة سثيف الذى حكمت عليه ألهة الأساطير بأن يرفع صخرة إلى قمة الجبل وكلما وصل إلى القمة سقطت الصخرة ليعود لكى يرفعها ثانية هكذا وبلا انقطاع فالحياة تصير العادة والعادة تؤدى إلى الملل والملل يثير السأم والغثيان وتصير المشكلة الفلسفية الهامة الوحيدة – على حد قوله – هى الإنتحار .

(١٥) راجع من الوجوديه إلى العبث .

من خلال العرض السابق يستطيع المثقف العادى أن يدرك مدى ماتحمله تلك الفلسفة من أفكار مدمرة للكينونة الإنسانية نفسها .

وفى الحقيقة فإن هذه الفلسفة لم تقم أفكارها على أسس موضوعية قابلة للأخذ والرد وإنما هى مجرد تعبير عن نزعة إنسانية تمتلىء بالمراره والعجز عن فهم الوجود تمخضت عن إلحاد الغربيين وما يؤدى إليه ذلك الإلحاد من قسوة الشعور بالوحدة فى هذا العالم الرهيب والرعب من العدم الذى ينتظره .

وأهم المسائل المحدودة التى تستحق المناقشة الموضوعية فى هذه الفلسفة هى مسألة الإدعاء بأن الوجودية مذهب إنسانى يقوم على المسئولية وأن الإنسان عندما يختار لنفسه فإنه يختار لكل البشر معه ولذلك فهو مسئول عن هذا الإختيار وعليه أن يتحمل نتيجته وهو ماذهب إليه سارتر على وجه الخصوص .

أقول إننا لو وضعنا هذه العبارات بجانب عبارات أخرى لسارتر نفسه مثل « إنهم يكتشفون فى وقت واحد أن كل الأفعال الإنسانية سواء وأنها – بحتمية مبدئية – محكوم عليها بالفشل .. وهكذا يستوى آخر الأمر أن أثمل بالشراب فى وحدتى أو أن أقود الشعوب »(١٧) .

وبجانب قول دفيقة عمره سيمون دو بوفوار « أفعل ماينبغى لك ، وليكن مايكون »(١٨) ، هذا بالإضافة إلى ماتنطوى على هذه الفلسفة من إلحاد وإنكار للقيم وعدم الإيمان بشىء والرعب من الجمهور والعدم فإن كل ذلك يؤكد لنا مدى إدعاء هذه المسئولية الوجودية وأن المذهب بذاته هو غاية فى الفردية ولا علاقة له بالإنسانية الجماعية على الإطلاق إلا أن سارتر أراد من ذلك تمرير المذهب من بين مطارق الجماعيين الذين وقفوا فى وجهة فحاول أن يكسوه بهذا المظهر الإنسانى كما قلنا من قبل .

أما عن باقى الأفكار الوجودية الأخرى فإن الفيلسوف العالم جارودى يصفها بأنها « تؤدى إلى تطبيقات عملية تبعث على الذعر »(١٩) .

(١٦)، (١٧)، (١٩)، (٢٠)، نقلا عن د. مصطفى حلمى : نفس المرجع .

« ويتسائل جارودى فى حيرة : كيف أصف هؤلاء المفكرين والكتاب ثم يجيب قائلا : إنهم سفاحوا الثقافة والفكر »(٢٠) .

وعلى حد قول الكاتب الإسلامى أحمد بهجت فى إحدى يومياته فى الأهرام المصرى فإنك « إذا وجدت فلسفة ما » فلسفة تفكر وجود الله فما هى خصائص أتباع هذه الفلسفة ؟ .. وما هو سلوكهم ؟. إن التمزق والتفكير فى الانتحار أو القتل تصير قضايا رئيسية لهؤلاء الأتباع وهذا أمر طبيعى تماماً » .

ولعل ذلك يذكرنا بما حدث لطالب الهندسة الذى قتل والديه وحاول قتل أخته ثم حاول الإنتحار وعندما سألوه لماذا فعلت مافعلت قال : « لأننى وجودى » .

على العكس مما قامت عليه هذه الفلسفة من الإلحاد فإن المنطلق الذى ينطلق منه التصور الإسلامى للكون هو الإيمان بالله .

فالإيمان بالله يمنح الإنسان الشعور بأن هناك قوة عليا أزلية سرمدية لايجوز عليها الفناء ، بعكس هذا العالم الفانى الذى يمضى حتما إلى الزوال ، فيحيا المؤمن حياة كلها الأمل والرجاء لإيمانه بأن الله دائم باق ، وكأن هذا الإيمان هو النور الذى يخرجه من ظلمات الشعور بالغناء السارى على جميع الموجودات الذى يشعر به الملحدون فيصيبهم اليأس والخوف والرعب ، فالإيمان بالله أمل ورجاء وقوة ، والإلحاد به تشاؤم ويأس وخوف وأسر للإنسان فى شرك الشعور الفناء الوجود ومسيرة إلى الزوال .

وعلى ذلك فإن الإسلام لا ينظر إلى الموت على أنه العدم الذى سوف يمضى إليه الجميع كما تنظر إليه الوجودية ولذلك فإنه لايعكس لدى المسلمين الشعور بالقلق والرعب واللا جدوى كما يحدث عنه الوجوديين فالموت فى الإسلام يعنى مجرد ممر قصير للانتقال من الحياة الدنيا الفانية إلى الحياة الآخرة الأبدية أى أن الموت يعنى الطريق إلى الخلود الأبدى فإما جنة أبدا وإما نار أبدا وهذا مايعكس الشعور بالمسئولية الحقيقية تجاه اختيارنا أمام الإمكانات التى تتيحها لنا الحياة

التى نعيشها ، لأنه على أساس هذا الإختيار تتحدد وجهة الإنسان الأبدية (الجنة أو النار) ، فيكون ذلك حافزاً على العمل الصالح الذى يتوخى دائماً فى الإسلام الخير الإنسانى العام ، والذى يدفعه دائماً ذاك الحب الطامح إلى كمال الإيمان والسعادة الأبدية فى العالم الآخر .

فبدلا من أن يؤدى الموت بمعناه العدمى فى المفهوم الوجودى إلى الرعب والتمزق فإنه يؤدى بمعناه الإنتقالى فى المفهوم الإسلامى إلى التمسك بالفضيلة والعمل الصالح والخير الإنسانى والمصير الإنسانى بعد الموت الذى يدعو الوجودى إلى القلق – يمثل للمسلم الأمل فيما يسنده من سعادة وكمال فى العالم الأخروى والدافع والحافز إلى التمسك بالفضيلة والعمل الصالح فى العالم الدنيوى .

أما مفهوم الحرية فى الإسلام فله معناه الخاص الذى لا يسمو إليه بل ولا يقترب منه . أى فكر بشرى مهما حاول ذلك فأهم عطاءات التوحيد للوجدان المسلم هو الشعور بالحرية والتحرر والإنطلاق فى هذا العالم دون خوف أو رهبة من أحد فبالتوحيد لايكون على الإنسان سوى الإلتزام أمام إله واحد يعبده ويتلقى منه أوامره ونواهيه أماما دون الله من المخلوقات فهم عبيد ليس لهم أدنى سلطة على الإنسان أو الحق فى الحد من حريته .

فهو ينظر إلى المخلوقات التى دون الإنسان نظرة إستعلاء وينظر إلى إخوانه من البشر نظرة مساواة لا يخضع فيها أحد إلى أحد . لأن الإنسان لا ينبغى له أن يخضع إلا لله وليس لأحد حق عليه إلا الله أو ما منحه الله للآخرين من حقوق عليه . ويكون إلتزام الإنسان عند هذا الحد هو إلتزام أمام الحقوق التى منحها الله للآخرين وليس إلتزاماً أمام الآخرين بذواتهم .

ثالثا : الفلسفة الوضعية المنطقية

أهم الأفكار التى تنطوى عليها هذه الفلسفة هى

– إن القضايا التأليفية .. الوحيدة التى تنطوى على معنى أو دلالة هى تلك القضايا التى تقبل التحقيق أو التثبيت وهى جميعاً قضايا علمية وهذا هو معيار التحقق لأى معنى تجريبى ولما كان معنى أية عبارة منحصراً فى مجموع العمليات التى تتحقق عن طريقها من صحه تلك العبارة فإن أى قضية لا يمكن أن تشتمل إلا على ماهو قابل للتحقق وبالتالى ماهو واقعه من وقائع التجربة . وأما إذا كان ثمه شىء فيما وراء التجربة فإن هذا الشىء بالضرورة لن يكون قابلا للصياغة أو التعقل وعلى ذلك فإن مهمة الفلسفة هى التحليل المنطقى للغة ذات المعنى أو الدلالة .

– وحين يتحدثون عن (اللغة ذات المعنى) هذا الإصطلاح على القضايا التحليلية (قضايا المنطق والرياضة) من جهة والقضايا التأليفية القابلة للتحقق تجريبياً (قضايا العلم الطبيعى) من جهة أخرى فهذه النظرية تستلزم بطبيعة الحال إستبعاد مباحث كثيرة تدخل ضمن نطاق الفلسفة مثل الميتافيزيقا والأخلاق وعلم الجمال .

– وعلى ذلك فإن قضايا مثل الله موجود ، أن هناك قوة فاعلة هى المبدء الموجه لسائر الكائنات .. تعتبر لدى الفيلسوف الوضعى المنطقى بمثابة عبارات فارغة تماماً من كل معنى فهى لا تدخل ضمن القضايات التحليلية كما أنها فى الوقت ذاته لا تقبل التحقيق تجريباً فهى مجرد تركيبات لغوية فارغة تتعارض مع الإستعمال الحقيقى للكلمات من جهة وتضم فى الوقت نفسه قضايا زائفة لا تقبل التحقيق التجريبى فهذه العبارات أقرب ماتكون إلى الشعر والأساطير وإن كان هناك فرق بين قائل هذه العبارات والشاعر هو أن الأول لايريد أن يعترف بأن أقواله وليدة الإنفعال والعاطفة فى حين أن الثانى يسلم بأن شعره أداة فنية يعبر بواسطته عن الشعور بالحياة .

- ويرى (آير) أن كل القضايا التى لايمكن التحقق منها تجريبيا هى قضايا زائفة حيث أنه لاتوجد أى جدوى من أية محاولة يراد منها الوصول للمعرفة تتجاوز حدود التجربة وعلى ذلك فإن قولنا بأن الله موجود لن يكون من وجهة نظره (سوى لغو فارغ لا معنى له على الإطلاق) وهكذا الحال بالنسبة لسائر القضايا الغيبية فهى لاتخرج عن كونها قضايا نطلقها على أشياء أو أحداث تعدو نطاق الحس فهى بالضرورة لغو فارغ لامعنى له مادام الهدف الذى ترمى إليه أن تصف لنا حقيقة تكمن فيما وراء التجربة . أما القضايا التحليلية (الرياضية - والمنطقية) فيمكن اعتبارها ذات معنى أو دلالة ولكنها بمثابة تحصيل حاصل . وعلى ذلك فلا تبقى للقضايا الحقيقية ذات القيمة سوى القضايا التى تدخل ضمن نطاق الحس والتجربة .

فى الحقيقة فإن الفسلفة الوضعية المنطقية هى تعبير موضوعى عن حالة العجز الفلسفى التى وصل إليها الفكر الغربى ومايذكر لهذه الفلسفة هو إعترافها بذلك العجز وعدم التحايل عليه بالإتيان بمفاهيم فلسفية جديدة لاتصمد طويلاً أمام العقل والمنطق .

ولكن بدلاً من أن يؤدى ذلك الإعتراف بالعجز إلى الإلتجاء إلى الدين كطريق معرفى لإدراك الحقائق أغلقت هذه الفلسفة كل الطرق المعرفية أمام البشر لإدراك الحقائق المصيرية التى تحكم وجودهم وأرادت أن تفرغهم من إنسانيتهم بالتعامل معهم كقوالب مادية مصمته حيث لايفترقون بذلك عن الجماد وذلك لأن الفلسفة من جهة نظرهم ليست إلا منهج لتحليل اللغة والمقولات العلمية (أى تحصيل الحاصل) وليس فى إستطاعتها أن تأتى بجديد إذن فليس للإنسان من سبيل للإجابة على الأسئلة المصيرية الملحة والتى من خلالها تتحدد معالم وجوده .

يقول الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظواهرى :

« إن منهج الوضعية تحليل الثقافة ماكان منها معلوماً أو معتقداً . وسبيل الفلسفة الحية التطلع إلى معرفة غير المعلوم بعد لتكون هادية لريادة العلم وتجاربه » فالفلسفة من المنظور الوضعى هى « منهج تحصيل الحاصل » ... أما الفلسفة فى مفهوم الأجيال فموضوعها الحقيقى تحليل المعرفة والقيم وربطها بوسائل المعرفة فى الذات البشرية .. وبهذا تكون منهجاً للتفكير ؟ أما الوضعية فليست منهجا للتفكير بل هى منهج لتحليل المعلوم فحسب ثم التخير بعد ذلك » .

أما موقف هذه الفلسفة من الدين فهو إقحام لها فى غير مالاتملك الحديث فيه فكان يكفيها موقفها المتحور حول اللغة والعلم بدلا من أن تخوض فى المدركات الغيبية معتمدة على المصادرة فكيف يمكنها أن تدعى فراغ تلك المقولات لعدم حضوعها للتحقق التجريبى مع أن من البديهى جداً أن هذه الغيبيات غير مادية ولأنها كذلك فلا يصح على الإطلاق محاكمتها إلى نفس المحل الذى تخضع له الماديات . أما الذين يريدون أن يخضعوا الذات الإلهية للتخفف التجريبى ، فإنهم يستندون إلى حجة واهية ليتذرعوا بها على مواصلة عنادهم فى إنكار حقائق الدين حتى فى الوقت الذى لم يجدوا فيه مفراً من التسليم بعجز الفلسفة عن إجابة الإنسان عما يريد معرفته من حقائق .

رابعاً الماركسية :

: لأن الأستاذ العقاد كان أديباً كبيراً فإنك كثيرا ما تلاحظ أن حماسة الأديب وبلاغته قد سطت فى نشوة على عقلية المفكر فيه ، وهذا ماجعلنى اعتبر كلامه عن أن الشيوعية يجب دراستها على أنها ظاهرة من الظواهر النفسية املتها طبيعة العدوان والهدم والتخريب عند كارل ماركس نوعا من المبالغات الأدبية حتى قرأت هذا الكلام – الذى سأنقله حالا لانجلز زميل ماركس فراعنى ماجاء فيه وجعلنى أعود إلى كلام العقاد والكتاب الآخرين الذين تكلموا عن أثر شخصية كارل ماركس فى مذهبه وأتأمل ذلك كثيراً . يقول إنجلز وهو يشير إلى صديقه ماركس فى كتابه الشهير « ضد دوهرنج » : لم يسد العقل الحقيقى والعدالة الحقيقية حتى الآن فى العالم لسبب واحد وهو أنهما لم يدركا بعد بالشكل اللازم ، فلم يوجد ببساطة ذلك الشخص العبقرى الذى ظهر الآن (يقصد كارل ماركس) وأدرك الحقيقة » .

أقرأتم معى هذا الكلام إن هذا الرجل (اعنى إنجلز) يريدنا أن نعتقد أن العالم كله قد عاش طول تاريخه فى أوهام وزيف وضلال وظلم وطغيان لأنه لم يوجد بين بلايين الأشخاص التى أفرزها شخص واحد إستطاع أن يكشف الحقيقة والعدالة وأن صديقه كارل ماركس – الذى يعتبر بذلك الكلام أكبر من المعجزة ذاتها هو الشخص العبقرى الوحيد الذى ظهر الآن وأكتشف ماهى الحقيقة وما هى العدالة وإذا لم نصدق هذا الكلام صرنا – كما يعتبر المذهب مخالفيه – متخلفين رجعيين متعفنين عملاء لقوى الامبريالية العالمية !!! وليت الرجل أرجع ذلك إلى عملية التطور التاريخى فحملنا مسئولية إثبات أن ذلك يقتضى ظهور أشخاص أكثر عبقرية ووعى فى مرحل تاريخية تالية مما يقتضى بدوره عملية إكتشاف للحقيقة والعدالة أكبر واصح مما ذهب اليه كارل

ماركس ولكن الرجل قد وفر علينا هذا المجهود فلقد استطرد بعد كلامه السابق يقول : « وكونه ظهر الآن وكون الحقيقة قد أدركت الآن بالتحديد لا يعتبر على الاطلاق نتيجة ضرورية للسير العام للتطور التاريخى ، وحادثة حتمية وإنما تمثل فقط صدفة سعيدة . وكان من الممكن تماماً أن يولد هذا الإنسان العبقرى منذ خمسمائة عام ويخلص البشرية من خمسة قرون من الأخطاء والصراعات والألام » اقرأتم ؟! الرجل يدعى أن البشرية كلها بما شملت من بلايين الأفراد قد عاشت فى أخطاء وأوهام وأن صديقه كارل ماركس هو الفرد الوحيد الذى إكتشف الحقيقة المطلقة والنهائية وإذا سألناه لماذا هو بالذات اجابنا بكل بساطة وثقة أن السبب فى ذلك الصدفة وحدها ثم يريدنا بعد ذلك أن نوقن – ولا أقول نؤمن – أن أراءه ونظرياته هو وصديقه ماركس (أى الفلسفة الماركسية) قوانين علمية لا تقبل الشك !!! إن هذا الكلام يحمل من الميتافيزيقا – التى يتهمون بها مخالفيهم – مالم يحمله أى دين أو ملة ظهرت فى تاريخ الإنسانية ، فلم يدعى موسى أو عيسى عليهما السلام أو حتى محمد ﷺ أو أحد من حكماء أو فلاسفة الغرب أو الشرق أنه الوحيد الذى اكتشف الحقيقة المطلقة والنهائية وأن بلايين البشر قبله قد عاشوا فى زيف وأوهام . وكون إنجلز يريدنا أن نعتقد معه أن ذلك يرجع إلى الصدفة يجعلنا بكل موضوعية وحذر إن لم نتهمه هو وصديقه ماركس والذين يوافقونهما على ذلك بنوع من أنواع الجنون أو الأمراض النفسية فعلى الأقل لا نستغرب أبدا إذا أتهمهم أحد غيرنا بذلك .

ونحن نعتقد أن مقولة انجلز هذه أخطر نقطة فى المذهب الماركسى لانها تعنى منذ البدء وقبل الدخول فى أى تفاصيل مصادرة حتمية لكل الفكر الانسانى قبل كارل ماركس بل ومعه وبعده إذا كان هناك إختلاف فى أى تفصيلة من تفصيلات مذهبه .

ولكى نؤكد أن هذا الكلام يعنى تأليه تام لكارل ماركس .. ننقل لكم

الأنتقادات التى أخذها إنجلز على فيلسوف من اكبر الفلاسفة فى تاريخ أوروبا وهو « هيجل » يقول انجلز عنه : « ورغم أن هيجل - إلى جانب سان سيمون - كان من أكثر الفلاسفة شمولا فى عصره إلا أنه مع ذلك كان محدوداً : أولا : بالحدود الحتمية لمعارفه الخاصة . ثانيا : بمعارف وعقائد عصره ذاك التى كانت أيضا محدودة من حيث الحجم والعمق فالبرغم من أن هذين الانتقادين يصلحان للأخذ كدليلين على محدودية أى فيلسوف آخر مهما كان شأنه إلا أن انجلز لم يحتمل ذلك بالنسبة لماركس وكذلك ماركس بالنسبة لنفسه وهما يدعيان لمذهبهما إكتشاف الحقيقة المطلقة والنهائية .

لماذا لم يحدث ذلك ؟!

لابد أن هناك أحدى امرين ، فإما أن فى الموضوع شيء غير إنسانى أى أن تكون هناك صفات فوق إنسانية تشتمل عليها شخصية ماركس ، أو أن هناك خلل مرضى (كجنون العظمة والسادية بالنسبة لماركس وإستضعاف النفس والماسوكية بالنسبة لانجلز).

وإذا أردنا أن نفهم كيف جعل كارل ماركس من نفسه إلها يعبده أتباعه فلا بد أن نقرأ معا هذه العبارة التى سجلها عنه باكونين ٦ زعيم الفوضوية فى عصره) يقول باكونين : « كان لا يغتفر أبدا أصغر الأساءات إلى شخصه ولابد لك من أن تعبده وتتخذه وثنا تصلى بين يديه إن أردت أن تظفر بمودته » وهذه العبارة الأخيرة تفسر لنا تماما موقف انجلز منه وكيف انه كان الوحيد فى العالم الذى نال رضاه .

« تقدم مرة أحد الأعضاء بمجلس الشيوخ الفرنسي إلى عضو محافظ وأطلعه على طبعة جديدة لأعمال كارل ماركس ، مطبوعة بأسلوب (البريل) الخاص بالعمى إن كل أعمال ماركس للعمى » .

لقد صاغ كارل ماركس فلسفته فى عدة قوانين وزعم أنها لاتقوم بتفسير الحاضر فقط بل وكل الماضى وكل المستقبل وإن كانت النظريات العلمية تظل صحيحة فى رأى العلماء مادامت قادرة على تفسير الظواهر التى تتعرض لها إلا أن ماركس إعتبر قوانينه حقائق يقينية صارمة لاتقبل الجدل وكيف لا وقد وصفه إنجلز بأنه المعجزة الوحيدة التى إكتشفت الحقيقة .

ماالذى يحدث إذن وكيف تحولت هذه الفلسفة إلى دوجماتيقية (جمود) أعمى ؟ إن الماركسية يستخدمون هذه القوانين الماركسية لتفسير الأحداث فيقتضى تطبيعه هذه القوانين حدوث وقائع معينه كى يصير خط الأحداث الديالكتيكي (الجدلى) مابين الأمر وضده ووحدة الأضداد فى سيره الحلزونى الحتمى الذى يفرضه مار دس بشكل مسبق على الواقع نفسه ماذا لو لم يحدث من الوقائع مايؤيد بعض أجزاء هذه القوانين لايجد الماركسيون مخرج من ذلك إلا بالزعم بحدوث أشياء لم تحدث بالفعل ! وماذا لو حدث أمر يتناقض فى موقعة الجدلى مع قوانين ماركس ؟ الحل الوحيد لدى الماركسين حيال ذلك أن ينفوا حدوث هذا أصلاً وكأنهم عميان لم يرونه ويريدون أن يرغمونا على أن نكون عميان مثلهم : هذا هو جوهر الفلسفة الحقيقى الذى جعل الفلاسفة يعتبرونها ميتافيزيقية (غسيق) أكثر من الأديان نفسها .

وماسبق نفسر لنا مثلاً لماذا يطير الشيوعيون عندنا على إتهام التيار الإسلامى بالعماله لأمريكا ؟ مع أن الواقع الذى يهدب الجميع يثبت أنهم أشد أعدائها) لأن هذا ماتحتمه تلك الفلسفة بشكل مسبق فيجب أن يذهبوا إليه مهما تناقض مع الواقع .

وكان هذا التناقض مع ماتفرضه الماركسية من وقائع ومايحدث فى الواقع بالفعل هو مشكلة المشاكل لديها منذ البداية وكان الماركسيون يجدون الحل دائما

فى ترقيع النظرية بما يؤدى من الناحية الموضوعية إلى هدمها تماماً حتى إهترأ الثوب تماماً وسقطت النظرية على يد أتباعها فى كل مكان لأنهم لم يستطيعوا سد الثغرات التى صارت فجوات فى ثوب الماركسية المهلهل الذى مزقته التناقضات المستمرة مع الواقع فماركس يذهب إلى أن علاقات الإنتاج تتطور على أساسها وتحت تأثيرها كافة مظاهر المجتمع الأخرى السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية ولذلك ذهب إلى أن الثورة العمالية سيكون منشأها أولا فى الدول الصناعية الكبرى أولاً (وبالذات إنجلترا) وهذا مايتفق مع رصده فى هذه الدول مما يتطابق مع نظرياته فى علاقات الإنتاج وفائض القيمة وقانون زيادة البؤس ولكن ماحدث فى الواقع يناقض ذلك وهو قيام فى دول غير صناعية مثل روسيا والصين بينما الدول الصناعية الكبرى تقارب فيها الوفاق بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ومااكتسبه العمال من حقوق وتأمينات بل وحدث ماجعل كلام ماركس أمراً مضحكاً فقد ثار عماله أنفسهم على دوله الإشتراكية وجاء التطور العلمى الهائل فى القرن العشرين وإلغاء الدور الفعال للعمال بعد التشغيل الأتومانيكى لعمليات الإنتاج وعلاقات الإنتاج هذه كان من الضرورى أن تفرز أشخاص أسوياء إشتراكيين فى مجتمع إشتراكى حسب نظريات ماركس لكنها عادة ماتفرز ديكتاتوريات يندر وجودها فى التاريخ مثل ستالين و شاوشيسكو وماو .

هل من الممكن للديالكتيك الماركسى الحلزونى أن يتراجع إلى الوراء بدلا من الأمام ؟! إذن ماذا سيفعل الماركسيون حيال سقوط الماركسية فى دول شرق أوروبا وتحولها بطريقتين أو بأخرى إلى دول رأسمالية أو شبه رأسمالية؟هل العالم يمضى إلى الأفضل دائماً كما تحتم ذلك نظريات ماركس ؟ إذن فما معنى الذى حدث من قتل للملايين فى الحربين العالميت الأولى والثانية وموت أكثر من ٥٠ مليون سانوياً بينما تراكم الأسلحة النووية يهدد العالم بالإنفجار .

إن الحديث عن الماركسية الأن هو حديث عن المناظرة مع شخص على وشك الموت أو مات بالفعل وقد لايظهر هذا الكتاب إلى النور قبل أن تسقط

الماركسية فى كل مواقعها وعلى يد الماركسيين أنفسهم (على الرغم من أنف الماركسين العرب العميان .

لقد أصر ماركس على أن العامل الإقتصادى هو العامل الحاسم فى عملية التطور التاريخى (وليس الوحيد كى يتهمنا إنجلز بعدم فهم المذهب بالرغم من أن المصطلحين من حيث الواقع يؤديان إلى نفس المعنى) أى لا الجنس ولا عشق السيادة ولا الأقدار التى يسمونها الصدف ولا الدين ولا البطولة ولا العبقرية (لاحظ ذهاب إنجلز إلى أن عبقرية ماركس هى التى ستغير التاريخ) ولا أى أمر آخر له مثل هذا الدور الحاسم الذى يشكله العامل الحاسم وبالرغم مما يتسم به القرن العشرون من إبراز للدور الإقتصادى حتى أن الحروب الإقتصادية قد رجت العالم أكثر من مرة والآن تتغير خريطة العالم على يد احد تلاميذ ماركس كارل ماركس أى جورباتشوف فى نفس الظروف الإقتصادية التى لم يفعل غيره حيالها شيئاً فهل الأمر يتعلق بتلك الظروف أم بعبقرية جورباتشوف وشخصية الفريدة .

وهل سيظل جورباتشوف هذا يقول أن إصلاحاته تنطلق من لينين (وكم كان لينين ملفقاً محطما لقواعد الماركسية) الذى ذهب إلى أن الإشتراكية صناعة جماهيرية أم سيقف آخر الأمر معلناً ماأعلنته الصين سنة ١٩٨٤ من أنه : « لايمكننا أن نتوقع من أعمال ماركس ولينين أن تحل مشكلات العصر الراهن » أم أن الأمر كما يدعيه أطفال الحزب الشيوعى المصرى ليس أكثر من تطوير للماركسية ؟ تطوير إلى أين ؟ إلى أى مدى من الممكن أن تسمح الماركسية بالتطوير ؟ تلك الفلسفة (الدينية) التى يعنى سقوط أى أصل فيها جميعاً نعم أليست قوانين علمية تنتظم فى شكل هرمى ماذا لو انتزعنا أحد أخلاع ذلك الهرم ؟ أم أنهم سيعودون إلى ماكان يردده المفكرون دائماً وهو أن الماركسية مجموعة من النظريات والآراء الإشتراكية التى يمكن الإستعانه بها وليس الإعتماد عليها فى فهم الواقع ؟ نعم فقد يعودون إلى ذلك ولكن بعدما

- ملحوظة: ماقدمناه فى هذه الصفحات القليلة عن الماركسية هو بمثابة وضع لخطوط سريعة على عدة محاور بما يتفق مع حجم الكتاب وأهم المراجع التى إعتمدنا عليها فى تلك الصفحات .
- الشيوعية والإنسانية للعقاد
- أصول الفلسفة الماركسية لشيتولين .
- ضد دوهرنج لإنجلز
- الماركسية قولا وعملا لكاريوهنت .
- الماركسية والثورة لسارتر
- نقد العقل الجدلى لسارتر
- سقوط المراكسين لوحيد الدين خان .

أما ما أحب أن أوصى بقراءته شباب التيار الإسلامى لنقد هذه الفلسفة فهو الكتب التالية .

- سقوط الماركسية لخان (الصحوة)
- فلسفتنا لباقر الصدر (دار الكتاب)
- أوهام المادية الجدلية لمحمد سعيد رمضان البوطى (دار الفكر بدمشق ودار السلام بالقاهرة)

الفهـــــــرس

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٠ \ ٢٥٦٩

تصويب اخطاء

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٢٨	٣	مسـنة	منة	١١٠	١٧	هنانها	هنابانها
٢٨	٧	الاجير	الاخير	١١١	٥	٥٠ ميل	٥٠٠ ميل
٤٧	١٨	تسبق	تدرك	٤١١	١٨	المعتدلين...	النطاق الضيق
٥٥	٨	ملوك	سلوك			..الحدود	للقوانين والحـدود
٦٢	٦	صرامة	صراحة	١١٤	١٩	السطر باكملة	يحذف
٥٠	٨	أحداً	أحد	١١٤	٢٢	يحوقها	يقتضيها
٦٠	١٦	تذدرى	تزدرى	١١٦	٢٠	مايفسر	من يفسر
٦٥	١١	أثراً معروفاً	أثر معروق	١٢٢	١٩	ولم تكتفى	ولم تكتف
٦٥	١٣	ضيفت	ضغط	١٢٣	٩٨	عرض موجز	هذا العرض الموجز
٦٨	١١	ارتقائة	ارتقاءه	١٢/	٢١	بين	بيت
٧١	٢	العربى	الغربى	١٣٠	١	الثابت	بعكس الثابت
٧١	٤	الغربى	العربى	١٤٢	٢٣	وأفحمها	وأقحمها
٧١	١٨	وجسده..	بدلا منها	١٤٤	٢٢	وباء فعلة	وراء فعلة
		...العميقة	من ترديد قولة	١٤٣	٢١	لعبث	ليعيشا
٧١	٢٠	أعضاء	ادراك	١٥٢	٨	يلقف	يتفوق
٩١	٤	لاعلى نفعا نضر	رام نفعا فضر	١٥٠	١٦	وظل يردد	وظل سارتر
٩٧	٤	مادام	ماداموا	١٥٣	١٢	نشاطك	انشطك
٩٨	٢٠	الجديد	الجديو	١٥٣	٦	الذى	الذين
٩٩	٢١	ويقوم	ويقدم	١٥٦	٤	وجودنا	جهودنا
١٠٠	٣	مايمنة	مايمنع	١٦٥	١٥	..بداهة	..الى بداهة
١٠٢	١	أولى	أولوا	١٧٢	١٢	ميزين	سيزيف
١٠٣	٤	تحت	تحث	١٧٦	٣	التشبيت	التجريب
١٠٦	٢	فماذا لأسلام	فماذنب الآسلام	١٨٢	٣	بالعمى أن	بالعمى فاجابة
١٠٩	٢	الليون	الليوث			....	قائلا : أن
١٠٩	٢٢	الثانية معادية	الثالثة معادية	١٨٢	٢٠	يطير	يصر
		ثالثة متطرفه	والثانية متطرفة	٦٦	١	اليدو أيضاً	اليدو والسيحية ايضا

- ما هى العلمانية
- القيمة الحقيقية للحضارة الإغريقية بين الحضارات القديمة
- الإنجازات العلمية والفكرية للحضارة الإسلامية
- هل التقدم العلمي هو امتداد للحضارة الإغريقية أم وليد الحضارة الإسلامية ؟
- ما هى الصليبية
- دور رفاعة الطهطاوى فى إرساء قواعد العلمانية فى مصر والعالم الإسلامى .
- دور لطفى السيد
- دور د. طه حسين .
- مواجهة صريحة مع أفكار د. زكى نجيب محمود .
- مواجهة صريحة مع أفكار د. فؤاد زكريا .
- موقف علماء الإسلام من رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ
- عرض موجز لرواية (أولاد حارتنا)
- العلاقة بين فكر نجيب محفوظ وسلمان رشدى وآياته الشيطانية
- عرض نقدى لرواية آيات شيطانية
- موقف الإسلام من العلمانية
- علاقة العلمانية بالحداثة من الناحية الفكرية
- منهج جديد مقترح لمحاورة العلمانيين
- نقد الفلسفة البراجماتية
- نقد الفلسفة الوجودية .
- نقد الفلسفة الوضعية المنطقية
- نقد الفلسفة الماركسية

يطلب من

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ش نور سعيد - السيدة زينب



THABIT PUBLISHING COMPANY

Muhammad ... 39295